



مجلة

مَجْمَعُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَشَقِّ

«مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً»

مجلة محكمة فصلية

شوال ١٤٣٩هـ والمحرم ١٤٤٠هـ

تموز وتشرين الأول ٢٠١٨م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

السُّدَيْرُ الْمُسَوَّلُ: الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع

بجنته المجلة

الدكتور محمود السيد «رئيس التحرير»

الدكتور مكي الحسني الجزائري

الدكتور مازن المبارك

الدكتور ممدوح خسارة «المقرر»

الدكتور محمد محفل

الدكتور لبانة مشوح

الدكتور وهب رومية

الدكتور عبد الناصر عساف

أمينة المجلة: ريم الملاح

أغراض المجلة:

إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية وأبرزها:

المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمة لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والأدبية والحضارية، ودراستها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأقطار العربية كافة.

**البحوث والمقالات المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها،
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع باستثناء القرارات الجمعية**

قواعد النشر:

- ١- أن يتسم البحث بالجدة والأصالة والموضوعية.
- ٢- أن يُرفق البحث بالسيرة الذاتية والعنوان البريدي والإلكتروني.
- ٣- ألا يقلّ البحث عن عشر صفحات وألا يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة (٧٠٠٠ كلمة)، أما المقالات والتعريف بالكتب فيُقبَل منها ما يقلُّ عن عشر صفحات.
- ٤- أن تكتب في بداية البحث مقدمة تبين الغرض منه والبنود الرئيسية التي سيتناولها بالتفصيل.
- ٥- أن يخلو البحث من أي إساءة إلى الكُتّاب والباحثين أو غيرهم، وأن يحترم المعتقدات الدينية والفكرية للشعوب.
- ٦- أن يُعدَّ الباحث - إذا رغب في ذلك - ملخصاً لبحثه بالإنكليزية أو الفرنسية.
- ٧- أن يلتزم الباحث المنهج العلميّ في التوثيق، فتُعطى الحواشي أرقاماً

متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته، وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها كما يلي:

- أ- «اسم المؤلف أو الكاتب - اسم الكتاب أو المجلة - رقم الصفحة»،
وفي المصادر والمراجع يكتب:
ب- «اسم الكتاب - اسم المؤلف - اسم دار النشر ومكانها - رقم الطبعة وتاريخها».

ويمكن للكاتب أن يتخير أحد البندين (أ) أو (ب) على أن يجري على نسق واحد في توثيق المصادر والمراجع والحواشي.

- ٨- أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة بالحرف (MyLotus) أو (Traditional Arabic) قياس (١٦)، وأن تشفع بقرص مدمج مسجل عليه عنوان البحث، أو ترسل بالبريد الإلكتروني.
٩- أن توضع الكلمات العربية أو المُعرَّبة قبل مقابلها الأجنبي عند ورودها أول مرة فقط، نحو: تقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسية (Psychologic).

١٠- أن يُعنى الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة، الفاصلة، الفاصلة المنقوطة، إلخ...

١١- تنشر المجلة البحوث والمقالات التي ترد عليها بعد أن تخضع للتقويم السري.

١٢- ألا يكون البحث منشورًا أو مرسلًا للنشر في مجلة أخرى أو مستلًا من رسالة، ويتعهد الباحث خطيًا بذلك.

١٣- تُرتب البحوث والمقالات وفق اعتبارات فنية.

١٤- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تردُّ إلى أصحابها.

١٥- ترسل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان الآتي:

دمشق ص. ب ٣٢٧. البريد الإلكتروني: E - mail: mla@net.sy

تُنشر المجلة في موقع المجمع على الشبكة (الإنترنت):

www.arbacademy.gov.sy

* * *

نعي فاضل

ينعى مجمع اللغة العربية بدمشق:

الأستاذ الدكتور

محمد عدنان الحموي

العضو المراسل في مجمعنا منذ عام ٢٠٠٠

وأستاذ الرياضيات في كلية العلوم بجامعة دمشق، وفي جامعة الكويت سابقاً،

وعضو هيئة تحرير «مجلة التعريب» التي يصدرها

«مركز التعريب بدمشق»

لقد كان فقيدنا من أنصار تعريب العلوم، فشجع «مؤسسة الكويت للتقدم العلمي» على التعاقد مع المجلة العلمية الأمريكية (سايينتيك أمريكان Scientific American)، وهي مجلة علمية راقية تخاطب عموم المثقفين، لنقلها إلى اللغة العربية ونشرها، وصدرت في الكويت باسم (مجلة العلوم)، وتولّى رئاسة تحريرها.

توفّاه الله تعالى في ٢٠ من المحرّم ١٤٤٠هـ الموافق لـ ٣٠/ من أيلول/ ٢٠١٨ عن عمر ناهز ستة وثمانين عاماً.

نسأله تعالى أن يتغمّد فقيدنا برحمته الواسعة، وأن يلهم أهله وأجباءه الصبر والسلوان.

وإنّا لله وإنا إليه راجعون

مجمع اللغة العربية بدمشق

نعي فاضل

ينعى مجمع اللغة العربية بدمشق:

الأستاذ الدكتور

أحمد مطلوب

رَحْمَةُ اللَّهِ

رئيس المجمع العلمي في بغداد

الذي كان علماً من أعلام الأدب واللغة، وأسهم أيّما إسهام في الحركة الثقافية العربية من خلال مؤلفاته وبحوثه ودراساته التي أغنى بها المكتبة العربية، والمسؤوليات الثقافية والسياسية التي أنيطت به في العراق.

رحم الله عالمنا الجليل، وتغمّده بواسع رحمته، وندعو الله أن يسكنه فسيح جناته، وأن يلهم أهله وذويه وطلابه ومحبيه الصبر والسلوان، وأن يعوّض الله عنه من يتابع رسالته النبيلة التي وقف الفقيه نفسه عليها.

وإنّا لله وإنا إليه راجعون

مجمع اللغة العربية بدمشق

فهرس الجزأين الثالث والرابع

من المجلد الحادي والتسعين

البحوث والدراسات

- ٢٩١ - قراءة نقدية في بحوث مؤتمر مجمعي ج ١ د. محمود السيد
- تكملة مادة لغوية
- ٣١٣ - أثر - أسس - تمتم - جم - رجد د. ممدوح خسارة
- إتمام الأنس في عروض الفرس لطاهر
- ٣٢٩ - الجزائري - قراءة في النص والتحقيق د. عبد الناصر عساف
- شواهد الشواهد
- ٣٦٥ - نمط عالٍ من الشعر الوجداني د. محمد رضوان الداية
- ٤٠١ - إعراب المثنى والجمع الذي على حدّه د. إبراهيم عبد الله
- الحجاج في بائية إسماعيل بن يسار
- ٤٣١ - النسائي د. سمر الديوب
- المعجم وعلاقته بالنحو
- ٤٦١ - عند الدكتور تمام حسان د. سعد فرج الله

المقالات والآراء

- ٤٩٩ - تعبير معنى الكلمة بتغيير لفظها د. مكى الحسني

- ٥٠٧ - جهود التعريب في التعليم العالي
جامعة دمشق نموذجاً
د. لبانة مشوح

المحاضرات والمدارسات

- ٥١٩ - المدرسة الشعرية الشامية
في عصر سيف الدولة الحمداني
د. عيسى العاكوب

أنباء جمعية وثقافية

الاحتفاء بيوم اللغة الأم

ويوم اللغة العربية

- ٥٤٥ - كلمة الدكتور مروان المحاسني
٥٥٢ - كلمة الدكتور موفق دعبول
٥٦٥ - من قرارات مجلس المجمع في الألفاظ والأساليب
٥٧٩ - المحاضرات والندوات عام ٢٠١٨ م
٥٨١ - إصدارات المجمع عام ٢٠١٨ م
- الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة المجمع
٥٨٣ في الربعين الثالث والرابع من العام ٢٠١٨
٥٨٧ - فهرس المجلد الحادي والتسعين



البحوثُ والدراسات

قراءة نقدية في بحوث مؤتمر مجعبي

الأستاذ الدكتور محمود السيد^(*)

نحاول في هذا البحث أن نسلط الأضواء على بحوث المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية في القاهرة في دورته الرابعة والثمانين، وموضوعه «حماية اللغة العربية: التحديات، الوسائل، الأهداف»، وقد انعقد المؤتمر في الفترة الواقعة بين ٢ نيسان (أبريل) و١٦ منه لعام ٢٠١٨. ويمكن تصنيف هذه البحوث في ثلاثة أقسام، أولها بحوث في مجال التخطيط اللغوي، وثانيها في مجال التأثير في اللغة العربية، وثالثها بحوث لغوية تربوية.

أولاً - بحوث في مجال التخطيط اللغوي وحماية العربية

١ - بلغ عدد بحوث هذا المحور تسعة، وكان البحث الأول الذي ألقى في المؤتمر من هذه البحوث هو بحث «التخطيط اللغوي ودوره في حماية اللغة العربية» للأستاذ الدكتور محمود السيد عضو المؤتمر من سورية، وقد اشتمل هذا البحث على أربعة أقسام، تناول أولها دور لغتنا العربية في حياة المواطن العربي وأمتة، ووقف ثانيها على تحديات عدة واجهتها وتواجهها لغتنا العربية على الصعيدين الخارجي والداخلي، فأبان هذه التحديات، ثم خصص القسم الثالث من بحثه للتخطيط اللغوي مفهوماً وأهدافاً وقضايا، ومن هذه القضايا ما

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

يتعلق بالعملية التعليمية التعلمية وما هو خارج هذه العملية، فحدّد الموقف منها، وأشار إلى أن من بعض قضايا التخطيط اللغوي التي تحتاج إلى تحديد موقف منها قضية العامية واللهجات الدوارج، وقضية اللغات الأجنبية في العملية التعليمية التعلمية، وقضية لغات الفئات الخاصة على الأرض العربية، وقضية لغات العمالة على الأرض العربية، وقضية سيرورة الكلمات الأجنبية في السلع والبضائع، وقضية المؤتمرات المنعقدة على الأرض العربية باللغة الأجنبية، وقضية اللغة العربية في المحافل الدولية، وزيادة نسبة المحتوى الرقمي العربي على الشبكة (الإنترنت)، والترجمة إلى العربية ومنها إلى اللغات الأجنبية، والتشريعات والقوانين التي تحمي اللغة، والتوعية اللغوية. أما القسم الرابع والأخير من البحث فقد تناول فيه مجموعة من الصوى على دروب التخطيط اللغوي تجلّت في الانطلاق من سياسة لغوية في عملية التخطيط، وشمولية لجميع جوانب المسألة اللغوية، والتنسيق بين الجهات المعنية والتكامل، واشتمال مرحلة التنفيذ على الأنشطة التفصيلية والإجراءات والمبادرات والمشروعات والمسابقات، ووضع آليات فاعلة للمتابعة ووضع الحوافز المادية والمعنوية، وتعزيز الأعمال (التمثيلية والمسرحية) والبرامج الموجهة إلى الأطفال بالفصيحة، والاستثمار في اللغة العربية، وتوحيد المصطلحات، وتفعيل الترجمة، والتركيز على الانتماء والوعي اللغوي ووضع قوانين رادعة لحماية العربية.

٢- وكان البحث الثاني للأستاذ الدكتور محمود كامل الناقة عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة، وعنوانه «حماية اللغة العربية وتحديات مجتمع المعرفة»، وقد تناول فيه بعد مقدمة طويلة عن اللغة ومجتمع المعرفة تحديات مجتمع المعرفة متمثلة في الانفجار المعرفي، وصراع الثقافات، والإبداع،

والحرية المعرفية، ووحدة النظرية والتطبيق، ووحدة المعرفة، واستثمار العقل، وتطور البحث العلمي، وشيوع استخدام الشابكة، وهيمنة اللغة الإنجليزية، وعدم اهتمام العرب بلغتهم، ثم خصص القسم الثالث من بحثه بعد المقدمة وسرد التحديات لموضوع اللغة العربية في مواجهة هذه التحديات، وخلص البحث إلى توجهات وتوصيات عدة تمثلت في دعوة المجامع اللغوية والهيئات والمنظمات المدنية والحكومية إلى التخطيط لسياسة لغوية يلتزم بها الجميع سعياً نحو الارتقاء باللغة العربية، والاهتمام بالبحث العلمي، والعمل على نشر مجهودات المجامع وتداولها وتوظيفها، وإنشاء مركز عربي دولي لتطوير تعليم العربية لأبنائها والناطقين بغيرها.

ومن الملاحظات التي يمكن أن نبديها على هذا البحث أن وضع السياسات اللغوية من مهام الحكومات، وليس من مهام المجامع اللغوية وحدها، وثمة نوعان من السياسات اللغوية إحداهما سياسة لغوية قومية على الصعيد العربي، وثانيتها سياسة لغوية وطنية على الصعيد القطري توضع في ضوء السياسة القومية، على أن تضع السياسة اللغوية القومية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لأنها الجهة المعنية بتوحيد الفكر التربوي والثقافي والعلمي على الصعيد العربي، وهي المعنية أيضاً بتطوير تعليم اللغة العربية إن لأبنائها أو لغير أبنائها من الناطقين بغيرها. وأما توصيته بإنشاء مركز عربي دولي لتطوير تعليم اللغة العربية لأبنائها والناطقين بغيرها فإن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم هي الجهة المعنية بهذا التطوير، وقد وضعت دراسات عدة في مجال تطوير اللغة العربية لأبنائها في مراحل التعليم العام، ولديها المركز الدولي لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في الخرطوم.

٣- وكان البحث الثالث في محور التخطيط اللغوي للأستاذ الدكتور

محمود فهمي حجازي وعنوانه «التخطيط اللغوي وحماية اللغة الوطنية»، وقد اشتمل على ستة أقسام، تناول في أولها مفهوم التخطيط اللغوي الذي يُعنى بمجالات عدة، لها تشريعاتها ونظمها في إطار دستور البلاد، وأبان أنه لا يقتصر على أبناء اللغة الوطنية في الداخل بل يستوعب المقيمين منهم في خارج الدولة، وأبناء الجماعات الإثنية في داخل البلاد، وعرض الباحث في القسم الثاني من بحثه للجهات المعنية بالتخطيط اللغوي ومسؤولية الدولة في تكوين الظروف المناسبة لتعليم اللغة وتنميتها، وإبراز مكانتها في مجالات الحياة والعمل والتعليم، ومحو أمية الكبار، والعناية بتعليم الصغار، واستخدام اللغة العربية في التعليم العالي، وفي الإعلام والشعائر الدينية الإسلامية والمسيحية، وفي ضروب الإبداع الأدبي والفكري. وأوضح في القسم الثالث من بحثه الحقوق والمسؤوليات، وفي القسم الرابع عرض لآفاق التخطيط اللغوي العربي كما تجلّت في مؤتمر «لنهض بلغتنا» الذي عُقد في دبي عام ٢٠١٣ والبيان الصادر عنه. وفي الندوة التشاورية التي دعت إليها جامعة الدول العربية عام ٢٠١٤ لبحث موضوع النهوض باللغة العربية، كان ثمة توجّهٌ لعرض الموضوع على مؤتمر القمة العربي الذي سيعقد لاحقاً، وطالب المجتمعون جميع السلطات الوزارية العربية باتخاذ قرارات سيادية وقومية ومصيرية على مستوى وزاراتهم لفرض اللغة العربية في جميع المؤسسات التابعة لها، وتأسيس مؤسسات وهيئات وطنية تُعنى بالتعريب والترجمة العلمية والثقافية والتقنية الصناعية. وعالج الباحث في القسم الخامس من بحثه أهمية التخطيط اللغوي العربي في قضايا مجتمعية معاصرة تبدّت في مشكلة الثقافة اللغوية، ومشكلة الأداء اللغوي، ومشكلة الأمية، ومشكلة المناطق ذات الوضع الثقافي الخاص،

ومشكلة العربية في التقنيات. أما القسم الأخير وهو السادس من بحثه فوقف على المتطلبات الأساسية لعمل تخطيطي لحماية اللغة العربية، فأشار إلى ضرورة تكوين المناخ الثقافي المناسب، واستخدام اللغة في مجالات عدة، وأوضح مراحل العمل، وأنهى الباحث بحثه قائلاً: «يتطلب التخطيط اللغوي وجود رؤية مستقبلية، ومؤسسات تخطط، وتنفذ، وتتابع، وتذلل الصعوبات، وتعطي المواطن العربي ثقة في ذاته وأملًا في مستقبله، وتحويل الأمر إلى واقع يتطلب وضوح الرؤية وحسن التخطيط والتنفيذ الجاد، وما لا يدرك كله لا يترك جله».

ومما تجدر الإشارة إليه في ما ذكره الباحث في عرضه لآفاق التخطيط اللغوي العربي كما تجلت في مؤتمر «لننهض بلغتنا» الذي عُقد في دبي عام ٢٠١٣، وفي الندوة التشاورية في القاهرة التي دعت إليها جامعة الدول العربية عام ٢٠١٤ لبحث موضوع النهوض باللغة العربية والتوجه إلى عرض الموضوع على مؤتمر القمة العربي الذي سيعقد لاحقاً، أن ثمة مشروعاً للنهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة كانت قد تقدمت به الجمهورية العربية السورية إلى مؤتمر القمة العربي الذي عُقد في دمشق عام ٢٠٠٨، وقد اعتمده المؤتمر وقدم الشكر لسورية على مبادرتها لإطلاق هذا المشروع، وكلف المؤتمر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم العمل على تنفيذه بالتنسيق مع سورية والدول الأعضاء، وقامت المنظمة بالتنفيذ وقطعت خطوات في هذا المجال، وكان حرياً بالمجتمعين في الندوة التشاورية أن يوصوا باستكمال إنجاز هذا المشروع، ومن المؤسف أن يتناسوه؛ لا بالتفكير في مشروع آخر للنهوض يُعرض على مؤتمر القمة القادم، كما كان حرياً بهم أن يوصوا بدعم المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، ومقره في

دمشق، وهو تابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وهو الجهة المعنية بالترجمة والتعريب على المستوى القومي، لا أن يوصوا بتأسيس هيئة تُعنى بالتعريب والترجمة، وكأنهم، ويا للأسف، في غياب عما لدى جامعتهم العربية من منظمات ومراكز وهيئات، وهذا الأمر يشير إلى التخبط والفوضى في معالجة قضايانا اللغوية والثقافية، كما يشير إلى نكران الجهود المبذولة من قبل، والتفكير في الانطلاق من الصفر في وضع المشروعات لا العمل على استكمال ما وضع من قبل، والسعي إلى تنفيذ الخطوات المتبقية من هذا الإنجاز حتى يغدو كاملاً، والانتقال إلى إنجاز مشروع آخر يتكامل معه، ويدعم البنات المصممة للارتقاء بواقعنا اللغوي.

٤ - ومن بحوث محور التخطيط اللغوي بحث الدكتور (نقولا دوبريشان) عضو المؤتمر، وهو المجمع المراسل من رومانيا، وعنوان بحثه «التخطيط اللغوي ودوره في إزالة الازدواج اللغوي وضمان سلامة اللغة العربية ووحدتها»، وأبان في بحثه أن ثمة مستويين لغويين أحدهما المستوى العالي الأدبي بالفصيحة، والثاني مستوى اللهجات العامية المهذبة للمستوى الأول، وأشاد بمكانة اللغة العربية وإسهامها في مسيرة الحضارة البشرية وعالميتها، وتبّه على خطر العولمة على اللغة العربية، وناقش مصطلح «الازدواجية اللغوية» مبدياً استهجاناً لهذا المصطلح في واقع اللغة العربية، ومشدداً على خصائص اللغة الفصيحة، ودورها في ضمان وحدة الأمة العربية ورسالتها الخالدة. ثم أبان أن عملية التخطيط اللغوي يمكن أن تكون عملية فردية أو مؤسسية، وأشار إلى جهود المجمع اللغوية في التخطيط اللغوي، ووضع المصطلحات، والتقريب بين العاميات والفصيحة، كما أشار إلى جهود كبار المثقفين العرب، وفنّد ادّعاءات ما سمّي بالربيع

العربي، ومنعكساته المدمرة في المنطقة العربية، وأوضح دور الصحافة المكتوبة، ووسائل الإعلام السمعية البصرية في تشجيع اللغة الفصيحة، والتقارب بينها وبين العاميات، ودور التعليم في تعزيز الفصيحة، ومنع استخدام اللهجات، ويجيء في مقدمة أولويات التخطيط اللغوي. وأبان دور الأدب إلى جانب الصحافة وأنه نموذج مثالي في التخطيط اللغوي للارتقاء بالفصيحة، وذكر جهود الأديبين المصريين الدكتور طه حسين، والروائي نجيب محفوظ في هذا المجال، وجهود جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة من لبنان، وغسان كنفاني وإبراهيم جبرا من فلسطين، والطيب الصالح من السودان، وعبد الكريم غلاب [من المغرب] وإبراهيم الكوني وإبراهيم الفقيه من ليبيا، وحناء مينة وزكريا تامر من سورية. ونوّه الباحث بجهود عدد من الشعراء في تعزيز الفصيحة من أمثال بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي من العراق، ونزار قباني وأدونيس من سورية، وفاروق شوشة من مصر.

وتجدر الإشارة إلى أن المحاضر (دوبريشان) ذكر أن بعض القصاصين حرّروا قصصه باللهجة المحلية، وهو يعارض هذا التوجه حفاظاً على الفصيحة، وعدّد أخيراً في بحثه مؤسسات القضاء والإدارة العامة في مجال التخطيط اللغوي والمؤسسات الدينية، وأوصى بأنه من الضروري إلزام وسائل الإعلام بإذاعة الإعلانات المكتوبة بالفصيحة، وتألّف قاموس عملي لتصحيح الأخطاء الشائعة في النحو والإملاء، ووضع قوانين لازمة لفرض استخدام الفصيحة في ميادين الحياة، منعاً لانتشار اللهجات العامية، وأنهى المحاضر بحثه قائلاً: «ولا يسعني إلا أن أشير إلى أن اللغة العربية الفصيحة هي لغة القرآن الكريم، المبين العروة الوثقى لجميع المؤمنين، والدين الإسلامي،

ولذلك أصبحت حماية سلامتها ونقاوتها ومنع استخدام اللهجات واجباً دينياً وقومياً مقدساً، وأنا مقتنع بأن الفصحى ستذلل العوائق وستصبح عاجلاً أو آجلاً اللغة الوحيدة الصحيحة المستخدمة في الوطن العربي».

في الواقع يُشكر المستشرق (دوبريشان) على غيرته على الفصيحة، وعلى ما أشار إليه من تحديات تتعرض لها في ظل العولمة، وعلى تعداده للجهات المسؤولة والمعنية بالتخطيط اللغوي، وإن كنا نرى أن التخطيط مسؤولية مجتمعية يتطلب تنفيذ الواعي اللغوي والمساءلة ووضع التشريعات اللازمة.

٥- وقدم الأستاذ الدكتور محمد حسن عبد العزيز عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة بحثاً عنوانه «التخطيط اللغوي في العربية: تيسير قواعد النحو نموذجاً»، وأشار إلى أن من أهم مجالات التخطيط اللغوي في الوطن العربي في العصر الحديث تيسير قواعد العربية الفصحى في مراحل التعليم المختلفة، وأوضح أن التفكير في تيسير النحو كان قديماً، فقد أشار الجاحظ إلى الاقتصار في تعليم النحو للصبي على القدر الضروري الذي يحتاج إليه، وفي العصر الحديث سأل الباحث الضوء على ما قامت به لجنة تيسير اللغة العربية في وزارة المعارف المصرية عام ١٩٣٨، وما قام به مؤتمر مفتشي اللغة العربية عام ١٩٥٧ من جهود في معرض التيسير، وما طُبّق إبان الوحدة بين سورية ومصر، ووقف في بحثه على مقولة الدكتور السعيد بدوي: نحوٌ ندرسه ولا نحتاج إليه، وآخر نحتاج إليه ولا ندرسه، وقدم أمثلة عدة على مباحث نحوية نحتاج إليها ولا ترد في المناهج، ومباحثٍ أُخر لا نحتاج إليها وتدرّس للمتعلمين، وكان لنحو المعاني وقفة مستأنية عند الباحث، فعرض لكتاب إحياء النحو لإبراهيم مصطفى على أنه ثورة على النحو التقليدي، وكان صاحبه أول من وضع مشروعاً لتيسير النحو في العصر الحديث، وكان رئيس اللجنة التي ألّفت كتاب «تحرير النحو العربي» الذي ألّف

ليكون موافقاً للاتجاهات الحديثة في التيسير، وكان من ألمع تلاميذه من العراق الدكتور أحمد عبد الستار الجوارى والدكتور مهدي المخزومي، وعرض الباحث لكتابي الجوارى «نحو التيسير» و«نحو المعاني» وكتابي مهدي المخزومي «في النحو العربي: نقد وتوجيه» و«في النحو العربي: قواعد وتطبيق».

وأوضح الباحث في خاتمة المطاف لبحثه أن النحو الذي يدعو إليه بعض المفكرين واللغويين، ويطالبون بإعادة النظر فيه هو النحو الذي يعلم في المدارس في مراحل التعليم الأساسي، وأن الهدف من التيسير أن يكون النحو الميسر أقدر على تمكين الناشئة من فهم أوضاع اللغة وأساليبها ومن التصرف فيها، وفي ضوء ذلك كان دعاة نحو المعاني، إلا أن هؤلاء الدعاة لم يهتموا بملاءمة تجديداتهم للتعليم، ولم تنجح محاولاتهم في هذا المجال.

ويتبين من عرض الباحث أن التركيز كان على تيسير المادة النحوية في حين أن تيسير النحو في العصر الحديث كان أوسع دائرة من الاهتمام بتيسير المادة النحوية، فهناك التوجه إلى تيسير طريقة تدريس النحو؛ لأنَّ الطريقة هي المسؤولة عن تدني مستوى تحصيل المتعلمين بالنحو، وثمة نفر من التربويين رأى أن بناء مناهج القواعد النحوية هو الذي ينبغي له أن يكون موضع الاهتمام بالتيسير، بحيث تبنى هذه المناهج على أساسيات المادة النحوية ومتطلبات المتعلمين ومتطلبات المجتمع في وحدة عضوية بين هذه الأركان الرئيسة في بناء المناهج. ثم إنَّ الباحث لم يشر إلى محاولات عدة لتيسير النحو عند القدماء من أمثال محاولة خلف بن حيَّان الأحمر البصري في كتابه «مقدمة في النحو»، ومحاولة أبي جعفر النحاس النحوي في كتابه «التفاحة في النحو»، ومحاولة ابن مضاء القرطبي في كتابه «الرد على النحاة»، ومحاولة ابن رشد في كتابه «صناعة النحو»، ولم يشر الباحث

أيضاً إلى محاولات عدة لتيسير النحو عند المعاصرين من أمثال محاولة النحو الوظيفي لعبد العليم إبراهيم، والنحو المعقول لمحمد كامل حسين، وتجديد النحو للدكتور شوقي ضيف، وأساسيات القواعد النحوية مصطلحاً وتطبيقاً لمحمود السيد، وتطوير مناهج القواعد النحوية وأساليب التعبير في مراحل التعليم العام في الوطن العربي للسيد أيضاً... إلخ.

٦- ومن البحوث اللغوية التي تنضوي تحت محور التخطيط اللغوي بحث «السياسات اللغوية بين التطوير والتدمير» للدكتور علي القاسمي عضو المجمع المراسل من العراق، وأبان فيه أن السياسة اللغوية تهتم جميع المجالات في الدولة، وأن التنمية البشرية تقاس بانتشار المعرفة بين السكان وتمتعهم بالخدمات الصحية الجيدة، وحصولهم على دخل كافٍ للعيش بمستوى يليق بالكرامة الإنسانية، وهذا يتطلب إيجاد مجتمع المعرفة القادر على النفاذ إلى مصادر المعلومات، وتلقيها، واستيعابها، وتبادلها، والإبداع فيها، والإضافة إليها بيسرٍ وسرعة. وأداة النفاذ إلى مصادر المعلومات هي اللغة طبقاً لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي. وأوضح الباحث أن غاية التخطيط اللغوي هي تطوير اللغة لتكون أداة فاعلة في تحقيق التنمية البشرية، ثم عرض لبعض ملامح التخطيط اللغوي عند الآشوريين والمصريين القدماء، وأبان أن بعض اللغات وجدت فعلاً، وتطورت كمّاً وكيفاً بفضل قرار رسمي يمثل السياسة اللغوية للدولة كاللغة الفرنسية التي أضحت لغة رسمية بقرار اتخذه الملك (فرانسيس الأول) سنة ١٥٣٩م، ولم تدوّن قواعد اللغة الفرنسية إلا سنة ١٥٥٠، واليوم يمنع القانون الفرنسي الصادر بتاريخ ٤/٨/١٩٩٤ والمعروف بقانون (توبون)، استخدام اللغات الوطنية الأخرى في فرنسا استخداماً رسمياً، إذ يعدّ السياسيون الفرنسيون أن اللغة الفرنسية هي أحد العوامل الأساسية في

الوحدة الوطنية والتماسك الاجتماعي وتساوي الفرص. وأبان الباحث دور السياسة في تطوير اللغة أو تدميرها، وساق أمثلة على السياسات المعتمدة في تدمير اللغة العربية كسياسة الثنائية اللغوية في الدولة إذ تعتمد الإنجليزية في دول الخليج العربي والفرنسية في دول المغرب العربي في المؤسسات الاقتصادية والمالية والمصارف الوطنية والأجنبية، وفي التعليم لغة تدريس وخاصة في التعليم العالي. ومن السياسات المعتمدة في تدمير اللغة العربية السياسة التربوية؛ إذ تؤكد تقارير التنمية البشرية التي يصدرها سنويًا برنامج الأمم المتحدة الإنمائي أن تحقيق التنمية البشرية في البلاد يتطلب عناية الدولة بالتعليم والخدمات الطبية وتوفيرهما بجودة عالية لجميع المواطنين والتزامهما بالديمقراطية وتكافؤ الفرص بين أبناء البلاد، وقد تبنت تلك السياسة التنموية دول كانت أكثر تخلفاً من البلدان العربية قبل حوالي ستين عاماً، فأصبحت اليوم من الدول المتقدمة حقاً مثل ماليزيا وكوريا التي كانت أفقر دولة في آسيا، وفنلندا التي كانت أفقر دولة في أوروبا، والصين وإيران وتركيا وغيرها..

وأشار إلى أن السياسة التربوية المتبعة في الدول العربية مناقضة لجميع مبادئ التنمية البشرية، إذ إن النظام التعليمي في البلدان العربية أصبح ساحة تتصارع فيها مصالح الطبقات الاجتماعية والدول الأجنبية، فكل طبقة اجتماعية، وكل دولة ذات أهداف استعمارية، تسعى إلى أن تكون مخرجات التعليم في مصلحتها، وأن ينتج مجتمعاً يخدم هذه المصالح، وأوضح الباحث أن المدارس في الدول العربية هي على ثلاثة أنواع هي:

أ- المدارس الأجنبية.

ب- المدارس الأهلية أو الخاصة.

ج- المدارس الحكومية.

ثم أبان سمات كل نوع من هذه الأنواع، مشيراً إلى أن خريجي المدارس الحكومية الذين لا يتقنون اللغة الأجنبية لا يحصلون على وظيفة في سوق العمل الذي يعتمد اللغة الأجنبية مما ينتج عنه بطالة مرّة بين خريجي هذه المدارس فيضطر بعضهم إلى الهجرة في قوارب الموت إلى أوروبا، أو الانضمام إلى الحركات التكفيرية الظلامية، فيصيرون وقوداً للاضطرابات الاجتماعية والإجرام.

وقارن الباحث بين واقع المدارس الأمريكية في الدول العربية وكوريا، إذ إن المدارس الأمريكية في كوريا هي للأمريكان والأجانب فقط، وليس للكوريين الذين يدرسون جميع مواد المعرفة بالكورية وعلى نفقة الدولة، واحتلت كوريا المرتبة الثانية عشرة في سلم التنمية البشرية على الصعيد العالمي.

ومن السياسات الرامية إلى تدمير العربية، السياسة الإعلامية إلى جانب سياسة الثنائية اللغوية والسياسة التربوية، ففي السياسة الإعلامية تُقدّم معظم البرامج بالعامية الدارجة لا بالفصحى، وتعطى الأولوية لبرامج الألعاب الرياضية والأغاني والرقص على البرامج العلمية والأدبية، وتخلو البرامج الإعلامية من المسابقات المعرفية التي تشجع المواطنين.

وأضاف الباحث إلى السياسات الثلاث السابقة سياسة رابعة هي سياسة وأدّ عادة القراءة في المجتمع، وأسهمت عدة أمور في وأد هذه العادة منها تفضيل الحفظ على الفهم، وتفضيل النحو على القراءة في المدارس، واعتبار الكتابة هي اللغة.

وخلص الباحث إلى أن السياسات اللغوية المتبعة في الدول العربية ترمي عن قصد أو غير قصد إلى تهميش اللغة العربية عندما تفضل لغة المستعمر القديم على لغتها القومية، وتعتمدها لغة عمل في التعليم العالي

العلمي والتقني والمؤسسات المالية والاقتصادية والحياة العامة، وتغليب العامة الدارحة في وسائل الإعلام والتعليم واتباع ممارسات تثبط عادة القراءة في المجتمع، إضافة إلى ممارسات موروثية عن عصر الانحطاط كإعطاء الأهمية لدرس النحو، وعدم تيسير الكتابة العربية، ووَأدِ عادة القراءة، والحدّ من انتشار العربية بين الناطقين بها، وغير الناطقين بها.

ولقد أحسن الباحث في تشخيصه للسياسات الرامية إلى تهميش اللغة العربية في التعليم والإعلام والاقتصاد، وحبذا لو حدّد الموقف من قضية لغات الفئات الخاصة على الأرض العربية، وقضية العمالة الأجنبية عليها أيضاً، وقضية اللغة المستخدمة في مواقع التواصل الاجتماعي، والتبصير بخطر (العريزي والفرانكو آراب) على اللغة العربية وتهميشها.

٧- ويجيء بحث الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان عضو المؤتمر من السعودية، وعنوانه «وقفات مع الباحثين والدارسين حول حماية اللغة العربية ومستقبلها»، آخر بحث في مجال التخطيط اللغوي، وقد تناول فيه كتب بعض الباحثين الذين خدموا اللغة العربية ودعّوا إلى حمايتها، ومن هؤلاء الباحثين الذين أشار إليهم الباحث عسيلان الأستاذ الدكتور أحمد الضبيب في كتابه «اللغة العربية في عصر العولمة»، وقد شخّص فيه واقع اللغة العربية والدراسات التي تناولت بعضاً من قضاياها ومستقبلها في عصر العولمة، والخصائص والسمات التي تتحلّى بها، وتجعلها قادرة على مواكبة روح العصر، وتمثل مصطلحاته ومفاهيمه، والتدريس بها بدلاً من اللغة الأجنبية، لأن الاعتماد على الأجنبية وحدها يؤدي إلى تبعية المجتمع العربي علمياً وفكرياً، وليس وراء التبعية إلا القضاء على الهوية، ومسح الشخصية، واستمرار الضعف والتخلف.

ووقف الباحث عسيان على كتاب «اللغة هوية ناطقة: منظور جديد يمزج اللغة بالهوية والحياة» للدكتور عبد الله البريدي، وقد أكد الدكتور البريدي في كتابه تجذر الروابط المتواشجة بين اللغة والهوية، وضرورة التعاطي العلمي مع مسألة اللغة والهوية، وقد عرّف في الفصل الأول من كتابه الهوية والمراد منها، وتناول مسألة الترابط بين اللغة والهوية، وفي الفصل الثاني تحدّث عن الانتهاكات للهوية، وهي انتهاكات ثقافية وتجارية، إذ إن المؤسسات التجارية تغرق في استخدام الأسماء الأجنبية، وانتهاكات رياضية، وتناول في الفصل الثالث معوقات هويتنا الناطقة. أما الفصل الرابع وهو الأخير فأكد فيه تعزيز هويتنا الناطقة في مسارات مختارة فيها الفضاء السياسي والتعليم والإعلام والعالم الافتراضي، وخلص المؤلّف إلى الإيمان بأن اللغة الأم عاملٌ محوري في تشكيل هويتنا، ولا بد من استعادة رونق الضاد في عقولنا ووجداننا ومدارسنا وبيوتنا وإعلامنا وشوارعنا ومتاجرنا..

وعرض الباحث عسيان أيضاً لكتاب «محاسن العربية في المرأة الغربية أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوربية» لمؤلفه (ديفيد جيستس)، وترجمه إلى العربية الدكتور حمزة بن قبلان المزيني. وقد صدر هذا الكتاب عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية عام ٢٠٠٣. وأبان المؤلّف في مقدمة كتابه أنه ألّف هذا الكتاب ووجّهه إلى القراء الغربيين ليبين غنى اللغة العربية، ويفنّد بعض التصورات الخاطئة عن العربية في الثقافة الغربية. وأشار المترجم إلى أن للكتاب أهمية من ناحيتين الأولى أن المؤلّف أمريكي متخصص باللسانيات، وقد عني بدراسة العربية وإبراز محاسنها لبني جنسه من الأمريكيين والأوربيين في عصر العولمة وطغيان الافتتان باللغات الأجنبية، والثانية أن الكتاب يحتوي على نظرات علمية عميقة الأبعاد حول علم اللغة

عامة والعربية خاصة، وأن العربية لغة مطردة مصقولة نافياً عنها صعوبتها، وأن هذه الصعوبة موجودة في لغات أخرى مثل الصينية واليابانية والكورية، وأن الألمانية أصعب من الفرنسية، وأكد غنى العربية بالمصطلحات والمفردات والمعاجم، وأن ما تتمتع به العربية من خصائص وميزات يجعلها صالحة على ممرّ العصور والأزمان لتدريس العلوم المعاصرة المكتوبة بالأجنبية حينما تترجم إلى العربية.

وعرض الباحث أيضاً لكتاب «العربية لغة العلوم والتقنية» للدكتور عبد الصبور شاهين، ويحتل هذا الكتاب مكانة مرموقة بين الكتب التي تدافع عن اللغة، وتفصح عن دورها في عصر العلم والتقنية، ومدى قدرتها على استيعاب مستجدات العصر وعلومه من خلال اتساع نطاقها الدلالي واللفظي والاصطلاحي، وتحدث المؤلف عن اللغة العلمية ومسيرة المصطلح العلمي وتاريخه وواقعه في العصر الحديث. وأفصح المؤلف في مستهل كتابه عن الهدف الذي حمله على تأليف هذا الكتاب وعن مضمونه، فأشار إلى أنه دراسة لقضية القضايا في الوطن العربي، قضية اللغة العربية وقدرتها على تمثيل علوم العصر الحديث، وعبر عن ذلك بعبارات ملؤها الاعتزاز بالعربية وغيره عليها مما يحيط بها من تحديات تسعى جاهدة لإبعاد أبنائها عنها.

ومن الكتب التي أشار إليها الباحث عسيان كتاب «أشتات مجتمعات في اللغة والأدب» لعباس محمود العقاد، الصادر عن دار المعارف بمصر عام ١٩٦٣. وأوضح العقاد في مستهل كتابه أن قصده من تأليف هذا الكتاب هو تصحيح بعض الأخطاء في النظر إلى اللغة العربية، والحكم على مكانتها بين اللغات العالمية، وهي تصلح لأداء رسالة العلم والثقافة في هذا القرن، ويأخذ العقاد على من يحاولون التقليل من قدرة العربية على مواكبة

مستجدات العصر والحضارة، ويؤكد أنها قادرة متى ما تهيأت لها الأسباب، وأجرى العقاد مقارنة بين العربية واللغات الأخرى من حيث الحروف والتعريف والعدد والجملة الاسمية والصفة والظرف، وأبان مكانة العربية بين لغات الحضارة العصرية، وصوّر واقع المغالاة بين طرفي النقيض بين من يتغنى بالأمجاد، ومن يهون من مكانة العربية.

وعرّج الباحث على المؤتمر الدولي الذي عقد في رحاب الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ٢٠١٢ تحت عنوان «اللغة العربية ومواكبة العصر»، وكانت محاوره تدور حول دور أقسام اللغة العربية في الجامعات في النهوض بالعربية وآدابها، واللهجات والتأهيل اللغوي، والعربية ووسائل التقنية والاتصال الحديثة، ودور الآثار الأدبية المعاصرة، وهموم العربية في عصر العولمة. وعرض الباحث لبعض البحوث التي أقيمت في المؤتمر حول المحاور السابقة، وكان لقضية التعريب والمصطلحات نصيب في أبحاث المؤتمر، كما كان للتقنيات الحديثة والإعلام نصيب أيضاً في هذه البحوث.

ولقد كنا نتوقع من الباحث عسيلان أن يبدي وجهة نظره بعد العرض الذي أجراه للكتب التي أشار إليها في بحثه، وأن يكون ثمة نقد موضوعي لمضامين هذه الكتب، وما الذي أجادوه فيها؟ وما الأمور التي كان ينبغي أن يشار إليها في حماية اللغة العربية إلى جانب ما جرت الإشارة إليها؟ وإذا كان في العرض الذي قام به فائدة في تعرّف القارئ بعض الإسهامات التي تمت في مجال الدفاع عن اللغة العربية، فإن الوقوف على بعض الصوى والتوصيات في نهاية البحث كان ضرورياً في هذا الصدد.

٨- بحث «اللغة العربية وقوانين حمايتها: قراءة لغوية في بعض دساتير العالم» للأستاذة الدكتورة إيمان السعيد جلال، وقد حاولت فيه الباحثة

استقراء مواد اللغة في الدساتير العربية وبعض دساتير العالم، وحددت في مستهل دراستها مفهوم مصطلحي «اللغة الرسمية» و«اللغة الوطنية»، فذكرت أن اللغة الرسمية هي اللغة التي تتعامل بها الحكومة وأجهزة الدولة الرسمية، وينص عليها دستورياً، في حين أن اللغة الوطنية هي التي تحظى بوضع قانوني ما، وتتمتع بقدر من اعترافات الدولة، إلا أن الدولة لا تطالب باستعمالها على المستوى العام.

وقسمت الباحثة دساتير الدول العربية الاثني والعشرين إلى قسمين من حيث أحادية اللغة الرسمية أو تعددها، ومن حيث النص على لغات أقليات وطنية، فأبانت أن القسم الأول يضم اثني عشر دستوراً، تنص على أحادية اللغة الرسمية، وهي دساتير: الأردن، الإمارات، البحرين، تونس، السعودية، سورية، عُمان، فلسطين، قطر، الكويت، مصر، اليمن.

أما القسم الثاني من الدساتير العربية التي تنص على التعدد اللغوي، وتجعل للغات الأقليات وضعاً قانونياً فيضم عشرة دساتير، وهي دساتير: الجزائر، وفيها لغتان رسميتان العربية والأمازيغية، وجزر القمر، وفيها ثلاث لغات رسمية العربية والفرنسية، وشيكومور، وجيبوتي، وفيها لغتان رسميتان العربية والفرنسية، والسودان، وفي الدولة لغتان رسميتان هما العربية والإنجليزية، والصومال وفيها لغتان رسميتان العربية والصومالية، والعراق، وينص دستور عام ٢٠٠٥ على التعدد اللغوي بحكم تعدد القوميات، واللغة العربية واللغة الكردية لغتان رسميتان فيه، وهما لغتان متساويتان، ولهما حقوق متكافئة في العراق كله، ثم التركمانية والسرانية لغتان رسميتان أيضاً، ولكن في الحدود الجغرافية التي يكون فيها أهلها كثافة سكانية، ولبنان، ولغتها الرسمية العربية وحدها، وأما الفرنسية فتحدّد الأحوال التي تستعمل فيها بموجب

قانون، وليبيا، ولغتها الرسمية الوحيدة هي العربية مع ضمان الحقوق اللغوية والثقافية للأمازيغ والطوارق والتبو وكل مكونات المجتمع الليبي، والمغرب، وينص دستورها الحالي ٢٠١١ على التعدد اللغوي بين العربية والأمازيغية على أنهما لغتان رسميتان مع ضمان الحقوق اللغوية للأقليات الأخرى، وموريتانيا، وينص الدستور فيها على أن العربية هي اللغة الرسمية الواحدة إلى جانب ثلاث لغات وطنية هي البلارية والسوننكية والولفية.

وعرضت الباحثة لبعض دساتير العالم لبيان ما جاء فيها بخصوص اللغة الرسمية في الدولة والتعدد اللغوي فيها، فأشارت إلى أن اللغة الإسبانية الرسمية للدولة هي القشتالية وعلى كل الإسبان معرفتها، وتعدّ اللغات الإسبانية الأخرى لغات رسمية داخل مجتمعات الحكم الذاتي وفقاً لأنظمتها، وفي إيران تعدّ اللغة الفارسية اللغة الرسمية في الدولة، ويجوز استعمال اللغات المحلية والقومية الأخرى في مجال الصحافة ووسائل الإعلام العامة، وتدرّس آدابها في المدارس إلى جانب اللغة الفارسية، ويجب تدريس اللغة العربية بعد المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الثانوية في جميع الصفوف والاختصاصات. وفي روسيا لغة رسمية واحدة هي الروسية مع احتفاظ الجمهوريات بلغاتها، ولها الحق في تحديد هذه اللغات الخاصة بها، إلى جانب اللغة الروسية، ويضمن الاتحاد الروسي لشعوبه كلها حق الحفاظ على لغتها الأم وتهيئة الظروف لدراستها وتطويرها. وفي الصين لغة رسمية واحدة هي المندرينية، وينص الدستور على حق جميع القوميات البالغ عددها ٥٦ قومية في استخدام لغاتها مكتوبة ومنطوقة وتطويرها.

وعرضت الباحثة لبعض دساتير العالم التي تنص على لغة رسمية واحدة، ومن هذه الدساتير الدستور التركي والدستور الفرنسي. وهناك دول

لا تشير دساتيرها إلى اللغة مثل ألمانيا، وإيطاليا وكوريا وأمريكا واليابان. واشتمل البحث أيضاً على تبيان لبعض قوانين حماية اللغة على الصعيدين العربي والعالمي، فأشارت الباحثة إلى القانون المصري الصادر عام ٢٠١٧ وما تضمنه من مواد تهدف إلى حماية العربية في جميع مناحي الحياة، كما أشارت إلى القانون العراقي الصادر عام ١٩٧٧، وعنوانه «قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية»، وجاء بعده «قانون اللغات الرسمية في العراق» عام ٢٠١٤ الذي نصّ على التعدد اللغوي بجعل الكردية لغة رسمية كالعربية، وهناك القانون الأردني الصادر عام ٢٠١٥ لحماية اللغة العربية.

ومن قوانين حماية اللغة على الصعيد العالمي قانون حماية اللغة الفارسية، والجهود الإيطالية التي يقوم بها المجمع الإيطالي لحماية اللغة الإيطالية في ظل التقنيات الحديثة وزحف المهاجرين والتشويه اللغوي، وقانون حماية اللغة التركية، وقانون حماية اللغة الفرنسية عام ١٩٩٤، وهو القانون المعروف بقانون (توبون) Loi Toubon، وقانون حماية اللغة الكورية عام ٢٠١٣.

وتعد إطلالة الباحثة على ما نصت عليه دساتير الدول العربية وبعض دساتير دول العالم وقوانين حماية اللغة في بعض الدول العربية والدول الأجنبية أمراً ذا أهمية في تعرف ما يجري على الصعيدين العربي والأجنبي في الشأن اللغوي، إلا أن المسألة ليست في الدساتير ولا في القوانين على الصعيد العربي، بل في احترام هذه الدساتير والقوانين ممن ييدهم القرار، ولو كان هؤلاء المسؤولون قدوة أمام جماهيرهم في التقيد بالدساتير والقوانين، والسعي الجاد إلى تطبيق موادها، لما آلت الأمور إلى ما آلت إليه من تسيب واستهانة ولا مبالاة.

أما اللغات المعتمدة رسمياً إلى جانب اللغة العربية كالأمازيغية والكردية فينبغي أن يظل للغة العربية المكانة الأولى الجديرة بها باعتبارها

اللغة القومية الموّحدة والموّحدة لجميع أبناء الأمة مسلمين كانوا أو مسيحيين، وهي لغة القرآن الكريم، ويحق للشرائح التي تعيش على أرض الأمة العربية من غير العرب أن يتكلموا لغتهم ويعلموها لأبنائهم، على أن يكون ذلك إلى جانب لغة الأمة، وهي اللغة العربية الفصيحة، أما أن تكون بديلاً عنها فهذا يخالف بديهيات الرابطة القومية الواحدة لأبناء الأمة كافة.

٩- بحث «مكانة المدونة القرآنية في وسائل حماية اللغة العربية»

للأستاذ الدكتور حسن بشير عضو المؤتمر، الذي يرى أن تعتمد المدونة القرآنية أساساً لمناهج التعليم الجامعي وما قبل الجامعي في مراحل التعليم العام، وأشار إلى المنهجية النظرية في معالجة بحثه، فقسم العمل إلى أبواب وفق مسرد الهجائية العربية من الهمزة إلى الياء، وفي ذلك منهجية حروف المباني في أول الأبواب، فيعرّف الحرف في أول كل باب من حيث مخرجه الصوتي، ومجمل صفاته وترتيبه في الهجائية العربية، وقيّمته في حساب الجُمّل. وفي منهجية أقسام الكلمة يجيء الفعل والاسم من حيث أنواعهما، وفي المنهج معالجة المسائل الأسلوبية وإحياء الكلمات القرآنية ومعالجة العبارة المتماسكة كأنها مفردة، وتحديد المعالجة الخاصة بالروايات القرآنية. وفي المنهج أيضاً الخطة وتنفيذها.

وخصص الباحث حيناً في بحثه لحرف الهمزة ومواقعها وكتابتها، واقترح أن نحافظ على الكتابة القرآنية بالمصحف، وقدم نماذج عملية وفق منهجية الفهرسة المعجمية للمدونة، وكان النموذج الأول الذي قدّمه (أ ب ب) وشرح معاني الأبّ، والنموذج الثاني (أ ب د)، والنموذج الثالث (أ ب و) مستقرّاً ما ورد في آيات القرآن الكريم للنماذج المقدّمة.

وأكد الباحث أن لمدونة اللغة العربية وفق النص القرآني مكانة متقدمة

في خدمة اللغة العربية، وأنه يمكن حصر هذه المدونة في ثلاثة جداولٍ أقسام الكلمة العربية بصورة كاملة الإحصاء، ويمكن دعمها الفكري والمعنوي المؤثر قطريًا وقوميًا ودوليًا، وجوهر المدونة يتأكد بالتطبيق العملي المحكم لمنهاج الفهرسة المعجمية وفق توصيفه العلمي. ولقد أوصى الباحث في نهاية بحثه وزراء التعليم العام والعالى ووزراء البحث العلمى ومديرى مراكز البحوث بأن يُعَنَوا بلغة القرآن في تصميم المناهج، وأن يستهدفوا توطين لغة القرآن، والتوصية ممتدة إلى وزراء الإعلام العرب. إلا أن المدونة اللغوية لا تقتصر على مدونة القرآن الكريم، فهي أوسع من مفرداته، ويمكن الإفادة من الفهرسة المعجمية للمدونة القرآنية.

للبحث صلة

* * *

تكملة مادة لغوية^(*)

(٦)

الأستاذ الدكتور ممدوح خسارة^(**)

مدخل: ثمة كلمات جديدة من أفعال وأسماء دخلت اللغة العربية المعاصرة وَفَقْ أبنية عربية، ولكنْ بدلالات محدثة لم تكن لها عند القدماء، مثل فعل (شخصن، أنعدم، أزم، حاسوب). وبالنظر لشيوعها، فإن الحاجة تدعو إلى دراسة كل منها على حدة، ولا سيما الأفعال، لمعرفة مدى صلوحها لدخول المعجم العربي، بعد أن دخلت ميدان الاستعمال اللغوي. وإذا كان بحثنا سينصبُّ على الأفعال، فذلك لأن إقرارها يَسْتَتبع مشتقاتها من أسماء فاعلين ومفعولين وسائر الصفات.

أثر

(أثر على، تأثر، الآثار، الأثاري، المآثرة، المآثورات، المآثورات الشعبية، المؤثرات، المؤثرات السمعية البصرية، الأثير)
لهذا الجذر في اللغة العربية ثلاث دلالات عامة أو أصول بحسب (مقاييس اللغة) وهي:

(*) سلسلة تبحث في الكلمات المستجدة في العربية بناءً أو دلالةً أو هما معاً، وتترح إضافتها إلى المعجم العربي المحدث.
(**) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

تقديم الشيء وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي. وقد ورد في المعاجم العربية^(١) نحو ثلاثين مدخلاً منه، وتحتوي نحو ست وسبعين دلالةً. ويمكن أن يضاف إلى هذه المداخل والدلالات السالفة عشرة مداخل بدلالات كثر استعمالها يحسن النظر فيها، ونرى أن نُكمل بها مادة (أثر). وهذه المداخل هي:

١- **أثر على الشيء**: أوردت المعاجم الفعل (أثر) متعدياً (بالباء وفي)، إذ جاء فيها: «أثر في الشيء وبه: ترك فيه أثراً» «والتأثير إبقاء الأثر في الشيء» كما في التاج.

وقد بدأ يشيع في الاستعمال اللغوي منذ العصور الوسيطة تعدية الفعل (أثر) بحرف الجر (على). ومما جاء منه على هذه الصورة:

- «أثر عليه كربٌ لذلك» / مسند الإمام أحمد (٦/ ١٣٥).

- «أثر عليه الجوعُ» / الكامل في التاريخ لابن الأثير (١٠/ ٩٢).

- «أثر عليه أثراً محموداً» / معاهد التنصيص للعباسي (٢/ ٢٦٦).

وأجاز مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق هذه التعدية مع الأولوية للتعدية (بفي).

٢- **تأثر**: بمعنى (انفعل)، أي ظهرت عليه علامات رضى أو حزن. ومن المعروف أن المعاجم أوردت للفعل (تأثر) مايلي من المعاني:

- **تأثر الشيء**: أثثره، أي تتبّع أثره.

- **تأثر الشيء/ الإنسان**: ظهر فيه الأثر. ويقال: تأثر بغيره أي ظهر عنده أثر غيره. وتأثر بالشيء: تطبّع به.

(١) تلك المعاجم ممثلة بمعجم تاج العروس للزبيدي، والمعجم الكبير لمجمع اللغة العربية بالقاهرة غالباً.

ولكن المعنى المقترح الذي أوردناه يحظى بنسبة عالية من التداول لدى المعاصرين، فيقال: (تأثر بالمشهد فنزلت دموعه).

٣- الآثار: جمعاً للاسم (أثر)، بمعنى ما خلفه القدماء من بناء ونحوه من التراث المادي، وهو جمع أثر، الذي معناه في المعاجم (بقية الشيء). وقد أورد المعجم الكبير المدخل (دار الآثار) بمعنى «المكان الذي يُحَفِّظ فيه ما خَلَفَه الأوائِل، ويسمى المُتَحَف». بل أورد أيضاً المدخل (علم الآثار). ولكنه لم يجعل للأثر مدخلاً مستقلاً ولا للآثار.

والمقترح إضافة المدخلين الآتين:

- الأثر: ما خَلَفَه القدماء من تراث مادّي.
- الآثار: المعالمِ الشاخِصة مما تركه القدماء من تراث مادّي من بناءٍ ونحوه.

٤- الآثاريّ: بمعنى عالم بالآثار. أو المختصّ بالآثار.

وقد وضعت المعاجم العربية الحديثة للمعنى المقترح كلمة (الأثريّ) وجعلت لها معنيين:

الأول: القديم من الأشياء.

والثاني: العالم بالآثار.

ونرى أن تُشْرِك كلمة (الأثريّ) للدلالة الأولى، وهي القديم من الأشياء، فعندما يقال مثلاً: (قنديل أثريّ)، يعني أنه قديم وعتيق يُقْتَنى لقدامته وقيّمته التاريخية، وليس لاستخدامه، فقد لا يصلح للاستخدام. وكذا عندما يقال: (هذا بيت أثريّ)، أي: قديم العهد يُحْرَص عليه لقيّمته التاريخية والحضارية. ومثلها قولهم: (منطقة أثرية)، أي: منطقة ذات آثار، كما نرى أن يُخَصَّص العالم بالآثار بكلمة (آثاريّ)، نسبة إلى الجمع (آثار). وهذه النسبة جائزة في العربية كقولهم: (أنصاريّ وأنماريّ وأنباريّ..)، وإذا علّلت تلك النسبة - فيما علّلت -

بأنها نسبة لأعلام، فإن قولهم (أخباري) للمؤرخ، وقلانسي لصانع القلانس أو بائعها، هي نسبة لغير الأعلام. ومعلوم أن مجمع القاهرة قد أجاز النسبة إلى الجمع مطلقاً في كتابه (في أصول اللغة ٤: ٦٣٣).

٥- المأثرة: بمعنى المنطقة أو الأرض الكثيرة الآثار، كأن يقال: (منطقة أسوان مأثرة).

وقد ورد في المعاجم أن «المأثرة والمأثرة: المَكْرُمة المُتوارثة». ولكن من المعروف أن أظهر دلالات بناء (مفعلة) هو الأرض التي يكثر فيها الشيء، كقولهم: (مأسدة) للأرض الكثيرة الأسود، و(مقناة) للأرض الكثيرة القنأ.. وقولنا (مأثرة) عن الأرض أو المكان يكثر فيه الشيء يُغني عن كلمتين هي: (الكثيرة الآثار). وفيه تفعيل لدلالات الأبنية في العربية.

٦- المأثورات: بمعنى الأقوال المتناقلة على مرّ السنين من حِكَم أو أمثال أو أخبار. وهو جمع مأثور ومأثورة.

جاء في تاج العروس: «المأثورة من الآبار هي التي كُشِفَتْ بعدما طُمِرَتْ» وجاء في المعجم الكبير: «المأثور من الأخبار: ما يبقى ويُتَنَاقَل». وقريب منها كلمة (المرويات).

وتكرّرت كلمة (المأثورات) مئات المرّات منذ القرون الوسطة، حيث استعملها ابن تيمية (٧٢٨هـ) في كتابه مجموع الفتاوى (٢٤/٢٤٣) فقال: «ولكن يُسْتَحَبُّ بعض هذه المأثورات»، واستعملها النجم الغزيّ (١٠٦١هـ) في كتابه الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة (٢/١٣٤) فقال: «بسبب أن الأعاجم يميلون إلى المباحث الدقيقة المعلقة بالعقليّات دون المأثورات». واستعملها من المحدثين عباس محمود العقاد في كتابه (الله) في (١، ٩٢، ١٠٠، ١٠١)، فقال: «ساهمت في المأثورات البابية».

ويمكن أن يُفَرَّعَ عليها مَدْخَل (المأثورات الشعبية) التي تعني فنَّ الإبداع الشفاهي للشعوب من سير شعبية وملاحم وأغانٍ ورقصات وحكايات وعادات وتقاليد، كما أوردتها وفسرها معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عمر وفريقه في مادة (أثر).

٧- المؤثرات: بمعنى ما يَصْنَعُ أثراً مقصوداً في النفس أو السمع أو البصر بواسطة تسجيلات صوتية أو سمعية أو صور مشاهدة، وذلك للإيحاء بمشاعر كالحزن أو الفرح أو الدهشة أو المفاجأة.

وقد تكررت هذه الكلمة آلاف المرات في كتب القدماء والمحدثين. ولعل أقدمها ما جاء في تفسير الفخر الرازي (٦٠٦هـ)، حيث قال في تفسيره (١/ ٢٧٥): «فهو مُسْتَعْنٍ عن المؤثرات والمُرَجِّحات»، وقال في مكان آخر: «وهذا المعنى مشاهد في المؤثرات الجسمانية». ومن المحدثين الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير) (٢٧/ ١٧٢): حيث قال: «فإنَّ المؤثرات لا تلبث أن تتغلب على تلك الموانع».

ويتفرع عليها عبارة (المؤثرات السَّمْعِيَّة والبصريَّة) التي أوردتها د. أحمد مختار عمر في (معجم اللغة العربية المعاصرة).

٨- الأثير: بمعنى المُحَبَّبِ إلى النَّفْسِ، كما في قولنا: (هذا الصديق أثير إلى نفسي) أو (هذا الكتاب أثير لديّ) أي مُحَبَّب.

وقد ورد لهذه الكلمة في المعاجم المعاني الآتية:
فِرْنَدُ السِّيفِ، وَالصُّبْحُ، وَالْمَكِينُ الْمَكْرَمُ، وَالْعَظِيمُ الْأَثَرُ فِي الْأَرْضِ بِخُفِّهِ أَوْ حَافِرِهِ، وَبِمَعْنَى الْمُخْلِصِ دُونَ الْآخَرِينَ، يُقَالُ: هُوَ أَثِيرِي: مَنْ خُلِصَائِي، وَالْخُلِصَاءُ تَطْلُقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمَاعَةِ.

والدلالة المقترحة قريبة من معنى (المكين والمُكْرَمِ والخُلِصَاءِ)، ولكن فيه زيادة مَحَبَّةٍ وَمَوَدَّةٍ.

٩- الأثير: بمعنى (الهواء)، وهي كلمة معرّبة للكلمة الأجنبية (ether)، التي تعني (هواء، سماء، هواء نقي). كما في معجم المنهل. وكثيراً ما يقول المذيعون مثلاً: (أهلاً بكم على أثير دمشق) أو (نحن معكم على أثير القاهرة)، كما يقولون: على هواء دمشق أو القاهرة؛ لأنّ انتقال الموجات الصوتية إنما يكون عبر الهواء.

ولا يبعد من هذه الدلالة ما جاء في تاج العروس (أثر): من أنّ «الأثير كأسير: الفلك التاسع الأعظم». ومن معاني الفلك مدار النجوم كما في المعجم الوسيط. ومدار النجوم يكون في الفضاء، فقولهم: (نحن على أثير دمشق) بمعنى (نحن في فضاء دمشق)، لأن الفضاء أيضاً هو ما بين الكواكب والنجوم من مسافات.

ولمّا جاءت كلمة (أثير) معرّبة لفظياً وفق منهاج العرب في التعريب الصوتي بما لا يخرجها عن النظام الصوتي العربي، يُقترح إضافة هذا المدخل فيذكر: الأثير: الهواء (معرب).

١٠- الإثار: بمعنى حمالة الأثداء، مجازاً من الإثار، وهو كيس يُشدُّ على الفاكهة وقاية لها. وقد استعملته لجنة ألفاظ الحضارة في مجمع دمشق، لذلك النوع من اللباس النسائي، مقابلاً للكلمة الأجنبية (soutien) التي تنطقها العامة (سوتيانة).

ومن المداخل التي أوردها المعجم الوسيط كلمة (الإيثارية) بمعنى «مذهب يُعارض الأثرة، ويرمي إلى تفضيل خير الآخرين على الخير الشخصي». على أنّ المعجم الكبير لم يشتمها، مع أنّ المعجمين لمجمع القاهرة.

(٧)

أسس

ما ورد في المعاجم اللغوية^(٢) من هذا الجذر أربعة عشر مدخلاً في نحو خمس وثلاثين دلالة، وهي:

١- الأُسُّ والأَسُّ والإِسُّ: الأساس

: أصل البناء.

: القَدَم.

: الفساد، الإفساد.

٢- الأُسُّ والأَسُّ: الأصيل.

: المزِين للكذب.

٣- الأُسُّ: أصل كل شيء، والجمع إساس وأُسُس.

: مُبْتَدَأُ البناء.

: قلب الإنسان.

: الأَثَرُ من كلِّ شيء.

: العدد الدالّ على قُوّة الكميّة.

٤- الأُسُّ: بناء الدار.

: الإغْضاب.

: سَلْحُ النَّحْلِ.

: الساعي بالنّميّة.

: زَجْرُ الشاة بصوت: إس إس.

(٢) نعني بالمعجم العربية هنا - ما ورد منها في تاج العروس للزبيدي، والمعجم الكبير لمجمع القاهرة، وهما يتضمّنان معظم مواد المعاجم الأخرى.

- ٥- الأَسَسُ: الأساس، وجمعه أساس: أصل البناء.
- ٦- الأساس: أصل البناء.
- : أصل كلِّ شيءٍ ومبتدؤه، جمعه أُسُس.
- : الوَصِي (عند بعض المذاهب الدينية).
- ٧- الأَسِيس: العَوْض.
- : أصل كلِّ شيءٍ كالأساس.
- ٨- التَّاسِيس: بيان حدود الدار ورفَع قواعدها وبناء أصلها.
- : أحرف تزداد في قافية بيت الشعر مُلتزِمةً في كل القصيدة.
- ٩- الأَسَّاس: التَّمَام.
- ١٠- المؤسَّسة: منشأة لتنظيم عمل الإنتاج أو التجارة.
- ١١- المؤسَّسات الخيرية: مجموعة الأموال التي يُخصَّصها مالكيها من طريق الهبة أو الوصية لغرضٍ معيَّن يستمرُّ بعد وفاته.
- ١٢- أسَّ الدارَ يُؤسِّسها أسًّا وأَسَّسها تأسيساً وأسَّسَ البناء: عمِل له أساساً.
- ١٣- أسَّ الشيءَ: أَفْسَدَه.
- أسَّ فلاناً: أَغْضَبَه.
- أسَّ بينهم يُؤسُّ: أَفْسَدَ.
- أسَّ الشَّاةَ وبالشَّاةِ: زجرها بصوت: إسنِ إسنِ.
- ١٤- أسَّسَ البناءَ: أسَّه [عمل له أساساً].
- أسَّسَ بالحرف: جعله تأسيساً في القافية.
- وما لم يرد من هذا الجذر ممَّا هو مستعمل متداول في اللغة العربية المعاصرة عشرة مداخل، كلماتٍ أو تراكيب، ويقترح إضافتها إلى المعجم بمعانيها الآتية:

١- أَسَّس: أنشأ وأقام، يقال: أَسَّس بلدنا جيشاً قوياً. أو أَسَّست الدولة المدارس والمصانع.

٢- تَأَسَّس: نشأ وتَأَصَّل، يُقال: تَأَسَّست الجامعة قبل قرن من الزمان، وتَأَسَّس مَرَضُ الأعصاب عنده بسبب الرطوبة.

وقد خَطَأَ بعض المَصَحِّحِينَ اللغويين هذا البناء للفعل، لأنه لم يُسَمَّع في اللغة (تَأَسَّس)، والصواب عنده أن يقال مثلاً: (أُسَّست الجامعة قبل قرن من الزمان)، بالبناء على المجهول؛ لأنه مُطَاوَع (فَعَّل) في مثل هذه العبارة. ولكنَّ مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الثانية والخمسين لعام (١٩٨٦م) جَعَلَ دلالة بناء (تَفَعَّل) قياسياً للمطاوعة من كل فعل ثلاثي مُضَعَّف العين^(٣)، محتجاً بقول لابن الحاجب في الشافية وهو: «تَفَعَّل لمطاوعة فَعَّل نحو كَسَّرْتُهُ فَتَكَسَّر..»، وعلى هذا أجاز المجمع قولهم: حَذَرْتُهُ فَتَحَذَّرَ^(٤).

٣- مَأَسَسَ: جَعَلَ العَمَلَ يسير ويُدار على نظامٍ تراتبيٍّ دقيق ومضبوط على وَفْق ما تسير عليه أعمال المؤسسات. وهذا الفعل الملحق بالرباعي المجرد على بناء (مَفْعَل)، هو مما أقرته لجنة الأصول بمجمع اللغة العربية بدمشق. وهو اشتقاق مُرَكَّب، أي اشتقاق من مُشْتَقٍّ، هو كلمة (المؤسَّسة)، التي كانت صفة مؤنثة لاسم المفعول (مُؤَسَّس)، ثم انتقلت من الوصفية إلى الاسمية كما انتقلت مثلاً كلمة (المدنيَّة) من الوصفية في مثل قولنا: (الحياة المدنية) إلى الاسمية بمعنى الحضارة، في نحو قولنا: (بنى العربُ مدنيَّتهم على الإيمان والعلم). والمصدر من هذا الفعل هو (مَأَسَّسة)، يقال:

(٣) مجمع اللغة العربية بالقاهرة - في أصول اللغة ٤: ١٥٧، ١٨٥.

(٤) مجمع اللغة العربية بالقاهرة - كتاب الألفاظ والأساليب ٣: ٣٣٤.

(مأسسنا الإدارة عندنا)، أي جعلناها تسير على وفق أعمال المؤسسات من حيث التراتبية والضبط والتنظيم.. كأن يقال: مأسس اتحاد المجامع اللغوية (المعجم التاريخي)، أي جعله مؤسسة قائمة بذاتها مستقلة إلى حد بعيد.

٤- تمأسس: صار يسير على نظام المؤسسات، وهو فعل مطاوع لفعل (مأسس)، يقال: (تمأسس العمل في شركتنا)، أي صار يسير على وفق عمل المؤسسات تنظيمياً وتراتبياً وضبطاً، كأن يقال: (تمأسست مشاريع كثيرة بسبب التطور الإداري في الآونة الأخيرة)، أي صارت تُدار على وفق إدارة المؤسسات.

٥- التأسيس: الإنشاء والإقامة، وهو مصدر الفعل (أسس) بالمعنى المقترح السابق، فيقال: (قام المصلحون بتأسيس المدارس العصرية)، وإذا كان في المعنى المعجمي للفعل معنى البناء والإنشاء، فإن هذا المعنى الجديد يحمل زيادة في الدلالة، وهو اشتماله على دلالة تهيئة متطلبات المدارس ونحوها من أثاث ومعلمين ومناهج وكتب، وليس مجرد البناء المادي.

٦- المؤسسة: المنشأة أو الهيئة المختصة بعمل أو نشاط معين، وتجمع على مؤسسات، فيقال: (الجامعة مؤسسة علمية عليا. مجلس الشعب هو المؤسسة التشريعية في الدولة. المصارف مؤسسات مالية).

ويقال: حوّلنا مشروعنا إلى مؤسسة، أي هيئة دائمة ذات استقلال ومنهج ونواظم تمكّنها من تحقيق أغراضها التي أنشئت من أجلها.

٧- المؤسساتاتي: وهي نسبة إلى كلمة مؤسسات جمع مؤسسة. ويقال: (نظام الحكم في ذلك البلد مؤسساتي)، أي يسير على مثال عمل المؤسسات تراتبيةً وتنظيمياً ومنهجاً، تتخذ القرارات فيها جهات أو إدارات متخصصة وليس رئيس المؤسسة فقط.

٨- المؤسسة الخيرية: هيئة أو جهة ذات أهداف إنسانية غير ربحية وتقدم خدمات طوعية.

- ٩- أساساً: بمعنى (أصلاً)، كما في عبارة: (أنا لم أقل هذا الكلام أساساً)، وهو مجاز من الأساس الذي هو الأصل.
- ١٠- تأسيساً على: بمعنى تأصيلاً وبناءً على ما تقدّم من قولٍ أو فعلٍ، يقال: (وتأسيساً على كلام الشهود فإنّ المتّهم بريء)، وهو مجاز من الأساس الذي هو (الأصل).

(٨)

تَمَّتَم

- أوردت المعاجم الفعل الرباعي المضاعف (تَمَّتَم) بالمعاني الآتية:
- العين: (١١٢ / ٨): «والتَّمَّتَمَةُ في الكلام أَلَّا يُبَيِّن اللسان، يُخْطِئ موضع الحرف، فيرجع إلى لفظ كأنه التاء والميم. وَرَجُلٌ تَمَّتَمَ».
 - المخصّص لابن سيده (١ / ٢١٠): «عن ابن السكيت.. وإذا تردّد (المتكلّم) في التاء قبل الميم قيل: (تَمَّتَم)، وقيل: (تَمَّتَم)، وهو الذي يعجل بالكلام ولا يكاد يفهمك».
 - لسان العرب: (تمتم): «والتتممة ردُّ الكلام إلى التاء والميم، وقيل: هو أن يعجل [المتكلم] بكلامه فلا يكاد يفهمك. وقيل: هو أن تسبق كلمته إلى حنكه الأعلى.. ورجلٌ تَمَّتَم، والأُنثى تَمَّتَمة.. وقال الليث: التتممة في الكلام أَلَّا يُبَيِّن اللسان؛ يُخْطِئَ موضع الحرف فيرجع لفظه كأنه التاء والميم.. والتتممة: التردد في التاء». ومثله في تاج العروس: (تَمَّتَم).
 - القاموس المحيط (فصل التاء): «والتتممة ردُّ الكلام إلى التاء والميم، أو أن تسبق الكلمة إلى حنكه الأعلى فهو تَمَّتَم، وهي تَمَّتَمة».
 - المعجم الكبير: (حرف التاء): «تَمَّتَم فلان: ردُّ الكلام إلى التاء

والميم، وقيل: عجل بكلامه فلا يكاد يُفهمك، فهو تَمْتَام وهي بتاء.. والتَّمْتَمَة بالكلام: ألا يُبين المتكلم النطق ويخطئ نوع الحرف فينطق بلفظ كأنه التاء والميم، وإن لم يكن بيّناً.

ويتضح مما تقدم أن التمتمة هي عَيْبٌ في النطق يُرَدُّ فيه الكلام إلى التاء والميم، أو أن يعجل المتكلم بالكلام، فلا يُفهم.

ولكن الاستعمال المعاصر طَوَّر معنى الفعل (تَمْتَم) إلى دلالة جديدة منزاحة عن الدلالة القديمة، وهي: (تَكَلَّمَ بصوتٍ منخفض وكلامٍ غير مُفهِمٍ تعبيراً عن عدم الرضى غالباً).

وتلتقي الدالتان القديمة والجديدة بصفة عدم الإفهام طبيعة أو صنعة، وهو قول ابن سيدة عن التمتام: «ولا يكاد يُفهمك». ولكن عدم الإفهام في الدلالة الجديدة ليس مرده إلى العجلة أو ارتداد الكلام إلى التاء والميم، وإنما هي عملية مقصودة للتعبير عن عدم الرضى، بخفض الصوت حذراً أو خوفاً، وبالغمغمة فيه، واقتترانه بتقطيب الوجه غالباً.

وقد ذهب د. أحمد مختار عمر في معجم اللغة العربية المعاصرة (تمتم): إلى هذه الدلالة عندما قال: «تَمْتَم: عبّر عن عدم رضاه بتريديد كلام خفي غير واضح، (أطاع وهو يتمتم)».

وبناءً على ما تقدّم، يمكن قبول هذه الدلالة الجديدة للمادة اللغوية (تَمْتَم) فيقال:

تَمْتَم: تكلم بصوت خفيض كلاماً غير مُفهِمٍ تعبيراً عن مشاعر عدم الرضى غالباً.

والمُتَمْتَم: اسم فاعل من تتمم.

والتمتمة: الكلام بصوت منخفض غير مُفهِمٍ، وتجمع على (تمتمات).

والتَمْتَام: الكثير التمتمة. والكثيرتها (تَمْتَامَة).

(٩)

جَمَّ وَمَجْموم

يشيع بين المتكلمين، ولا سيما في بلاد الشام، استعمال الفعل (جَمَّ) بمعنى: قطع النبات من أول ساقه على مستوى الأرض، وذلك كقولهم: جَمَّ الحَوْرَ أو يَجْمُ الغَيْضَةَ، وهي الأجمة والموضع يكثر فيه النبات ويلتفت. والذي ورد في بعض المعاجم لهذه الدلالة من هذا الجذر هو (أَجَمَّ) الثلاثي المزيد بحرف على بناء (أَفْعَل).

ويلحظ أن هذا الفعل الثلاثي لم يرد إلا في معاجم القرن الخامس وما بعده؛ إذ لم تورده معاجم العين ولا الجمهرة ولا التهذيب ولا الصحاح، كما لم يورده المعجم الوسيط المعاصر.

ولكن كل تلك المعاجم أوردته على بناء (أَفْعَل)، كما يلي:

- جاء في معجم المحكم لابن سيده (٤٥٨ هـ): «أَجَمَّ العِنَب: قطع كل ما فوق الأرض من أغصانه».

- وفي اللسان: «أَجَمَّ العِنَب: قطع كل ما فوق الأرض من أغصانه..».

ومثله في تاج العروس، عازياً ذلك إلى أبي حنيفة الدينوري.

- وجاء في المعجم الكبير لمجمع القاهرة: «أَجَمَّ العِنَب: قطع كل ما فوق الأرض من أغصانه».

وواضح أن المعاجم التي أوردته بمعنى قَطْع النبات من أصوله، إنما

أوردته بلفظ (أَجَمَّ) متعدياً على بناء (أَفْعَل) الثلاثي المزيد بحرف.

ولكن الشائع في الاستعمال المعاصر هو (جَمَّ) الثلاثي المجرد

المتعدّي، ونرى أنه يمكن تسويغ قبوله ثلاثياً مجرداً متعدياً على ما هو في

الاستعمال الشائع، كأن يقال: (أَجَمَّ النَّبْتُ وَجَمَّهُ)؛ وذلك بأشياء:

١ - مجيء هذا الفعل ثلاثياً متعدياً في بعض المعاجم ولكن بدلالة أخرى، إذ ورد في المعجم الوسيط: «جَمَّ الإِنَاءَ والمِكْيَالَ ونحوهما: مَلَأَهُ حتى تجاوز أعلاه»، مع أن أكثر مجيئه لازماً كما في لسان العرب «جَمَّت البئرُ، فهي تَجَمُّ وتَجِمُّ جُموماً: إذا كثر ماؤها»، أي يمكننا استعمال جَمَّ متعدياً ولزماً.

٢ - ثمة أفعال كثيرة يأتي فيها (فَعَلَ وَأَفْعَلَ) بمعنى واحد، كما في قولهم: «بَانَ الأَمْرُ وَأَبَانَ إذا اتَّضَحَّ.. وَبَتَّ عَلَيْهِ الحُكْمُ وَأَبَّتَّهُ».

٣ - جاءت (جَمَّ وَأَجَمَّ) بمعنى واحد في صحاح الجوهري، قال: «وَجَمَّمْتُ المِكْيَالَ وَأَجَمَّمْتُهُ، فهو جَمَّان: إذا بلغ الكيل جَمَامَهُ»، ولكن بصيغة التعدّي.

٤ - ثمة في معجم المحيط في اللغة للصاحب بن عباد عبارة تقوي ما نذهب إليه من ورود (جَمَّ) الثلاثي المجرد بمعنى (أَجَمَّ) الثلاثي المزيد، وذلك قوله: «يُجَمُّ العِنَبُ كل سنَةٍ، وهو أن يُقَطَّعَ من وجه الأرض ثم يَنْبَت وَأَجَمَّ أيضاً..». فالفعل المبني للمجهول (يُجَمُّ) معلومه (جَمَّ)، أي هو استعمال (جَمَّ وَأَجَمَّ) بمعنى واحد وبصيغة التعدّي كما نستعمله اليوم.

وكما قدّمنا فإنّ هذه الدلالة لفعل (أَجَمَّ) مولّدة، فإذا وُلِّدَت تلك الدلالة على بناء عربيّ، فلا شيء يمنع من استعمالها على بناء آخر ممّا لا ينافي أصول العربية. فإذا قُبِلَ الفعل (جَمَّ) الثلاثي المجرد المتعدّي بمعنى قطع النبات من فوق أغصانه أو ساقه، فإنّ من الممكن أن يشتق منه ما يحتاج إليه التعبير المعاصر من كلمات، أظهرها:

• جَمَّ: قطع النبات من أول ساقه على مستوى الأرض.

- المَجْموم: يقال حَوْرٌ مَجْمومٌ، أي مقطوع من أسفل ساقه وكذلك (غِيضةٌ مَجْمومةٌ) على ما هو شائع في البيئة الزراعية.
- الجَمِيم: وهو النبات الذي قُطِعَ من على مستوى الأرض.
- المَجَمَّ: وهو مكان قَطَعَ ساق النبات أو أغصانه، كأن يقال: (مَجَمَّ الزيتون على علوِّ شِبْرٍ من الأرض).
- المِجَمَّ: الأداة الصغيرة يقطع بها النبات، مثل المِقَصِّ.
- الجَمَّامة: الآلة الكبيرة يقطع بها الشجر ونحوه، مثل حَصَّادة وجرَّافة.

(١٠)

رَجَدَ وَرَجَادَةٌ

- أوردت المعاجم المتأخرة والمعاصرة من مادة (رَجَدَ) ما يلي:
- القاموس المحيط (رَجَدَ): «الرَّجَادُ: نَقَالُ السُّنْبِلِ إِلَى البِيدْرِ، وَقَدْ رَجَدَ رَجَادًا».
- تاج العروس: «الرَّجَادُ كَكَتَّانٍ: نَقَالُ السُّنْبِلِ إِلَى البِيدْرِ، وَهُوَ الجَرِينُ. وَقَدْ رَجَدَ الرَّجُلُ رَجَادًا».
- المعجم الوسيط (رَجَدَ): «رَجَدَ القَمَحُ رَجْدًا وَرَجَادًا: نَقَلَهُ إِلَى مَوْضِعٍ يُدَاسُ فِيهِ، فَهُوَ رَاجِدٌ وَرَجَّادٌ»، أَي يُدْرَسُ فِيهِ وَيُنَعَّمُ لِتَذْرِيبِهِ.
- ولم تُذَكَّرْ هَذِهِ الدَّلَالَةُ فِي جَمَهْرَةِ اللُّغَةِ وَلَا تَهْذِيبِ اللُّغَةِ وَلَا المَحِيطِ فِي اللُّغَةِ، وَلَا لِسَانِ العَرَبِ. وَأَقْدَمُ مَنْ ذَكَرَهَا أَبُو عَمْرٍو الشَّيْبَانِيُّ (ت ٢٠٦هـ) فِي كِتَابِهِ (الجَمِيمِ)، يَقُولُ: «وَقَالَ الكَلْبِيُّ: الرَّجَادُ: الَّذِي يَنْقُلُ السُّنْبِلَ إِلَى البِيدْرِ».
- وكما أُدخِلتِ المَعَاجِمُ المَتَأَخَّرَةُ وَالمَعَاصِرَةُ الفِعْلَ (رَجَدَ) وَمَصْدَرِيَّه:

رَجْدًا ورَجَادًا، واسم الفاعل منه (راجِد)، ومبالغته (رَجَاد)، فإننا نقترح إضافة الكلمات الآتية إلى هذه المادة وهي:

• الرِّجيدة: اسم بمعنى الرَّجَاد، قياساً على الحصيدَة وهي الحصيد، كما في المعجم الوسيط (حصد). والفلاحون يقرون دائماً بين (الحصيدَة والرِّجيدة)؛ لأنهما عملان متلازمان، وإذا كانت الحصيدَةُ تَمَّ بمعنى الحصيد وهو المَحْصود اسم المفعول، فإن بناء (فعيلة) جاء اسماً في بعض المعاجم كقول الفارابي في ديوان الأدب: «الشثيمة اسم من شتَمَ يَشْتُم»، فتكون (الريجيدة) اسماً من رَجَدَ يَرْجُد، أي الرَّجَاد.

• الرَّاجود: وهو مبالغة اسم الفاعل من (رَجَد)، ومبالغته الواردة في المعاجم (رَجَاد)، ولا شيء يمنع من إضافة مبالغة اسم فاعل ثانية هو (راجود) للدلالة على العَمَل والحرفة هنا، كقولهم (ناظر ناظور) لمن عمله النُّظارة، وهي حفظ الكَرَم ونحوه. ويمكن جمع (راجود) على (رواجيد) مثل ناظور ونواظير، وهو الجمع المتداول لهذه الكلمة بين أهل الفلاحة والزراعة. كما يمكن جمع رَجَاد على (رَجَّادة) حملاً على خِيَال وخِيَالَة، وجمَّال وجمَّالة.

• الرِّجادة: للدلالة على من حرفته نقل الحصيد إلى البيادر، وقد صارت اليوم شبه حرفة موسميَّة في الأرياف والمناطق الزراعية، وصارت تُمارس بالسيارات والجرَّارات.

* * *

إتمام الأُنس في عروض الفُرس لطاهر الجزائري

قراءة في النص والتحقيق

الأستاذ الدكتور عبد الناصر عسّاف (*)

مّمّا انتهى إلينا من مؤلّفات الشيخ طاهر الجزائري (ت ١٩٢٠) رسالةُ (إتمام الأُنس في عروض الفرس). وهي كما وصفها مؤلّفها: «رسالةٌ وجيزة، جمعتها لكشف اللبس عن عروض الفرس». وقد عرّف فيها المؤلّف بعروض الفرس في ضوء عروض العرب، مبيناً عمّا بينهما من مواطن اتّفاق واختلاف. وقد يُسلّمك الكلام فيها أحياناً إلى شيء من عروض الهند والترك. وكلُّ ذلك وشائجُ تصل هذه الرسالة بعلم العروض المقارن.

موضوع الرسالة:

هذه الرسالة تُخبرك بإعراض الفرس عن أبحر دائرة المختلّف (الطويل والمديد والبيسط)، وبحرّيّ دائرة المؤتلف (الوافر والكامل) إعراضاً كان وراء قلة نظم شعرائهم الشعر على هذه الأبحر. وهو ما عزاه المؤلّف إلى اختلاف مقتضى اللغتين: العربيّة والفارسيّة، وخصوصيّة كلّ منهما. وتُعرفك بما أجازته الفرس من تثمين بحر المديد الذي لم يستعمله العرب إلاّ مسدّساً، وتثمين كلّ بحر غالباً، حتّى تلك البحور التي لا تستعملها العرب إلاّ مربّعةً

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

كالمقتضب؛ وأنه قلّما يدخل في أبحرهم من الحذف ما تكون به الأبيات مشطورةً أو منهوكة أو مجزوءة. وتُخبرك بما ورد في (سبحة المرجان) لحسان الهند (ت ١٧٨٠م) عن اختلاف البحور العربيّة والفارسيّة والهنديّة إلا في المتقارب وركض الخيل - وهو ضربٌ من المتدارك مخبون التفاعيل - والسريع. وتذكر لك تصوّف الفرس بأبحر المنسرح والمضارع والمقتضب والمجتث التي جعلوها دائرة واحدة تصوّفًا أبعدها عن الوزن العربيّ، وأنّهم جعلوا بحريّ السريع والخفيف في دائرة واحدة، واستنبطوا منها ثلاثة أبحر: الجديد، وأصله (فاعلاتن فاعلاتن مستفعلن) مرّتين، والقريب، وأصله (مفاعيلن مفاعيلن فاعلاتن) مرّتين، وقد استعمله بعضُ المولّدين، وسَمّوه المنسرد؛ وأصله (فاعلاتن مفاعيلن مفاعيلن) مرّتين، وقد استعمله بعضُ المولّدين، وسَمّوه المطرّد؛ وأنّهم ولّدوا «الفريد» و«العميد» من الهزج. وتبيّن لك أنّ للفرس نوعين من القافية: أحدهما شاركوا فيه العرب، والآخر اختصّوا به، وفيه الرّديف، وهو كلمةٌ فصاعداً تتكرّر في أواخر الأبيات، ويجعلون الرويَّ ما قبلها، ويلتزمون فيه ما يلتزم في الرويِّ. وقد استعمله الزمخشريّ في قصيدة عربيّة مطلعها:

الفضلُ حصّله علاء الدولة المجدُّ أثّله علاء الدولة

وقد نصّ المؤلّف هنا على أنّ لهذه القافية في الفارسيّة من الحلاوة ما ليس في العربيّة، وأنّ سرّ ذلك يرجع إلى مقتضى اللغتين.

وإذا كان اتصال هذه المادّة بعروض الفرس ممّا دلّ عليه كلامُ المؤلّف، أو ما نقله من مظانّه، دلالةً صريحةً واضحةً؛ فإنّ ثمةً أشياءً في هذه الرسالة لا تكاد تجد لها صلةً بذلك، كأكثر ما ورد عن الفنون المستحدثة والبحور المحدثّة؛ فإنّك لا تجد فيه ما له صلةٌ بذلك، صلةٌ يدلّ عليها الكلام بنصّه أو بسياقه أو بأمثله، اللهمّ إلاّ إشارات يسيرة تهديك بشيء من نظر وتلبّث إلى تلك الصلة.

ففي الكلام على الهزج في الدائرة الفارسيّة بشتى أنواعه: المثنّى والمسدّس والمربّع، وما داخلها من علل، نصّ [ص ٧٤]^(١) على أنّ «فروع الهزج كثيرة، ومنها الرباعيّ، ويسمّى (دوبيت)، وقد استعمله العرب». وهذه إشارات تدلّ على أنّ الرباعيّ من عروض الفرس، وأنّ استعمال العرب له كان عن متابعة لا ابتداء. وممّا يؤكّد ذلك ما قاله [ص ٨٤] حين خصّ الرباعيّ بالكلام، من أنّ الفرس أقلّوا النظم على ما كان من الرباعيّ على شجرة الأخرم، الذي تكون التفعيلة الأولى فيه على (مفاعيلن)، وأنّه لم يجد للعرب فيه شيئاً.

منهج المؤلّف:

والمؤلّف لم يسرد ذلك في نسق واحد متّصل متكامل، يأخذ بعضه برقاب بعض، بل كان يأتيك نثراً مفرّقاً في غير موضع؛ ذلك أنّه كان من أمره أن يتناول فكرة من ذلك هنا وفكرة هناك، يتناول الفكرة ثمّ يقطع حبلها بما يسمّيه تنبيهاً أو فائدة أو غير ذلك ممّا ليس من صميم موضوع الرسالة الأساس (عروض الفرس)، وإن اشتمل على فوائد موصولة بالعروض أو ببعض فنون الشعر أو بعض صورته وأنماطه. وربّما ساق في بعضها ما له صفة الإغراب والطرافة التي ألفت بظلالها على العنوان، فكان بين يديك «إحماض» و«نكتة».

وكان من دأب المؤلّف أن يبيّن ما يحتاج في تقديره إلى تبيان بعبارة شارحة، أو بتعليل، أو بتعريف المقصود تعريف حدّ، أو بالتمثيل والتدليل؛ وكان إذا مثّل أو استشهد لما يدعو المقام إلى الاستشهاد أو التمثيل له، استعان بما كان في مصادره، أو بما حفظه، أو بما جادت به قريحته.

(١) رأيت الإحالة في المتن على المواضع المقصودة من كتاب طاهر الجزائري بطبعته المحقّقة، تقليلاً للحواشي.

وقد خالف عن ذلك في مواضع، فتركه عن سهو أو عن قصد، وكان في ذلك تاركاً لما جرى عليه برمته، أو مخالفاً له في الهيئة والحال. فمن ذلك أنّ المؤلّف نقل من كلام (غلام آزاد) مجيء شيء من بحر السريع في الهندية، يسمونه «جوبائي» وينظمون عليه «المثنوي»، وهو - كما عرّفه - عبارة عن أبيات متوافقة الأوزان متخالفة القوافي، كلّ واحد منها ذو قافيتين، ومثّل له بيتين من شعر بهاء الدين العاملي على الوافر. حتّى إذا انتهى من ذلك عقب [ص ٩٢] بقوله: «أقول: إنّ المتقدمين قد استعملوا المثنوي، ولكن قصروه على بحر الرجز فيما عثرت عليه».

قال المؤلّف ذلك، ولم يمثّل بشيء. وشواهد في التراث العربي كثيرة. من ذلك مثلاً قول أبي العتاهية في مطوّلته المعروفة بـ«ذات الحكم والأمثال»:

إنّ الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة
لكلّ ما يؤذي، وإنّ قلّ، ألم ما أطول الليل على ما لم ينم!
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حُسن فعله

ومن ذلك ما تراه في كلام الجزائريّ على الفنون السبعة المستحدثة الذي لم يجر على نسق واحد؛ إذ غنيّ بالرّباعيّ والموشّح أكثر ما غني، عرّف بهما مفسراً اسمهما ومبيّناً حالهما وصورهما وأوزانهما، وذاكراً أوّل من اخترع الموشّح، وممثلاً لهما بأمثلة مناسبة. ثمّ عرّف بـ(الموالي)، مبيّناً مخترعه ووزنه وبعض حاله، وأُسّس استعماله، وسبب تسميته، ومثّل له بما جادت به قريحته، وتبّه على ما يميّزه، من كثرة جعله ملحوناً، وحسن ذلك فيه. حتّى إذا انتقل إلى سائر الفنون قلّ اهتمامه بها، فاكتفى في «القوما» بوزنه ومخترعه، وفي (كان) وكان) بمخترعه دون وزنه، وفي الزجل بمخترعه وبعض وزنه؛ وأعرض عن التمثيل لهذه الفنون الثلاثة محيلاً على كتاب (المستطرف). ولما ختم بالسلسلة اقتصر على وزنه، ومثال دالّ عليه.

ومنه أيضاً أنّ الجزائريّ كان يمثّل لما جرى عليه الفرس في عروضهم من أبحر بأمثلة بالفارسيّة، وهو ما نصّ عليه [ص ٥٦]، وواعد به. بيد أنّه نسي ذلك [ص ٧٤، ٧٩] حين مثّل للرّمَل والفريد والعميد بأمثلة بالعربيّة، وحين مثّل [ص ٧٥] للمضارع بمثال بالتركيّة. وتركه حين ذكر [ص ٧٩] المتقارب والمتدارك اللذين اتّفق فيهما الفريقان، ولم يمثّل لهما بشيء.

ومما كان من قبيل ما أخلّ فيه المؤلّف بما تبه عليه وواعد به أنّه قال [ص ٦٨] في فقرة عنون لها بكلمة «تنبيه»: «قد جرت عادة كثير ممّن ألّف في العروض بالفارسيّ أن يأتي بشاهد فيه نوع من أنواع البديع، ويشير إلى ذلك».

ثمّ أخذ يقلّد ذلك في بحر الهزج في الدائرة الفارسيّة بشتّى أنواعه. وهو تقليد يقتضي الاستشهاد أو التمثيل بأبيات بالفارسيّة فيها شيء من البديع، مع الإشارة إليه. لكنّ التأمّل يدلّ على أنّ الجزائريّ أخلّ بذلك في ثلاثة مواضع إخلالاً ظاهراً، عند التمثيل لما كان من بحر الهزج مسدّساً أخرب (*) [ص ٧١، ٧٣]؛ إذ لم يذكر ما في الأمثلة في تلك المواضع من بديع، نصّاً أو إشارة. على أنّ مجيء عجز المثال في موضعين من ذلك بالعربيّة [ص ٦٨، ٧٠] إشارة إلى ما فيه من بديع، قد تغني عن التصريح؛ لأنّ ذلك دليل على التلميع، وهو - كما عرّفه المؤلّف [ص ٧٠] - «أن يؤتى في الشعر الفارسيّ أو التركيّ بيتاً أو مصراع من العربيّة».

والسهو عارض طراً للمؤلّف في مواضع معدودة دعاه إلى تركّ الوفاء بما واعد به من إتمام الكلام على ما نقله والده من كتاب الرنديّ (الوافي في نظم القوافي) عن الأبحر المحدثه؛ فقد بيّن حينئذ حال ثلاثة أبحر من

(*) يكون الهزج أخرب إذا اجتمع فيه زحافا الخرم والكفّ، فيُحدَف المتحرك الأول من

مفاعيلن، والساكن الأخير، فتصبح فاعيل = مفعول. [المجلة]

الأبجر التسعة، ثم قطع الكلام منبهاً [ص ٦٥] على أن للكلام تنمة؛ حتى إذا عاود ذلك غاب عنه بحران: المتئد والخبب، وتناول بحرين آخرين بغير ما سماهما به أولاً [ص ٧٨-٧٩]: المنسرد (القريب)، والمطرّد (المشاكل).

وكان من أثر ذلك أيضاً أن مسَّ شيئاً ممّا كرّره بعضُ اختلاف. فقد ذكر في كلامه على الرباعيّ [ص ٨٤] وقوفه على رباعيّات في العربية هي من قبيل «المستزاد» في الفارسيّة، وقال في موضع آخر يُعرّف بالمستزاد [ص ١٠٣]: «وأما المستزاد فهو ما يقع فيه إثر كلِّ مصراع أو بيت زيادةً قليلةً موزونة. ولعله من الموشح،...».

ولا يخفى أنّ في قوله في الموضع الثاني: «ولعله من الموشح» اختلافاً عمّا ذهب إليه أولاً. على أن تصدير قوله هنا بكلمة «لعله» مؤذنٌ بأنّه رأيٌ لم يؤت فيه اليقين.

ومن السّهو الذي كان في طبعة الرسالة الأولى، وقلّدها فيه المحقّق في الطبعة التي بين أيدينا - ذلك الاختلافُ الظاهر في الكلام على بحر «العميد» [ص ٧٩] بين بيان وزنه، وتقطيع المثال الذي مثل به له.

قال: «وقد جعلوا وزنه (مستفعلاتن مستفعلاتن فعُعلن)، ومثاله:

يا قوم أنا الصَّبُّ المعنَى وحدي ما عندكم من الهوى ما عندي

مفعول. مفاعيلن. مفاعيلن. فعُ مفعول. مفاعيلن. مفاعيلن. فعُ

والصحيح في تقطيع هذا المثال - وللأخ الدكتور محمّد شفيق البيطار

جزاه الله خيراً يدٌ من علم وخبرة في تأييد ذلك وتصحيحه -:

يا قوم أنا الصَّبُّ المُعنَى وحدي ما عندكم من الهوى ما عندي

مستفعلتن. مستفعلاتن. فعُعلن مستفعلتن. مستفعلاتن. فعُعلن

مصادر الرسالة:

الجمع - وهو صفة معلنة من صفات هذه الرسالة، نصَّ عليها المؤلف نصًّا - دلَّ عليه تصريحُ المؤلف ببعض المصادر التي نقل منها في بعض المواضع، وإحالتُه على بعضها إحالةً المشير إلى النقل والإفادة. وربما أخذ المؤلفُ شيئاً من سهو أو نحوه حال دون تقييد كلِّ ما نقله أو أفاده من تلك المصادر وتحديدِه. وكان من مصادره، إلى ذلك، محفوظٌ صدر فيه عن سماع أو قراءة دلَّ عليهما أحياناً بقوله: «سمعتُ» و«رأيتُ» و«وقفتُ» و«عثرتُ».

ومصادره التي صرَّح بها، نقل منها أو أحال عليها:

- معيار النظَّار في علم الأشعار لعبد الوهَّاب الزنجاني، وقد وصفه [ص ٥٩] بقوله: «وهو كتاب في المعاني والبيان والبديع والعروض، بديع المسلك، قريب المُدرَك».

- كتاب الوافي في نظم القوافي لصالح الرُّندي الأندلسي. وكان نقله منه كما يدلُّ كلامه بواسطة أبيه، قال [ص ٦٢]: «ذكر الوالد تُغمَّد بالغفران نقلاً عن كتاب الوافي في نظم القوافي....».

- سُبحة المرجان في آثار هندستان لغلام علي آزاد، وقد نقل منه [ص ٦٦] مصرحاً به مرَّة، ومصرحاً بلقب مصنِّفه آزاد مرَّةً أخرى [ص ٩٠].

- فتح الخبير في أصول التفسير لشاه وليّ الهندي [ص ٩٠].

- المستطرف للأبشيهي الذي أحال القارئ إليه [ص ٨٧-٨٨] في أمثلة «القوما» و«كان كان» و«الرَّجَل»، قائلاً: «وراجع للأمثلة كتاب المستطرف».

شخصية المؤلف:

على أنَّ ذلك الجمع لم يكن استلاباً للمؤلف، يواريه وراء النقل، ويعيب أثره. ولو تأملت الرسالة لأصبت فيها أماراتٍ تدلُّ على بدوِّ شخصيَّة

الشيخ طاهر الجزائري. فمن ذلك اختيار النصوص (النقول) والشواهد والأمثلة المناسبة الدالة على مراده، وحسن التصرف في النقل والاختصار، والتعقيب والاستدراك على بعض ما بدا له في بعض الكلام. وكل ذلك دالاً على أنه لم يكن ناقلاً فحسب، بل كان في ذلك ذا رأي ودراية.

ومن ذلك أنه نقل من (سبحة المرجان) نصاً قال فيه: «والاعتدال بين المصراعين في الأشعار الفارسيّة والهنديّة غالب، بخلاف العرب، فإنهم لا يبالون باختلاف الزحافات في المصراعين، وفيهم قطع كلمة واحدة بين المصراعين، وما هذا بالفارسيّة ولا الهنديّة، والأشعار الفارسيّة أكثرها في غاية المطبوعيّة، بخلاف العربيّة والهنديّة، والشعراء الذين ينظمون الشعر الفارسيّ سواء كانوا من الفرس أو مقلّديهم كأهل الهند ينظمونه من غير أن يتعلّموا العروض الفارسيّة، ومع هذا لا يخرجون عن الوزن».

فعبّ عليه [ص ٦٧] بقوله: «أقول: إن ما أشار إليه من عدم سلاسة الشعر العربيّ وزناً إنّما هو بالنظر لبعض أبيات ذكّرت في كتب العروض؛ تميمياً لمسائله، أو لأبيات نظمها بعض المتكلّفين، أو لأبيات وقعت من أبحر قلّ الأنس بها كالمضارع والمقتضب؛ قال الزجاج: «هما قليلان حتّى إنّهما لا يوجد منهما قصيدة لعربيّ، وإنّما يُروى من كلّ واحد منهما البيت والبيتان»، وأمّا ما وقع في كتب العروض من الأبيات التي دخلها زحاف تنبو عنه الطباع السليمة فإنّ جلّها ممّا نُظِم ارتجالاً، وكفى به عُذراً».

وممّا تتراءى لك فيه شخصيّة المؤلّف استدلاله وتمثيله بما نظم من شعر أو جادت به قريحته في بضعة مواضع. ومن ذلك مثلاً أنّه ذكر أنّ بحر المضارع ممّا تصرّف فيه الفرس، وأنّ أصله عندهم (مفاعيلن فاعلاتن) ثماني مرّات، ولا يُستعمل إلّا مكفوفاً (مفاعيلن ← مفاعيلن)، ومثّل له بيت

من الشعر التركيّ أوّله أخرج (مفعول)، ثمّ زاد عليه بيت نظمه بالعربيّة، فقال [ص ٧٦]: «وقولنا:

لا تَنَحْ. بالملام. أخوا الوجد. والهوى يكفيه. ما عراه. من السُّقم. والجوى»
 ومن ذلك ما كان منه في الكلام على شجرة الأخرم من الرباعيّ، وفيها
 يكون مبدأ الرباعية على «مفعولن» قال [ص ٨٤]: «وأما شجرة الأخرم فلم أجد
 فيها نظماً للعرب، والفرس قد أقلّوا من قطف ثمرها، وقد نظمنا مثلاً له، وهو:
 يا بدرأ. قد أضحى. في القلب. وحلّ قُلْ لي عن. قاضٍ ما. لِلهَجْرِ. أَحَلْ
 وانظُر لي. إحساناً. فالطَّرْف. همى والأحشا. في نار. والصَّبْر. رَحَلْ
 مفعولن. مفعولن. مفعولن. مفعولن. مفعولن. مفعولن.»

ومنه أيضاً ما كان في قوله [ص ١٠٣]: «وأما المُستزاد فهو ما يقع فيه
 إثر كلِّ مصراع أو بيت زيادةٌ قليلة موزونة، ولعله من الموشح، مثاله قولنا:
 يا من جعل الصدّ مباحا والصَّبْرَ عن الصبِّ مُزاحا
 من غير جُناح ماذا بمُزاح
 صلّ ذا شغف مثل خِلال قد صار مُناويه مُراحا
 مع لُطفٍ خِلال مع فرطٍ مِراح»
 ولو كان لي هنا أن أرى رأياً لدعوت من ينهض لهذه الأبيات، وسائر ما
 تفرَّق من شعر طاهر الجزائري في بطون كتبه، يجمع ذلك، ويصنّفه ويدرسه
 على وجهه.

ومن التجليات الدالة على إبداع المؤلّف اختراعُ بعض صور الكتابة
 الشعرية الطريفة، أو محاكاة بعض الشعراء في بعضها، وتسمية بعض صور
 الشعر بما بدا له من مصطلحات مناسبة.

فمن الأوّل ما نقله من كتابه (تثقيف سُمُر الخطّ)، فقد ذكر [ص ٩٨] أن من

محاسن الخطّ العربيّ يُسرّ التوليد فيه، وأنّه أفاد من ذلك، فولد من هذا الجنس نوعاً سمّاه بـ«المحير» لقراءة الكلمة فيه بوجهين أو أكثر، ذلك أنّ الألف في بعض المواضع تتولد منها اللام، وهو ما ابتدَعَ له البيتين الآتين، مستدلاً بقافيتهما، فإنّ الأولى منهما «هزا»، ويجوز أن تُجعل «هزل»، والثانية «خطا»، ويجوز أن تُجعل «خطل»؛ فبواسطة التوليد كُتبت بوجهين بلا تكرار:

جَدَنَّ واحذرَنَّ مَنْ	نَمَّ ومانَ أو هزا
جِدَنَّ واحذرَنَّ مَنْ	نَمَّ ومانَ أو هزل
وقاربَنَّ ذوي عُلى	تباعدا عن الخطأ
وقاربَنَّ ذوي عُلى	تباعدا عن الخطل

ثمّ نصّ على أنّ ذلك «أحسنُ ما يُستعمل في المواربة مثل (عدل) و(جدل) في البيتين الآتين، فإنهما بقاعدة التوليد يُقرآن (عدا) و(جدا)»، ثمّ ساق ذينك البيتين.

ومن الثاني نظمُ بيتين قامت قافيتهما على الإشارة لا على اللفظ. قال [ص ٩٦-٩٧]: «قد سمعتُ من بعض الأفاضل بيتين قافيتهما ليست لفظاً، ولما كانا غير منسجمين لم أوردتهما، ونظمت بيتين آخرين يضمّان تينك القافيتين، وهما:

متى يُذكرُ بناذٍ وصفُ آلِ الـ	عُلى طابَ الشذا فيقال - -
وإن يُذكرُ صفاتُ ذوي الدنيا	بهِ حُبْتُ الشذا فيقال - -

ولا يخفى أنّ القافية في الأوّل صوتُ جذبتين لداخل الأنف، على ما يقتضيه الطبع في شمّ الروائح الطيبة، وفي الثاني بالعكس».

ومن القبيل الثالث ما ورد في كلام المؤلف على التخسيس، وهو - كما عرّفه - أن تعمد إلى بيت فتقدّم عليه ثلاثة أشطر على قافية الشطر الأوّل.

قال ذلك، ومثّل له بقول بعضهم، ثمّ عقّب عليه بقوله [ص ١٠١-١٠٢]:
 «وأصعبُ منه التخميس بين المِصرَاعين، وسَمِيَتْهُ «المُجَنِّح»، كقول بعضهم
 في تخميس البيت السابق:

أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الحَبَّ مِنْكُمْ هِيَهَاتَ مِنْهُ لَه مِنْ نَارِهِ عَلَّمَ
 فِي شَاهِقِ الحَبِّ لَا يُطْفَأُ لَه ضَرْمٌ وَبِحَرْزِهِ مِنْ دَمُوعِ الصَّبِّ مَلْتَطَمٌ

ما بين منسجِمٍ منه ومضطَرِمٍ»

ومن البيّن أنّ الأَشطَرَ الثلاثة في هذا النوع من التخميس تكون بين
 صدر البيت المراد وعجزه، وأنّ هذا البيت صدرًا وعجزًا يكون لها
 كالجنّاحين، ولذلك اجتهد وسمّى هذا الضرب «المجَنِّح».

ومن ذلك أنّ المؤلّف رأى نظماً لبعض أدباء الفرس والتُّرك يجعلونه
 من البحر الطويل؛ لتركّب كلّ بيت من أجزاء زائدة عن المعتاد، لا لكونه
 على وزنه، مثّل له بيت لبعضهم بالتركية امتدّ على ثلاثة أسطر، بيّن حاله
 بقوله [ص ١٠٣]: «هذا بيت قد تركّب كلّ مصراع منه من (فاعلاتن) عشر
 مرّات». ثمّ عقّب بقوله: «والأولى أن يُضَافَ «الطويل» في مثل هذا إلى
 البحر الذي ينمي ذلك الوزنُ إليه، فيقال هنا مثلاً: طويل الرَّمَل».

وهذا كما لا يخفى ضبطٌ وتقييدٌ حسن يصف البنية الإيقاعيّة التي قام
 عليها النظم، ويدلّ عليها، ويمنع اللبس.

وقد ترك المؤلّف هوى النفس وعزفَ عن أثره الانتماء الثقافي واللغويّ
 فيما كان له فيه رأيٌ في هذه الرسالة من عروض الآخر، وصدر في ذلك عن
 علم وعدل في الغالب. فما من شيء ساقه المؤلّف في هذه الرسالة، خرج
 فيه الفرسُ عن ميزان العروض العربيّ، أو عن بعض دوائره، أو كان لهم فيه
 تصرّفٌ ببعض الأبحر، أو مخالفة للعرب في بعض الضوابط والأصول صدّ

عنه، أو رماه بحكم قيمة سلبِيٍّ، بل كان يلوذ إزاءه بالصمت، وكان يقف منه موقف السارد لا المتعقب الناقد.

فحين استغرب زُهدَ الفرس في أبحر الطويل والمديد والبسيط والوافر والكمال، وقلة نظمهم على وزنها شعراً، وهي - ما عدا المديد - أحلى الأبحر عند العرب - فسّر ذلك [ص ٥٦] باختلاف مقتضى اللغتين، لا باختلاف ذوق الأمتين؛ وأيد ذلك بما بدا له في شعر سعدي الشيرازي الذي قال الشعر بالعربية والفارسية؛ فإن أكثر أشعاره بالعربية كانت على تلك الأبحر، «وربما لا تجد له شعراً فارسياً على وزن منها، فلكل لغة خصوصية يهتزُّ المدرك لها طرباً، ويقضي الذاهل عن مدركها عجباً».

وهذا رأيي علمي صرف مؤيد بالدليل، مبرراً من حديث النفس وحساسية الانتماء.

وحين تكلم على القافية عند الفرس، ولاسيما الرديف - وهو نوع منها اختصوا به -، ذكر إجادتهم فيه أعظم إجادة، وأن الزمخشري استعمله في قصيدة عربية ساق مطلعها، ثم قال [ص ٩٤]: «وليس له في العربية الحلاوة التي في الفارسية، وسرُّ ذلك يرجع إلى مقتضى اللغتين، ولنا فيه:

يا من أسال - ولا أقول أسى - دماً من مدمعي، أو ما كفى ما قد جرى
صِلني فإنَّ الصدَّ أوري ناره في أضلعي، أو ما كفى ما قد جرى
وارفُق بقلبٍ ليس لي بمعاده من مَطْمَع، أو ما كفى ما قد جرى
واعلم أنَّ هذه الأبيات يتيسر جعلُ قافيتها على منوال العرب، وذلك بأن ترفع الرديف المكرَّر، فتكون حينئذ من مجزوء الكامل. والأولى لمن أراد أن يتابع الفرس في النظم العربي أن يفعل هكذا».

وهذا الكلام عند التحقيق وراءه علم وخبرة وذوق، وهو رأيي من كان

على علم باللغتين العربيّة والفارسيّة، ومعرفةٍ بالشعر فيهما، وكانت له تجربة في ذلك وخبرة.

وذكر المؤلّف في موضع آخر نسجَ الترك في أشعارهم على منوال الفرس، وأنّ لهم أشعاراً كثيرة، جزيلة المبنى، جليلة المعنى، أكثرها فيها في كثير من المواضع استعمالَ الألفاظ الفارسيّة والعربيّة؛ وساق اعتراضَ أكثر أدباء عصره عليهم فيما استعاروه في ذلك دون احتياج. وهو ما تدبّره وناقشه مناقشة من كان يرى المصلحة والغاية فيما فعلوه، إذ قدّر في تلك الاستعارة غرضاً تعليمياً وحضارياً، وحاجةً ثقافيّة.

قال [ص ٦٨]: «وعُذر المتقدّمين بالنظر لما أخذوه من الألفاظ العربيّة بدون احتياج أنّهم أرادوا أن يقربوا تعلّم العربيّة على الطالب نظراً لشدة لزومها، وأمّا ما استعاروه اضطراراً - وهو ما ليس له مرادف في لغتهم - فذلك ممّا لا ينبغي أن يعترض فيه أديب...».

وما قاله الشيخ طاهر الجزائريّ ردّاً على قول حسن الهند بتمييز أكثر الأشعار الفارسيّة بالمطبوعيّة (الطبع)، بخلاف الأشعار العربيّة والهنديّة - ليس انتصاراً لانتماء، أو ردّاً وراءه عصبيّة، بل هو تعقيب علميّ قام على نقض طريقة الاستدلال التي اعتمدت على وقائع جزئيّة (أمثلة معيّنة خاصّة من الأبيات) في بناء الحكم الكلّي؛ خلافاً لما يقتضيه المنهج العلميّ من كفاية الاستقرار وسعة الاختيار.

قال الشيخ طاهر الجزائريّ [ص ٦٧]: «إنّ ما أشار إليه من عدم سلاسة الشعر العربيّ وزناً إنّما هو بالنظر لبعض أبيات ذُكرت في كتب العروض؛ تمييزاً لمسائله، أو لأبيات نظمها بعض المتكلّفين، أو لأبيات وقعت من أبحر قلّ الأُنس بها كالمضارع والمقتضب... وأمّا ما وقع في كتب العروض

من الأبيات التي دخلها زحاف تنبو عنه الطباع السليمة فإنَّ جَلَّها ممَّا نُظِم ارتجالاً، وكفى به عُذراً».

وربما شدَّ عن ذلك كَلِّه كلمةٌ وصَفَ بها المؤلِّفُ تعدُّدَ القافية واختلافها فيما قلَّدَ فيه بعضُ أدباء التُّرك الأدياء الفرنسيين بـ«القافية العرجاء». تحدَّث عن استعمال الموشح في التركيَّة في أنواع كان لكلِّ نوع منها اسم، كالمربَّع والمخمَّس إلى المعشَّر، ومنه «ترجيع بُند»، و«تركيب بُند» اللذان أجادوا فيهما أعظمَ إجادة، ونظموا فيهما قصائد بليغة في الوعظ والزَّهادة، ثمَّ قال كالغامز [ص ٨٩]: «وقد تابع بعض أدباء عصرنا أدباء الفرنسيين في القافية العرجاء، نحو قول بعضهم^(٢):

نَه خَوْش ايلر محبَّتي تعريف شو غريب بلبل أشياننده
بنده كويا ايدم زماننده أشيا نمدي برنهال ظريف
أسدي بر زمهير زهر افشان نه چمن قالدي عاقت نه فدان»
فهذا الوصف ينطوي بدلالاته اللغويَّة على استهجان وحكم قيمة سلبي، ولو حُمِل على أنَّه وصف محض رصد به ما لحظه في تقاطع القوافي بين

(٢) الأبيات كما نصَّ المحقِّق في الحاشية ثمة للشاعر رضا نور. وقد عرَّف المحقِّق به بقوله: وقد كان من تلاميذ الحاج بكتاش، وكان ميَّالاً للصوفيَّة، وكان عاشقاً للجمال، توفيَّ قرابة عام ١٣٨٨م، وديوانه مفقود، ولعلَّ الحريق الذي تعرَّضت له المكتبة السلিমانيَّة عام ١٧٩٢م قد أتى عليه، فقد احترق فيه قسم من مؤلِّفات الصوفيَّة. ا.هـ. ولم يذكر المحقِّق فيما ساق من ذلك مصدراً أو مرجعاً، ولم يهديني البحث إلى ما يدلُّ عليه ويعرِّف به. وهذا القول بإزاء ما يشير إليه سياق كلام المؤلِّف من أنَّها لبعض أدباء عصره - فيه نظر. ومعنى الأبيات كما ذكر المحقِّق: ما الذي يسُرُّك؟ إنَّك لتعرف محبَّتي، ما الغريب - يا بلبل - في هذه الأشياء؟. هل تذهب إلى القرى في هذا الزمان؟ وما الأشياء التي تراها؟. أعطنا الزهر الجميل في البرد القارس، ولا تخف من الآخرة.
هذا، وقول الجزائريِّ هنا: «الفرنساويين» لا يناسب قواعد العربيَّة في النسبة، ولو بنى عليها لقال: «الفرنسيين»؛ بحذف ألف «فرنسا» لأنَّها خامسة لا يُعرَّف أصلها.

شطري البيتين الأوّل والثاني من شبه بالمشية العرجاء التي تتقاطع فيها أحياناً القدمان والساقان، وتصطك الركبتان.

وفي كلّ حال لم يرد في كلامه ما يغمز من جنس أو يزري بلغة أو يتنقص من قوم.

لغة الرسالة:

ولغة الرسالة لغة واضحة، غلب عليها الدقة والسلامة، وخلت من صبغة السجع التي حُبست في العنوان والخطبة، وبرئت من أساليب الإنشاء الأدبي المثقلة بتكاليف العبارة المصطنعة.

وتبدو لك الدقة فيما تبدو في ضبط الأحكام وتقييدها بألفاظ تناسب الواقع العروضي أصولاً واستعمالاً، نحو: قلّ، أقلّ، كثر، كثيراً، أكثر، أكثر، غالباً، وجوباً، يجوز، التزموا، أجازوا، قد يُستعمل، اختصوا به، اضطراراً، لم يُستعمل إلا، الأولى،....

ومن سمات هذه اللغة أن يسوق المؤلف مادة الرسالة، ولا سيما ما كان موصولاً بالأحكام، سياقة الموقن الجازم الذي لا ينازعه الشك والتردد. وقد يستوقفك ممّا خالف هذا وذاك كليماً معدودة تحتاج إلى توقّف ونظر.

من ذلك استعمال «العروض» مذكراً كما في قوله [ص ٦٨]: «فعروض الفرقتين إذن واحد»، خلافاً لما أجمع عليه العلماء من أنّها مؤنثة.

ومن ذلك تعدية الفعل «بلغ» بحرف الجرّ «إلى» في قوله [ص ٨١]: «تبلغ إلى أربعة وعشرين»، والمشهور تعديته بنفسه. فهل حمله على «وصل» الذي يتعدى في الغالب المشهور بحرف الجرّ «إلى»، أم قلّد فيه لغة غير مشهورة، أو ارتكب وجهاً تسمح به قدرة اللغة؟

ومنه أيضاً استعمال «قلماً» في قوله [ص ٥٧]: «قلماً يدخل في أبحرهم

الشرط والجزء والنهك». فهل أراد النفي مقتدياً بما جرى عليه الأولون في مثله أحياناً، أم أراد القلّة على الوجه الظاهر المشتهر في زماننا؟
ومن ذلك مخالفة القواعد المشهورة في علاقة المعدود بالعدد، وحذف ياء «ثمانى». وهذا شيء نبّه عليه المحقّق في مواضعه، وأقام عبارة المتن فيها على وجهها.

ومن ذلك ما قاله في «الموالي» [ص ٨٧]: «وكثيراً ما يجعلونه ملحوناً، واللحن فيه حسن».

وفي هذا عندي إطلاقٌ يقتضي التقييد؛ لأنّ الحُسن في اللحن هنا - والمراد به الترخّص في إعراب بعض الكلام وإهماله - يقتصر على الإيقاع ووقع الكلام في الأذن.

ومنه قوله [ص ٥٦] بعد ما ردّ اختلاف منزلة أبحر الطويل والبسيط والوافر والكامل بين الفرس والعرب إلى اختلاف مقتضى اللغتين: «وإنّ توقّفت في ذلك فاعمد إلى ديوان شاعر باللغتين كالسّعديّ، فإنّك تجد أكثر أشعاره بالعربيّة من ذي الأبحر، وربّما لا تجد له شعراً فارسياً على وزن منها، فلكلّ لغة خصوصيّة يهتزُّ لها المدرك طرباً...».

فقوله: «وربّما لا تجد له شعراً فارسياً على وزن منها» دالٌّ على رأيي خلا من القطع واليقين واكتسى ثوب التردّد والظنّ، فكأنّه تقدير قدره من لم يطلع على ديوان سعدي الشيرازيّ، أو قول من اطلع عليه يوماً، ثمّ غاب عنه غياباً لم يمكنه من الجزم. ولو كان بين يديه وقتئذ لبنى عبارته على يقين، ولاستشهد بشيء من شعره دالٌّ على ذلك يؤكّده ويصدّقه.

* التحقيق:

هذه الرسالة طُبعت قديماً سنة ١٣٠٤ هـ ملحقةً برسالة المؤلّف (تمهيد

العروض إلى فنّ العروض). وقد نهض لها منذ زمن قريب الباحث الجامعيّ الأستاذ محمّد نعيم الميداني، فعُني بها، ونشرها محقّقةً، معتمداً على نصّ الطبعة القديمة^(٣). وقد اجتهد في خدمة النصّ ضبطاً وشرحاً وتعليقاً وفهرسة ودراسة، وصرّح ببعض ما قام به في ذلك في المقدّمة؛ إذ قال: «قمتُ بنسخ الرسالة، وضبطها، وتعريف أعلامها، وتبيان مصطلحاتها، وإقالة عثراتها، وتخريج أبياتها ما استطعت، وشرح ما ورد فيها من أبيات فارسية وتركيّة، وما زدته جاء بين []، ليكون عملي المتواضع فيها باكورة إنتاجي العلميّ،...».

ولا شكّ أنّ الباحث المحقّق أجاد فيما نهض به، لكنّه لم يُوفِ على الغاية، إذ ندّد عنه من الهفوات ما يدلّ عليه التأمل، ويكشف عنه النظر الفاحص.

النصّ:

النصّ لم يسلم في هذه الطبعة المحقّقة من يد التغيير، فكان فيه شيء من تحريف وسقط، أو زيادة بعض الألفاظ دون ما حاجة، إلى شيء من أخطاء الضبط. وقد بدت لي تلك الهفوات في المواضيع الآتية:

- ورد [ص ٥٥]: «ولم يَسْتَحْلُوا بَحْرَ دَائِرَةِ الْمُخْتَلَفِ، وَهِيَ الطَّوِيلُ وَالْمَدِيدُ وَالْبَسِيطُ،...».

وكلمة «بَحْرَ» في المتن هنا تحريف، والصحيح كما ورد في النسخة المطبوعة المعتمّدة «أَبْحَرَ» بالجمع. ثمّ كان من المناسب أن يضبط المحقّق لأمّ الفعل «يَسْتَحْلُوا» دفعاً لما يساور الناسَ في مثله من وهم في ضبطها بالفتحة.

- ورد في الكلام على «الموالي» [ص ٨٦]: «تعلّمه عبيدُهم المتسلّون لعمارتهم وغلماَنهم».

(٣) وتعبير المحقّق عن هذا الأصل الذي اعتمده في تحقيق هذه الرسالة بالمخطوط في المقدّمة والدراسة والحواشي - لم يتمكّن منه الإحكام وخانه التوفيق؛ لأنّ ذلك لا يناسب الواقع، فهذا الأصل مطبوع لا مخطوط.

وفي هذا تحريف صوابه كما ورد في الأصل: «المتسلّمون».

- مثل المؤلف للمجتبى في الفارسيّة [ص ٧٦] بيت لحافظ الشيرازي، وقد عزاه إليه بلقب «الحافظ» معرّفًا. فما كان من المحقّق إلا أن حذف منه أداة التعريف في المتن، وفسّر ذلك في الحاشية بقوله: «ورد في متن المخطوط: «الحافظ» والصواب ما أثبتناه في المتن، وهو حافظ الشيرازي،....».

وهذا التغيير من المحقّق ضربٌ من التصرّف في النصّ لا ينبغي؛ لأنّ «الحافظ» هو لقب هذا الشاعر الذي لُقّب وعُرفَ به بعد ما حفظ القرآن. وهو الأصل في لقبه الذي يُستعمل مجرداً من «ال» التعريف اختصاراً وتخفيفاً؛ فلا بأس إذن أن يُذكر الأصل ويُستعمل إذا كان السياق دالاً عليه كما هو في النصّ هنا. ومن ثمّ لا وجه للتخطئة والتصرّف بالتغيير.

- ورد [ص ٨٩]: «وقد تابع بعضُ أدباء الفرنسيّين في القافية العرجاء،...».

وفي هذا سقط وراءه انتقال النظر فيما أقدر. والصواب فيه كما في الأصل: «وقد تابع بعضُ أدباء عصرنا أدباء الفرنسيّين في القافية العرجاء،...».

- ومما وقع فيه سقط ظاهر ربّما كان وراءه التنضيد الطباعيّ ما وقع [ص ٧٤] في تقطيع مثال مثنى الرجز عند الفرس، فقد ورد في النصّ المحقّق:

مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن
والصحيح المطابق للواقع والأصل: مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن

مستفعلان، في كلّ شطر بزيادة «مستفعلان».

- ورد [ص ٧٣] في الكلام على بعض أنواع الهزج في الدائرة الفارسية: «٧- المسدّس الأخرّب، المقبوض [الحشوّ] السالم العروض والضرب:.... ٧- المسدّس الأخرّب، المكفوف [الحشوّ]، المقصور العروض والضرب:....».

وفي هذا زيادةٌ ما لا تدعو الحاجة إليه، أعني كلمة [الحشو]؛ لأنّ دلالة هذه الكلمة مفهومة من سائر الكلام، فلا حاجة إلى التصريح بها؛ ذلك أنّ «الخَرْب» علة محلّها الابتداء، والسلامة والقصر في الموضوعين كما تدلّ عبارة المؤلّف خاصان بالعروض والضرب. وإذا جُمعَ هذا وذاك لم يبقَ إلّا الحشو، وكان المقصودَ بالقبض أوّلاً، وبالكفّ ثانياً.

وإلى هذا كان المحقّقُ هنا يقلّد النسخة المطبوعة التي عوّل عليها في تكرار الرقم «٧». والصحيح أن يكون الأوّل مرقوماً بالرقم «٧»، وأن يُرقم الثاني بالرقم «٨».

ومن هذا القبيل في متابعة النسخة المطبوعة ما كان [ص ٧٧] في الكلام على دائرة السريع والخفيف؛ فقد عُنونَ ذلك عن سهو وغفلة في النسخة المطبوعة بـ«السريع والمجتث». والصحيح الذي يدلّ عليه السياق والكلام الذي انعقد له المبحثُ هو «السريع والخفيف».

- ورد [ص ٥٩]: «قال الفاضل عبد الوهّاب الزنجاني» بجرّ النسبة. وهذا خطأ ظاهر، صوابه «الزنجاني» بالرفع.

- ضبط المحقّق [ص ٦٦] (سبحة المرّجان) في المتن والحاشية بكسر السين، وكذلك فعل حيث ورد في الحواشي وفهرس المصادر والمرجع (٤)؛ والصحيح «سُبحة» بضمّ السين.

- أخطأ المحقّق [ص ٨٥-٨٦] في ضبط بعض ما ضبطه من موثّق تقيّ الدين السروجي. وكان ذلك في هذين البيتين:

لِمَ لا تلومُ الذي جفاني وصدّ عن مقلتي المنام

(٤) ينبغي التنبيه هنا على أنّ ما ذكره المحقّق ثمة [ص ٦٦، ١٢٢] من أنّ طبعة هذا الكتاب التي اعتمدها، وهي حجرية، ليس لها تاريخ (د.ت) = غير صحيح؛ لأنّ هذه الطبعة كما ورد في خاتمة الكتاب مؤرّخة بعام (١٣٠٣هـ).

هواه من اشكل المسائل كم حار في وصفه فقيه
والصحيح أن تُضَبَطَ «لِم» بتسكين الميم ضرورة لا بفتحها، وكذلك
ضُبِطَتْ في الأصل، وأن تكون نون «من» ساكنة، مع بقاء همزة «أشكل»
على حالها دون تسهيل. وبهذا يستقيم الوزن، فتكون (لِم لا تلو) على وزن
(مستفعلن / ٥ / ٥ / ٥)، وتكون (هواه من) على وزن (متفعلن // ٥ // ٥)،
وهو من جوازات (مستفعلن). وهذا المناسب لما عليه أبيات القطعة
المذكورة من الموشح، فقد نصَّ المؤلف على أن وزن الشطر الأوّل من كلّ
بيت هنا (مستفعلن فاعلن فعولن).

- ضبط المحقّق [ص ٦٧] كلمة «مع» فيما نقله الجزائري: «ومع هذا لا
يخرجون عن الوزن»، بتسكين العين.

وهذا خروج عن الأصل؛ لأنّ الأصل ضبط العين بالفتحة على اللغة
العليا، إلا أن يرد عن المؤلف دليل على إرادة اللغة الأخرى، بسكون العين،
أو أن يكون ثمة ضرورة مُحَوِّجة إلى ضبطها بالسكون. وليس في النص
شيء من ذلك.

ومن أخطاء الضبط المكرّرة ضبط الحرف الأخير من الاسم المنصوب
المعرب المنون صحيح اللام بالفتحة زيادة على ضبط ألف التنوين، نحو:
وزناً، نقلاً، مكفوفاً [ص ٥٦، ٦٢، ٦٧، ٧٥، ٧٨]. وهذا ضرب من الوهم
وراءه كلف زائد بضبط الحروف آخذ بالشيوع والانتشار عند المعاصرين،
ينبغي التنبيه عليه وإصلاحه.

وللطبع والتنضيد في النصّ نصيب من الأخطاء، منها تكرار آخر كلمة
في بعض الأسطر، في بعض المواضع، في صدر السطر التالي [ص ٥٥ -
٥٦، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٩٢].

الحواشي والتعليقات:

تُبدى لك حواشي المحقق وتعليقاته بعض ما خدم به المحقق في تحقيقه هذه الرسالة، من تعريف بما ينبغي تعريفه وبيانه من مصطلحات ومسائل عروضية، وتعريف بالأعلام، وتخريج ما ينبغي تخريجه من شواهد وأمثلة ونقول من مظانها ما أمكن، وتنبیه على بعض ما أفاده المؤلف من بعض مظانه دون نص أو إشارة، وشرح ما يحتاج إلى بيان معنى وتفسير من الشواهد والأمثلة، ولا سيما ما كان باللغة الفارسية واللغة التركية، وتفسير بعض ما أحدثه المحقق في النص من زيادة أو تغيير، والتعقيب على ما بدا له فيه شيء من كلام المؤلف.

وكل ذلك شواهد استحسان تدل على جهد المحقق، وتحث على تقدير صنعه. لكن الفحص والتأمل والمراجعة تدل على أن المحقق لم يبلغ الغاية في ذلك، وأن ذلك مما نفذ إليه هفوات، منها:

١- ترك بعض ما كان يحتاج في المتن إلى تعليق أو شرح وبيان هملاً دون ذلك.

٢- افتقار كلام المحقق في بعض الحواشي والتعليقات إلى الإحكام والدقة.

٣- وقوع شيء من الإخلال المنهجي في بعض المواضع، يبدو لك في التعريف ببعض ما عرّف به المؤلف أو بينه، وبالتعريف بالشيء متأخراً عن موضعه الأول، والتعريف بما له صلة بالشيء المراد تعريفه، لا بالشيء نفسه.

وهذه أمثلة دالة على ذلك:

- نص المؤلف [ص ٥٧] على أنه قلما يدخل في أبحر الفرس الشطر

والجزء والنهك.

وقد رأى المحقق أنّ التحقيق العلمي يدعو إلى التعريف بهذه المصطلحات العروضية التي لم يعرف بها المؤلف، فنهض إلى ذلك في ثلاث حواشٍ؛ لكنّ المتأمل يرى أنّ المحقق انحرف عن تعريف هذه المصطلحات إلى تعريف البحر المشطور، والبحر المجزوء، والبحر المنهوك. وهذا فيه تزكُّ الأولى. ولو عرف ذلك لعرف الشطر ثم ربطه بالبحر المشطور، وعرف الجزء ثم وصله بالبحر المجزوء، وهكذا....

- عَقَّبَ المحقق على ما نقله المؤلف [ص ٥٩-٦٠] من قول الزنجاني: إنّ بعض المغاربة بنى مشطوراً للبيط، وهو قوله:

أورد قلبي الرّدى لامٌ عذارٍ بدا
أسودٌ كالغيّ في أبيض مثل الهدا

فساق في الحاشية [حا ٢، ص ٥٩-٦٠] سباق هذين البيتين من قول الزنجاني، وهو: «ولم تستعمل العرب من البسيط مشطوراً، وأمّا قول الحرث [كذا] الليثي:

إنّ أخي حارثاً ليس أخاً واحداً

فيجوز حملة على المشطور، وهو الأجود على نصف البيت التام، وبنى بعض المغاربة له مشطوراً، فقال:.....». ثم قال معقّباً: «ويرد قول الزنجاني أنّه يصحّ أن يكون البيتان من مجزوء المنسرح (مستفعلن مفعولات × ٢)، ولكن جاءت كلّ (مستفعلن) فيهما مطوية على وزن (مستعلن = متفعلن)، وهذا كثير في المنسرح،... وطبيّ (مفعولات) كثير في المنسرح،...».

وهذا الردّ عند التحقيق لا يصحّ؛ لأنّ طبيّ (مفعولات) يُتبع (مفعولات) = فاعلات)، والتفعيلة الثانية في هذين البيتين جاءت على (فاعلن / / ٥ / ٥) لا (فاعلات). وهو ما يؤيد مجيء البيتين على مشطور البسيط.

ثمَّ إنَّ في سوق صدر قول الحارث الليثيِّ كما ساقه المحقِّق بلفظ: إنَّ أخي حارثاً - تحريفاً؛ لأنَّ ذلك الصدر ورد في نصِّ الزنجاني كما هو في كتابه بلفظ: إنَّ أخي هاشماً.

وإلى هذا وذاك غفل المحقِّق عن بيان معنى «لامُ عذار» فيما نُسبَ إلى بعض المغاربة، وهو ممَّا يحتاج إلى شرح وبيان. ولو لَحَظ ذلك لبَيَّن للقارئ أنَّ العِذار: جانب اللِّحية، واستواء شعر الغلام، وعذار الرجل: شعره النابت في موضع العذار؛ وأنَّ العذار الوارد في قول الشاعر هو الشعر النابت على جانب اللحية، وأنَّه كان على هيئة حرف اللام.

وكان ممَّا علَّق به المحقِّق على هذين البيتين حاشيةٌ عزا فيها البيتين، وخرَّجهما من مظانِّهما. وذكر فيها تعليقاً على البيت الثاني نقله من حاشية المخطوط كما قال: «فيه تشبيه محسوس بمعقول، وهو قليل». وكان ممَّا قاله فيها: «وقد وردت الهدى في متن المخطوط «الهدا» بالألف الممدودة، ليشير إلى خلاف فهمه لها، فمن معاني «الهدى» النهار، ولعلَّه أراد أن ينبِّه إلى هذا المعنى، فعدل إلى الرسم، بينما وردت في باقي المصادر بالمقصورة؛ إذ فُهِمَت بمعنى الرشاد، وهو ضدُّ الغيِّ».

هكذا قال المحقِّق! وهذا تعقيب لا يسلم للتحقيق، فيه ما فيه. ذلك أنَّ المقصود بـ «الهدا» في البيت الثاني من ذينك البيتين هو الرَّشادُ، وهو ضدُّ الغيِّ. وهو ما توكَّده التعليقُ الواردة في حاشية النصِّ المطبوع التي نقلها منه المحقِّق «فيه تشبيه محسوس بمعقول، وهو قليل». وكتابه «الهدا» بألف طويلة وراه فيما أرى تحقيقُ التوافق في الصورة في آخر البيتين لا غير.

ثمَّ إنَّ الألف في «الهدى» على هيئة الياء، أو في «الهدا»، وهي ألف طويلة، = أَلْف مقصورة، والكلمة مقصورة. والتعبير عن الألف في «الهدا» بالألف الممدودة ليس من اصطلاح القدماء.

- عرّف المحقّق [ص ٥٩] بعبد الوهّاب الزّنجانيّ تعريفاً سرّدياً فيه مؤلّفاته التي ذكر فيها «المضنون به على غير أهله»، مع شرحه لابن عبد الكافي،...». هكذا قال المحقّق. وعبارته توحى بأنّ كتاب (المضنون به على غير أهله) وشرحه كليهما لابن عبد الكافي، وأنّ الزّنجانيّ ليس له فيهما شيء. وهذا ثمرة انتزاع الكلام من سياقه المقيّد؛ لأنّ الزركليّ ذكر في أعلامه - وهو من مصادر المحقّق في تعريفه بالزّنجانيّ في هذه الحاشية - أنّ كتاب الزّنجانيّ (المضنون به على غير أهله) مطبوع مع شرحه لابن عبد الكافي. وهو كلام واضح بيّن لا لبس فيه، يميّز كتاب الزّنجانيّ من كتاب ابن عبد الكافي؛ لكنّ المحقّق أهمل ذلك السياق المبين المقيّد الذي حدّد العلاقة بين كتاب الزّنجانيّ وشرحه، فكان في كلامه تخليطٌ دالٌّ في جانب منه على خلاف الواقع.

- ذكر المؤلّف [ص ٦٢] فقرة نقلها ممّا نقله والده من كتاب صالح الأندلسيّ الرنديّ (الوافي في نظم القوافي)، تناول فيها أنواع الشعر (الأبحر) القديمة والمحدثة، عنون لها بـ«الفائدة الثانية»، دون أن يكون فيما سبق فقرة أخرى معنونة بـ«فائدة أولى». وهو ما عبّ عليه المحقّق بحاشية قال فيها: «ولكن أين الفائدة الأولى؟ لعلّها الفقرة الأولى التي تبدأ بعد «مقدمة»».

قلت: الصحيح أنّ الفائدة الأولى ليست الفقرة التي تبدأ بعد كلمة «مقدمة»؛ لأنّ تلك الفقرة هي المقدّمة، وكيف تكون المقدّمة كذلك؟! بل هي الفقرة التي نقل فيها المؤلّف [ص ٦٠-٦١] ما نقل من كتاب الزّنجانيّ (معيّار النّظار)، وعنونها بكلمة «تنبيه».

- عرّف المحقّق [ص ٦٢] في الحواشي ببعض ما عرّف في المتن من الأبحر المحدثة كالوسيط والوسيم والمعتمد التي عرّفت [ص ٦٣-٦٥] بيان تفعيلاتها العروضية، وصلاتها بالأبحر القديمة، مع التمثيل المناسب؛

وعرّف في [ص ١٠٣ ح ١] المستزاد الذي عرّفه المؤلّف في المتن، وبين نوعه بيان ظنّ وتخمين، ومثّل له بمثال من قوله. وبذلك كان في صنيعة المحقّق شيء من تكرار.

- مثل المؤلّف [ص ٦٩] للمسدّس من أنواع الهزج في الدائرة الفارسيّة بيت فيه كما نصّ جناس مركّب. وقد عرّف المحقّق بمصطلح «الجناس المركّب». وهذا حسن، به قام المحقّق ببعض ما يجب؛ لكنّه ترك ما ينبغي من تبين ذلك الجناس في المثال الفارسيّ الذي ساقه المؤلّف تبيناً واضحاً، يدلّ القارئ على ما لا يمكن الاهتداء إليه إلا إذا كان عارفاً باللغة الفارسيّة.

- عرّف المحقّق [ص ٨٣] بالجامي (٨١٧-٨٩٨هـ) الذي مسّ سنة ولادته في حاشية التحقيق خطأ طباعيّ، فكانت (٧١٨)، وقال في ذلك التعريف: «عبد الرحمن بن أحمد الجامي، نور الدين، مفسّر،... له ديوان...، وشرح الكافية لابن الحاجب سمّاه «الدّرر الضيائية»،...». وفي هذا التعريف أمران:

١- الاقتصارُ في تعريف الجامي على أنّه «مفسّر»، متابعة للزركلي في أعلامه، مُخلٌّ؛ لأنّ الجامي، إلى ذلك، متصوّف وأديب وشاعر وعالم بالنحو، بل هو في بعض ذلك كالأدب والشعر أعرف وأشهر ممّا كان عليه في باب التفسير.

٢- اسم شرح الجامي لكافية ابن الحاجب هو «الفوائد الضيائية»، وعلى ذلك نصّ الجامي نفسه في مقدمة الشرح، وهو مطبوع معروف. وما ورد في حاشية المحقّق من أنّه سمّاه «الدّرر الضيائية» غير معروف. وربّما كان ذلك ثمرة ترجمة حرفيّة من اللغة الفارسيّة، دون مراعاة واقع الحال. ويرجّح ذلك أنّ أحد مصدري المحقّق اللذين صرّح بهما في هذا التعريف كتابُ (فرهنك فارسي).

- عرّف المحقق [ص ٨٤] المصراع، وهو الشطر من بيت الشعر، لورود هذا المصطلح في كلام المؤلف دون أن يعرفه.

وهذا عند النظر والتأمل إخلال بما يقتضيه المنهج من تعريف الشيء حيث يرد أول مرة، وقد ورد قبل ذلك غير مرة بصيغة الجمع «مصاريح» [ص ٨٠، ٨٢]، فحقه لذلك أن يعرف في الموضوع الأول.

- ذكر المؤلف في الكلام على «المواليا» [ص ٨٦-٨٧]: أن متعلميه من العبيد المتسلمين للعمارة والغلمان صاروا يُعْتَنُون به في رؤوس النخل وعلى سقي المياه، ويقولون في آخر كل صوت: «يا مواليا» إشارة إلى ساداتهم، فسُمِّي بهذا الاسم.

وقد ورد في ذلك كلمة «صوت»، ولم ينتبه إليها المحقق. وكان من الواجب أن يقف عندها، ويبيّن المقصود منها. والظاهر أن المقصود هنا الضرب من الغناء، فإنّ كلّ ضرب من الغناء صوت^(٥).

- مثل المؤلف للمواليا [ص ٨٧] بيتين من نظمه، قامت أو آخر أشطرهما على إهمال الإعراب: السكون، وهما:

يا من غدا وصلّهم لي أعظم الأوطار قلبي بقي عندكم يوم النوى أو طار
لا والذي صيّر الإنسان ذا أطوار ما أبصرت مقلتي مُدْ غبتم أنوار
ثم قال: «وكثيراً ما يجعلونه ملحوناً، واللحن فيه حسن».

وقد علّق المحقق على ذلك بقوله: «وجه اللحن عندهم أن كلمة «أطوار» يجب أن تكون «أطوار»؛ لأنها مضاف إليه».

قلت: تعليق المحقق يفتقر إلى الاستيعاب والإحكام؛ فقد كان ينبغي أن

(٥) تاج العروس، الزبيدي، تح عبد العليم الطحاوي، ط ٢، ١٩٨٧، مطبعة حكومة الكويت، (صوت) ٦٠٠/٤.

يبيّن المراد بـ«اللحن» في «المواليا» عامّة، ثمّ يبيّن موضع ذلك في المثال ووجهه. والمقصود من اللحن هنا الإخلال بقواعد العربيّة، ولاسيّما في إهمال الإعراب، أي حركة أو آخر الكلم. ثمّ إنّ اللحن في مواليا طاهر الجزائريّ كان في آخر كلّ شطر من أشطره الأربعة، ولم يقتصر على ما ذكره المحقّق، أي على كلمة «أطوار» في الشطر الثالث.

- كان ممّا نقله المؤلّف [ص ٩١-٩٢] مصرّحاً من كتاب (سبحة المرجان) شاهداً على فرع من بحر السريع في العربيّة يكون على (مفاعلن مفتعلن فعُعلن) - قولُ الشاعر:

أَجَلٌ لِعَمْرِي صَدَقَ الْقَائِلُ إِنَّكَ حَقٌّ وَهُمُ الْبَاطِلُ

الذي عُزِيَ في الأصل كما عُزِيَ في (سبحة المرجان) إلى ابن مجير البغدادي، الذي عُرِّفَ به ثمةً بأنّه «من شعراء الدمية»، وقد أردف المؤلّف كلمة «الدمية» بعبارة «اسم تاريخ»، وهي مفسّرة شارحة، كأنّه يشير بها إلى موضوع هذا الكتاب.

وقد علّق المحقّق على ذلك بقوله: «ورد في متن المخطوط «ابن مُجير البغدادي» والظاهر أن الشيخ طاهراً الجزائريّ قد نقل الاسم عن سبحة المرجان، ولم يرجع إلى دمية القصر للباخرزي مع أنّه وضّح معنى «الدمية»، فأشار بين معترضتين أنّه (اسم تاريخ)، والصواب أنّه «ابن نحير البغدادي»، وقد ترجم له الباخري، ومما قاله: «شيخُ نسر لقمان عنده فُريخ، وقد حُجِبَ بصره وكُفِّ،... تقطر من لسانه البذاءة...». وقد ذهب محقّق دمية القصر إلى أنّه ابنُ بحر بن البغداديّ....».

وإذا كان في كلام المحقّق تحقيق جيّد، دفع به التحريف الذي أصاب اسم الشاعر في النسخة المطبوعة، وفي (سبحة المرجان)؛ فإنّ فيه ما لا يسلم به، ممّا ينبغي التنبيه عليه وإقامته على وجهه:

١- السكوت عن إشارة المؤلف إلى موضوع كتاب (الدمية): «وهو اسم تاريخ»، وقد عبّر عنه المحقق في الحاشية بتوضيح معنى الدمية!، وهو سكوت دالٌّ على رضى وقبول - خلاف الواجب؛ لأن (دمية القصر) ليس كتاباً في التاريخ، بل هو كتاب أدب وطبقات، كان ذيلًا لكتاب (يتممة الدهر)، وعُني بتراجم الشعراء والأدباء في عصره.

٢- تعريف المحقق بابن نحرير البغداديّ لم يبلغ حدّ الكفاية؛ فليس فيه ما يدلّ على اسمه، أو على زمانه الذي كان فيه، أو على مكانته في الشعر والأدب، وهذا من أهمّ ما ينبغي أن يكون في ترجمته والتعريف به. فكأنّ المحقق استغنى عن البحث والنظر بما قاله الباخري في ابن نحرير في عبارة إنشائيّة مكتظة بالمبالغة ليس فيها كبير غناء. ولو أجاب المحقق القارئ إلى طلبته لعرف أنّ الشاعر هو محمّد بن مظفر بن عبد الله بن مظفر بن نحرير، أبو الحسين البغداديّ الخرقّي، شاعر مشهور نديم، صاحب نثر ومعان بديعة وغزل عذب ومدح وهجاء. وقول الذهبيّ فيه: لا يكاد يوجد ديوانه - ربّما دلّ على أنّ له ديواناً مفقوداً. كانت ولادته سنة ٣٧٧هـ، ووفاته سنة ٤٥٥هـ^(٦).

التهديد:

مهّد المحقق للرسالة التي حقّقها بتمهيد يضارع الدراسة، ذكر في أوّله ذكراً عامّاً دخول طريقة الخليل بن أحمد الفراهيدي في تحليل الأوزان العروضية في الفارسية، وامتداد تلك الأوزان التي ابتكرها الخليل إلى اللغات الفارسية والهندية والتركيّة، ثمّ ذكر شيئاً من تاريخ التأليف في

(٦) انظر في ترجمته وشعره: تاريخ الإسلام، الذهبي، تح د. عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١، ١٩٩٤، ٣٠/٣٨٨-٣٩٠، ٣٥/٧٥؛ والوفائي بالوفيات، الصفدي، تح أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ٢٠٠٠، ٥/٢٥-٢٧.

عروض الفرس، مع بيان بعض ما أُلّف فيه قديماً، وبيان بعض ما كان من خلاف في صلة عروض الفرس بعروض العرب؛ ثم انتقل إلى عرض مادة الرسالة عرضاً موجزاً كان يغذوه أحياناً بشيء من آراء المحدثين التي تضيء بعض ما كان في الرسالة أو تؤيِّده، كما يبدو ذلك للمحقّق أو يقدره تقديراً. ثم قفى المحقّق ذلك ببيان البحور الفارسيّة. حتّى إذا انتهى من ذلك انتقل إلى الكلام على المؤلّف الشيخ طاهر الجزائريّ: أصله ونشأته، وعلمه وعمله، وأخلاقه وعاداته، وغريب عاداته، وتأليفه وتحقيقاته.

وهذا التمهيد، على ما فيه من فوائد وإضاءات جيدة، لم يسلم من الملاحظات. ومن ذلك:

١ - مخالفة المنهج المعروف في سياقة بعض ما كان فيه، من تقديم الكلام على المؤلّف ومؤلفاته على الكلام على النصّ المحقّق، وبيان ما فيه؛ إذ خرم المحقّق ذلك حين قدّم الكلام على الرسالة التي حقّقها.

٢ - خلوّ كلام الباحث على الرسالة من تناول بعض ما ينبغي تناوله كالمصادر والمنهج. بل كان على الباحث قبل ذلك أن ينبّه على ما كان في عنوان الرسالة بين الغلاف الخارجيّ الذي ضمّ عنواين الرسالتين (تمهيد العروض إلى فنّ العروض) و(إتمام الأُنس في عروض الفرس) معاً، وبين صدر الرسالة الذي كان فيه (إتمام الأُنس بعروض الفرس)؛ من اختلاف يسير. فهل كان وراء تغيير العنوان في الغلاف هوّى من الطابع، أو حاجة طباعيّة؟

٣ - افتقار الكلام على طاهر الجزائريّ ومؤلفاته إلى الاستيعاب والإحكام. ومن الأمثلة الدالّة على ذلك:

- خلوّ التعريف بالمؤلّف طاهر الجزائريّ من بيان اختياره عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق. والإشارة إلى ذلك حسن. وإشارة الكلمة

التي وقعت تحت الصورة الشخصية [ص ٤٩] «صورة الشيخ طاهر في مكتب أمين مجمع اللغة العربية بدمشق» = لا تغني عن ذلك. على أن تلك الصورة خلت ممّا يدلّ على كون الشيخ طاهر الجزائريّ في مكتب أمين المجمع، أو يشير إليه!

- عدم اطّراد كلام الباحث على مؤلّفات الجزائريّ في بيان حالها من حيث الموضوع، أو من حيث كانت مطبوعة أو مخطوطة أو مفقودة.

- خلوّ الكلام على مؤلّفات الجزائريّ من بعض تلك المؤلّفات. ومنها: رسالة (حديقة الأذهان في حقيقة البيان) التي حقّقها أ. عدنان عمر الخطيب، وصدرت عن مجمع اللغة العربية بدمشق عام ٢٠٠٩. ورسالة (تقريب المجاز إلى مسائل المجاز) التي نشرها محقّقة أ. عدنان عمر الخطيب في مجلة التراث العربي بدمشق، ع ١٠٨، ٢٠٠٧. وكتاب (تثقيف سمر الخطّ) الذي نصّ عليه المؤلّف في رسالة (إتمام الأنس في عروض الفرس)، وخلت من ذكره مظانّ ترجمة المؤلّف. وذكر الباحث لهذا الكتاب في موضع بيان مادّة الرسالة [ص ١٦] لا يغني عن سرده في موضعه المناسب من التمهيد.

٤- وقوع بعض ما لا يحسن الاطمئنان إليه في هذه الدراسة من آراء وأحكام لا تثبت للنقد، استنتجها المحقّق ممّا في الرسالة وانتهى إليها عن غير تلبّث وتدبّر واستيعاب.

وهذه أمثلة بدت لي من ذلك:

- ذكر المحقّق في التمهيد [ص ٨-٩] شيئاً من اختلاف الرأي فيما كان عليه عروض الفرس من تأثّر بعروض العرب، ما بين مُقَرَّرٍ بذلك يرى كبير تأثّر عروض الفرس منذ النشأة الأولى بعروض العرب، ومحاكاة أوزانهم، وأخذ مصطلحاتهم، وهو ما يكاد يكون إجماعاً، لم ينكره كما نقل الباحث

ثمّة إلا البيروني في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة)؛ - وبين منكرٍ يطعن في نسبة علم العروض إلى الخليل بن أحمد، ويرى أنّ العرب اقتبسوا هذا العلم من الأقوام الآرية، ثمّ نظموا عليه مبادئ عروضهم، وأنّ عروض العرب ليست التي راجت في بلاد الفرس، وأنّ المصطلحات التي استخدمها الفرس في ذلك عربيّة في ألفاظها، لا في أصولها، معتدّاً في ذلك بأنّ البيروني يتبنّاه.

وقد تخذ المحقّق ذلك رابطاً يصله بالكلام على رسالة طاهر الجزائري، إذ رآه دافعاً له إلى تأليفها، فقال [ص ٩]: «وقد دفعت الالتباسات التي أثيرت حول هذه المسألة بالشيخ طاهر الجزائري لتأليف هذه الرسالة التي تكشف اللبس عن عروض الفرس».

وهذا عند التحقيق لا يصحّ؛ فليس في الرسالة ما يدلّ على ذلك نصّاً أو إشارة، والمؤلف لم يتطرّق إلى شيء له صلة بهذه القضية. على أنّ الشواهد الدالة على علاقة التأثير بين العروضيين في هذه الرسالة ظاهرة تشهد برأي المؤلف وتؤيّد.

وإلى ذلك كان من الواجب التحقّق ممّا نسب إلى البيروني. ولو نهض المحقّق لذلك لعرف أنّ البيروني عُنِيَ في كتابه بعروض الهند التي حاول أن يبيّنها ويوضّحها في ضوء عروض العرب، ولم يتطرّق إلى علاقة عروض الفرس بعروض العرب البتّة في نصّ أو إشارة، وأنّه أشار إلى احتمال إفادة الخليل بن أحمد من عروض الهند، إذ قال^(٧): «وإنّما طوّلتُ في الحكاية، وإنّ نزلت عائدتها ليشاهد اجتماع الخفاف،...، وليُعرف أنّ الخليل بن

(٧) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، البيروني، دائرة المعارف العثمانية - حيدرآباد الدكن - الهند، ١٩٥٨، ١١٥.

أحمد كان موفقاً في الاقتضابات، وإن كان ممكناً أن يكون سمع أن للهند موازين في الأشعار كما ظنَّ به بعضُ الناس».

وهذا النصُّ من كلام البيرونيِّ دالٌّ على أنه قدَّرَ تقديراً إمكانَ اطلاع الخليل بن أحمد على عروض الهند، وإفادته منها، دون أن يبلغ في ذلك الرأي أو التقدير حدَّ القطع واليقين. ومما يؤيِّد ذلك من كلام البيروني وسُمُّ الرأي الذي عزاه إلى «بعض الناس» بالظنِّ. ومن ثمَّ يجب أن يُذكر رأيه في سياقه، مقيّداً بدرجة الاحتمال، وألا يُحمَّلَ ما لا يدلُّ عليه، ولا يقتضيه كلامه.

- نصَّ المحقِّق في أثناء عرض مادة الرسالة [ص ١٥] على أن المؤلف ردَّ بحري الفريد والعميد إلى الهزج.

وهذا عند التحقيق قول من تابع النصَّ على ما شابهه، ولم يتأمَّلِ الكلام ولم يُقِّمه على وجهه. ذلك أن المؤلف نصَّ [ص ٧٩] على أن «الفريد» نوع من الهزج عند الفرس، ومثَّل له، وقطَّع المثال تقطيعاً عروضياً يوافق ذلك ويناسبه؛ ثمَّ أردفه بـ«العميد»، فقال: «وكذلك «العميد»، وقد جعلوا وزنه (مستفعلاتن مستفعلاتن فعَلن)، ومثاله:

يا قوم. أنا الصَّبُّ الـ. معنَى وحـ. لدي ما عند. كم من الـ. هوى ما عند. لدي مفعول. مفاعيلن. مفاعيلن. فَع مفعول. مفاعيلن. مفاعيلن. فَع

وهذا الكلام بسياقه، وتقطيع البيت المثال كما ورد في الأصل = دالٌّ على أن «العميد» من الهزج. لكنَّ التأمل والتحقيق ينفيان هذا من وجهين:

١- كيف يكون «العميد» من الهزج، وقد نصَّ المؤلف على أن وزنه (مستفعلاتن مستفعلاتن فعَلن)، وهو وزن منبُت الصلة بالهزج؟!.

٢- تقطيع المثال الذي ساقه المؤلف للعميد على وجهه الصحيح كما ذكرت آنفاً، لا على ما كان عليه من خطأ في الأصل تابعه عليه المحقِّق، يؤكِّد صلته بالوزن الذي نصَّ عليه المؤلف، ويقطع صلته بالهزج.

- نسب المحقق في الكلام على موضوع الرسالة [ص ١٦] إلى المؤلف طاهر الجزائريّ أنّه «تحدّث عن ابتداء الهند للمثنويّ، وأتباع المتقدّمين من العرب لها في ذلك، قاصرين استخدامهم له على الرجز فحسب». وهذا الكلام لا يُسلم به من وجهيه:

١ - لم يذكر المؤلف نصّاً أو إشارة أنّ المثنويّ ابتداء هنديّ؛ بل لم يذكر هو نفسه شيئاً عن المثنويّ في عروض الهند، لكنّه نقل [ص ٩٢] كلاماً لآزاد في (سُبحة المرجان) جاء فيه: «وهذا الفرع من السريع جاء في الهنديّة أيضاً، ويسمونه «جوبائي» وينظمون المثنويّ في هذا الوزن».

وهذا النصّ يدلّ على أنّ المثنويّ في الهند يُنظم على فرع من بحر السريع معيّن، يسمونه «جوبائي»؛ ولا يدلّ، ولو إشارة، على أنّه ابتداء هنديّ.

٢ - تعقيب المؤلف الذي نصّ فيه على استعمال «المتقدّمين»، وهو يعني العرب المتقدّمين، للمثنويّ؛ واقتصارهم على بحر الرجز فيه فيما عثر عليه - لا يدلّ على أتباع المتقدّمين من العرب لأهل الهند، وتقليدهم فيه. وربّما كان وراء هذا التعقيب نفْي ما قد يُتوهّم من كلام آزاد من ابتداء أهل الهند للمثنويّ، والتنبيه على قدم استعمال المثنويّ عند العرب تنبيهاً يقطع صلة أتباع أهل الهند في ذلك.

- نصّ المحقق في آخر عرض مادّة الرسالة [ص ١٧]، مشيراً إلى شيء من منهج المؤلف، على أنّ «قد ذيلت الأمثلة كلّ جزئية أتى عليها من مبتدأ الرسالة إلى متنهاها».

وهذا إطلاق لا يصحّ، والصحيح أنّه غالب أو أغلبيّ. وقد نبّهت قبلاً على شيء ممّا خالف فيه المؤلف ذلك.

الفهارس:

ومما خدم به المحقق هذه الرسالة فهرسة ما قدر الحاجة إلى فهرسته من مادتها من شواهد وأمثلة شعرية ومصطلحات عروضية وأعلام. بيد أنه لم يُوف على الغاية في ذلك. ومن الأمثلة الدالة على ذلك:

١- الغفلة عن فهرسة مصطلح «المصراع» الوارد مفرداً أو جمعاً في غير موضع من الرسالة.

٢- سرد مصطلح «المستزاد» في فهرس المصطلحات ما بين مصطلحي «المسدس»، و«المسدس الأخرى». وحقه أن يكون قبلهما معاً.

٣- عدم استيعاب مواضع ورود بعض ما فهرس، كمصطلحي الضرب والعروض اللذين فات المحقق أن يذكر أحد مواضع ورودهما (ص ٨٤)؛ واسم الشاعر البهاء زهير الذي غفل المحقق عن موضع وروده الثاني في الرسالة (ص ٨٦).

وآخر ما ينبغي التنبيه عليه أشياء من الخطأ اللغوي والنحوي تسللت إلى لغة المحقق، في ضبط النصّ والحواشي والتعليقات والدراسة، أحصيت أمثلتها في أزيد من عشرين موضعاً. ولا شكّ عندي في أنّ بعض ذلك من جور التطبيع وعدواه.

وهذه الإشارة تكفيني الاستدلال والتمثيل، اللذين انصرفت عنهما خشية الطول والإملال، بعد ما امتدّ الكلام وطال. على أنّ ذلك كلّه، وما كان مثله ممّا نبّهت عليه، لا يمحق في رأيي ما بدا في تحقيق المحقق من أمارات الإحسان والجودة. وربما كان عذره في بعض ذلك، قليل أو كثير، أنّها تجربته الأولى في هذا الباب.

المصادر والمراجع

- إتمام الأنايس في عروض الفرس، طاهر الجزائري، تح. محمد نعيم الميداني، مكتبة دار الدقاق - دمشق، ٢٠١٦ م.
- إتمام الأنايس في عروض الفرس، طاهر الجزائري، ملحقة برسالة تمهيد العروض إلى فنّ العروض، مطبعة ولاية سورية - دمشق، ١٣٠٤ هـ - ١٨٨٦ م.
- تاج العروس، الزبيدي، ج ٤، تح. عبد العليم الطحاوي، مطبعة حكومة الكويت، ط ٢، ١٩٨٧ م.
- تاريخ الإسلام، الذهبي، تح. د. عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١، ١٩٩٤ م.
- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، البيروني، دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن - الهند، ١٩٥٨ م.
- الوافي بالوفيات، الصفدي، تح. أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ٢٠٠٠ م.

* * *

شواهد الشواهد

نمط عالٍ من الشعر الوجداني

دراسة في ما نظمه الشعراء لينقش على شواهد قبورهم

الأستاذ الدكتور محمد رضوان الداية(*)

(١)

في دواوين بعض الشعراء، وفي كتب التاريخ والتراجم التي ترجمت لهم أو عرضت لشيء من أحوالهم قطعاً من الشعر: تقل القطعة فتكون بيتاً واحداً أو بيتين، وتطول - على قلة - فتصل إلى خمسة عشر بيتاً، وهي قطع أو نتف وقصائد ينظمها أحدهم ويوصي بأن تُكتب أو تُنقش على قبره بعد وفاته، وتتردد قبل النص الشعري عبارة: «قال وأوصى بأن يُكتب على قبره»، أو عبارات مشابهة أو مقاربة.

لفتت هذه النصوص انتباه بعض المؤرخين فأوردوها في تراجم أولئك الشعراء والناظمين^(١)، ولم يزد الاهتمام بها على هذا. وقد لفتت نظري فجمعت - على الزمن المتطاوّل - هذه النصوص التي وقعت لي، أو أمنت في البحث عنها، وهي صالحة لإقامة دراسة طريفة حولها، فهي ظاهرة أدبية لنمطٍ راقٍ من

(*) عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق.

ورد البحث إلى مجلة المجمع بتاريخ ٣٠/٥/٢٠١٨ م.

(١) سأورد في حواشي البحث تراجم قصيرة، فأكثر أسماء شعراء شواهد الشواهد غير متداولة، والمقصود التعريف السريع والإشارة إلى المكان والزمان.

الشعر الوجداني، ومنزَعٌ غريبٌ من الكلام المتقن المعروف في قالبٍ فني. وفي طيّ هذه الظاهرة الأدبية عدد من الجوانب التي تظهر للقارئ المطالع: فمن ذلك الجانب الاجتماعي؛ فإن النص خطاب مفتوح للناس من حول الشاعر في زمانه، وهو يبقى بعد زمانه ما دام شاهد قبره قائماً. ومنه الجانب الوجداني، فالقطعة المنظومة لتُكتب على القبر تعبّر عن لحظة فُكر فيها الناظم لها في الموت، لمناسبات مختلفة تفكيراً أدّى به إلى تسجيل ما خطر له في تلك اللحظة، وإن كانت قضية الحياة والموت في بال الإنسان ماثلةً - عادةً - أو قابلة للحضور في كلّ حين.

ومنه الجانب الاعتقادي الإيماني، فإنّ الناظم يعبّر في نصّه القصير عادة عن أمر أو أمور موصولة بالمآل والمعاد، ونفاد سنوات العمر، وما شابه ذلك. ومنه الجانب النفسي، فهي نصوص تصدر عن خصوصية الناظم وعن ذاتيته، وجوانب داخلية من تركيبه وسائر أحواله.

إنها نصوصٌ ذات خصوصية، منظومة من شعراء سجلوا خطرات لهم أو رؤى، أو أفكاراً، أو ألواناً من البوح؛ وعرضوها على الناس محفورة على الحجر، لتخلد مع خلود القبر نفسه.

وأضرب مثلاً من قطعة لابن مُغاور الشاطبي الأندلسي، فقد قال ابن الأبار في كتاب (التكملة)^(٢): «نقلت من خطّه وأنشدني أبو الربيع بن سالم غير مرّة قال: أنشدني (ابن مغاور) لنفسه على باب داره، وأنشدني أيضاً أبو عامر بن نذير عنه، وكتب به إليه، وأمر أن يُخطّ على قبره:

(٢) التكملة لابن الأبار: ٥٧٨، والنص في كتاب ابن مغاور المسمّى: نور الكمام. وابن مغاور هو: أبو بكر عبد الرحمن بن محمد بن مُغاور السُّلَمي، (من شاطبة بالأندلس) (٥٠٢-٥٨٧هـ)، أديب كاتب فقيه شاعر، له كتاب: نور الكمام وسجع الحمائم (ط). (التكملة لابن الأبار: ٥٧٨ والمغرب ٢: ٣٨٥ والمطرب: ٨٠).

أيها الواقف اعتباراً بقبري استمع في قول عظمي الرميم
 أودعوني بطن الضريح، وخافوا من ذنوب كلومها بأديمي
 قلت: لا تجزعوا عليّ فإني حسن الظنّ بالرؤوف الرحيم
 واتركوني بما اكتسبتُ رهيناً غلق الرهن^(٣) عند مولى كريم

وشاهد القبر في العادة حجر مهياً خصيصي، متطاول يُنصب على رأس
 أحجار القبر أو لبناته، وما شابه، وعليه كان يُكتب (يُنقش) آيات أو أدعية،
 واسم المتوفى، وسنة وفاته. وقد يضاف إلى ذلك معلومات أخرى، أو
 أبيات من الشعر المناسب تختار من الشعر الشائع، أو ينظمها أحدهم لذلك
 المتوفى خاصة. وبعد شيوع التأريخ الشعري بحساب الجمل، انتقل ذلك
 إلى شواهد القبور لإثبات تاريخ الوفاة، وفي هذا البحث مثال لذلك في آخر
 القطعة التي نظمها عائشة التيمورية^(٤).

واستعمل المؤرخون عدداً من المفردات والعبارات الدالة على معنى
 الشاهد، شاهد القبر، فقد استعمل صاحب بن عباد في قطعة له في ذم
 الأديب المشهور الخوارزمي، وقد بلغه وفاته^(٥):

فقلت اكتبوا بالجصّ من فوق قبره: «ألا لعن الرحمن من كفر النعم»
 وكان الرجال متخاصمين. فذكر «الجصّ»، وقالوا في الفعل: جصّ القبر.
 - وأوردوا كلمة: (الحجر)، وفي هذا البحث خبر عن وهب بن منبه
 فيه: «أصبّت على قبر إبراهيم الخليل مكتوباً خلفه على حجر...»
 وقد تُورد الكلمة بصيغة الجمع، فقد أورد ابن العديم في ترجمة ابن

(٣) غلق الرهن: عجز صاحبه عن فكاهه فصار ملكاً للمرتهن.

(٤) وصارت كتابة قطع من الشعر (يكون في آخرها تاريخ الوفاة بحساب الجمل) صنعةً
 يمارسها بعض الشعراء والشيوخ وغيرهم.

(٥) نزهة الألبا: ٣٢٦.

منير الطرابلسي، وقال: إن الشاعر نظم بيتين في مرض وفاته، وأوصى أن يكتب على قبره، «فنقشاً على أحجار قبره»^(٦)، وهما:

من زار قبري فليكن موقناً أن الذي ألقاه يلقاه
فيرحم الله امرأً زارني وقال لي: «يرحمك الله»

- وكلمة (الصندوق)، وفي وفيات الأعيان^(٧)، في خبر لابن خلكان: «... فقرأت على صندوق قبره بعد تاريخ وفاته».

- وكلمة (اللوحة)، وفي وفيات الأعيان^(٨) في ترجمة الزمخشري أنه «أمر أن يكتب على لوح قبره»؛ فاللوحة هنا الحجر وقد أورد الحميري في (الروض المعطار) كلمة اللوحة المذهب في خبر عادي: «وإذا بلوحة من ذهب مكتوب فيه...»، وكان ذلك في مقصورة في قصر من آثار الغابرين.

- والصفحة، وقد وردت في شعر لابن حزم له مناسبة في الطوق^(٩):

كذلك مَنْ في اللحد عنك مغيبٌ وما دونه إلا الصفح المنصبُ
- والجندل، ونقرأ في شعر توبة بن الحمير:

ولو أنّ ليلي الأخيلىة سلّمت عليّ ودوني جندلٌ وصفائحُ
لسلّمتُ تسليم البشاشة... الخ^(١٠).

- والمشهد: قال النباهي في خبر الحاجب المنصور^(١١): «وعلى مشهده مكتوب». وقال المقرئ في الموقف نفسه: «قال: وأوصى أن يكتب على قبره».

(٦) بغية الطلب في تاريخ حلب ٣: ١١٦٣.

(٧) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧: ٢٠٦.

(٨) وفيات الأعيان ٧: ١٧٣.

(٩) طوق الحمامة في الألفه والألاف (بتحقيق د. عباس): ٢١٦.

(١٠) في ترجمته في: الأغاني ١١: ٢٠٣.

(١١) المرقبة العليا: ٨٢.

- والشاهد: في مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق كتاب: «شواهد القبور: مقبرة باب الصغير...»، وطبع في مصر كتاب: «شواهد قبور إسلامية من جبانة صعدة باليمن».

- وأورد المعجم العربي الأساسي كلمة «التَّصْب» للدلالة على شاهد القبر. وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال في مرضه الذي مات فيه: «ألحدوني لحداً، وانصبوا عليّ اللبن نصباً، كما صنَّع برسول الله ﷺ»^(١٢).
- الرَّخامة: في ترجمة عبد الله بن فلاح المغربي^(١٣) أنه «نظم قطعة وكتبها في رُخامة لتوضع عند رأسه في قبره».

وقد يشار إلى القبر بذكر التراب، والتربة، والرمل وما شابه ذلك مما يدل على المقصود. ومنه قول أبي الطيب^(١٤):

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يُضني كذاك الذي يبلي
- وكنى شوقي^(١٥) عن حجارة القبر وشاهده وجملته بـ (الجدار)، وهو يرثي يوسف العظمة ويذكر مآثرة جهاده واستشهاده:

سأذكر ما حيت جدار قبرٍ بظاهر جَلِّقِ ركب الرِّمالا

(٢)

كثر هذا النوع من الشعر (ما ينظمه الشعراء ليكتب على قبورهم) في

(١٢) صحيح مسلم، كتاب الجنائز: باب في اللحد ونصب اللبن.

(١٣) ترجم له ابن رشيق في: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، وقال عنه: إنه كان متصدراً للقرآن الكريم تحقيقاً ودرساً وتفسيراً، وكان مليح الشعر: ١٩٦-١٩٧.

(١٤) ديوان أبي الطيب (عزام): ٢٦٩. والقصيدة في رثاء أبي الهيجاء عبد الله بن علي سيف الدولة الحمداني.

(١٥) ديوان شوقي (الحوفي) ١: ٣٦٤ من قصيدة في ذكرى استقلال سورية وذكرى شهدائها، والبيت (من مقطع في القصيدة) تحية ليوسف العظمة وإشادة به، وبجهاده واستشهاده.

التراث الأندلسي، ولكنه شمل المشرق والمغرب، واتصل في الزمان من القرن الثاني إلى العصر الحديث.

والناظمون مختلفو المشارب: فيهم الشاعر الكبير مثل أبي العتاهية وأبي نواس والمعري، وشوقي، وابن خفاجة، وفيهم الفقيه الأديب مثل الزمخشري، وابن مغاور الشاطبي الأندلسي، وفيهم الطبيب الأديب مثل أبي بكر بن زهر الإشبيلي، وفيهم السياسي المشارك مثل الحاجب المنصور: (محمد بن أبي عامر) الأندلسي، وفخري البارودي... وسواهم والنصوص الباقية مقصورةً على النظم، ولكن ابن شهيد كتب نصاً ثرياً قصيراً، وقطعة من الشعر، وصنع مثله ابن الموقع، فجمعا النثر إلى الشعر في الوصية.

وناظمو هذه النصوص من الرجال، غير نص واحد نظمته السيدة عائشة التيمورية. والقِطْعُ والقصائد المنظومة من الشعر العربي المعروف، غير نص واحد لابن الموقع، فهو من نوع: (الدو بيت)، وكان شائعاً في زمانه. وقد وردت أخبار قليلة عن تحقيق رغبة الناظم في وصيته، ويبدو أنها حققت، فإنها لا تشق على أهل المتوفى والقائمين على ترتيب قبره، فابن شهيد لم تُحَقِّق رغبته، ولم يُنْقَش ما كتبه ونظمه لشاهد قبره ولم يكتب^(١٦) أو ينقش. وسجل بعض المؤرخين مشاهداته لبعض ما أوصى بعض الشعراء بنقشه على شواهد قبورهم، ومن ذلك ما ذكره ابن خلكان في ترجمة ابن منير الطرابلسي، قال: «وزرت قبره، ورأيت على قبره مكتوباً^(١٧)»:

(١٦) في ترجمته في الذخيرة لابن بسام ١: ١٩١.

(١٧) أبو الحسين أحمد بن منير الطرابلسي الرقّاء (٤٧٣-٥٤٨) كاتب شاعر، قال د. فروخ في تاريخ الأدب العربي (٣: ٢٩٣): شاعر مكثّر على شيء من الإجادة مع تكلف الصنعة، وفي بعض شعره سخف وإقذاع. الخريدة الشام ١: ٢٧-٩٥، وفيات الأعيان ١: ٨٦-٨٩.

من زار قبري..... البيتان».

وفي طبقات ابن المعتز^(١٨): قال صدقة البكري: رأيتُ على قبر أبي الهندي هذه الأبيات (وهي ثلاثة) أولها:

اجعلوا إن مت يوماً كفني ورق الكرم وقبري مَعَصْرَه!
وهي نمطٌ غريب من الشعر في هذا المقصد.

ونقل ابن الأبار من شواهد الشواهد قطعة في ترجمة العامري النحوي، ثم قال: وللناس في ما يكتبون على القبور كثيرٌ مستجاد، من ذلك قول ابن خفاجة... وقول أبي بكر بن مغاور الشاطبي. وذكر النصين المشار إلى صاحبيهما^(١٩).

وقد نجد للشاعر أكثر من قطعة نظمها لتنقش على قبره، فابن الموضع نظم قطعة من الشعر، وأخرى من نوع الدوبيت^(٢٠)، وللزمرخشي بحسب ما ورد في أخباره قطعتان، الأولى^(٢١):

يامن يرى مدّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل^(٢٢)
ويرى عُروق نياطها في نحرها والمُخَّ في تلك العظام النُّحَلِ^(٢٣)
اغفرْ لعبدٍ تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول^(٢٤)
- وفي طبقات الداوودي^(٢٥) أن الزمرخشي أوصى أن يُكتب على لوح قبره:

(١٨) طبقات الشعراء: ١٣٨.

(١٩) تحفة القادم لابن الأبار ٢٥-٢٦.

(٢٠) سيرد النص في موضعه.

(٢١) الكشف ١: ٢٦٤-٢٦٥، وقد أثبت نسبتها للزمرخشي محب الدين أفندي في (تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات) ٤: ١٧٦.

(٢٢) البهيم: المظلم الشديد السواد.

(٢٣) النياط: جمع النوط: عرق غليظ يصل بين القلب والرئتين.

(٢٤) الفرطات: يراد بها الهفوات، وما يصدر عن الإنسان دون روية.

(٢٥) طبقات المفسرين - الداوودي ٢: ٣١٤.

إلهي قد أصبحت ضيفك في الثرى وللضيف حقٌ عند كلِّ كريمٍ
فهب لي ذنوبي في قراي فإنها عظيمٌ، ولا يُقَرى بغير عظيمٍ
والشعر عند ابن خلكان، ولم يسمِّ صاحبه.

ومن التعليقات النادرة على هذه النصوص ما أورده محب الدين أفندي^(٢٦) بعد قطعة الزمخشري التي ذكرها له، وأوصى أن تنقش على قبره قوله: «وكذا يكون حال من تنبه من غفلته و رقاده، وعمل ما ينفعه يوم معاده، وندم على ما ارتكبه في شبابه، وتحسّر على ما فرط في جنب الله، وخاف أليم عقابه، وكان راجياً عظيم ثوابه، وتذكر قول القائل:

كانت بلهنية الشببية سكرةً فصحوثٌ واستأنفتُ سيرة مُجملٍ^(٢٧)
وقعدت أنتظر الفناء كراكبٍ عرفَ المحلّ فبات دون المنزلِ
وعمل بقول الآخر:

بقيّة العمرِ عندي مالها ثمنٌ وإن غدا غير محسوبٍ من الزّمنِ
يستدرك العمر منها ما أفات ويحد سبي ما أمات ويمحو السوء بالحسنِ
وفي تحليل الكتابة على القبور، في مناسبة الكلام على ما ينظمه الشعراء لينقش على قبورهم، قال موفق الدين بن عثمان^(٢٨): «وكان الأوائل يكتبون على التُّرَب (المقابر) ما فيه موعظة للميت، ومنفعة للأريب»، وأورد ثلاثة أبيات لم ينسبها إلى قائلها، أولها:

(٢٦) تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات ٤: ١٧٦.

(٢٧) بلهنية: على وزن فعلنية، يقال: هو في بلهنية من العيش: أي في سعة.

(٢٨) مرشد الزوار إلى قبور الأبرار: ٦٧.

- كتب أحمد أبو زيد في: المجلة العربية (عدد ٣٠/٦/٢٠١١) مقالةً عامةً في معنى الكتابة على القبور، ونقل مثلما قاله موفق الدين من العظة المستفادة من الشعر الذي يكتبه الناس على القبور.

يا أيها الناس كان لي أمل قصّر [بي] عن بلوغه الأجل

(٣)

ويلحق بشواهد الشواهد قطع كثيرة أنشدها أصحابها في مناسبات معينة، قبل الوفاة، وهي مشابهة للنصوص التي صرح أصحابها بالوصية لكتابتها أو نقشها على القبر.

ومن ذلك ما ورد في ترجمة ابن نايقا البغدادي^(٢٩) صاحب كتاب (الجمان في تشبيهات القرآن)، فقد روي - وسجل - أنه وجد في كفه مكتوباً حين مات هذان البيتان^(٣٠):

نزلتُ بجارٍ لا يخيبُ ضيفهُ أرجى نجاتي من عذاب جهنم
وإني - على خوفي من الله - واثقٌ بإنعامه، والله أكرمُ مُنعمٍ
وقال أبو بكر مالك بن حمير^(٣١):

رحلت وإنني من غير زادٍ وما قدّمتُ شيئاً للمعادِ
ولكنني وثقت بجود ربي وهل يشقى المقلّ مع الجوادِ؟
- والكتابة على القبور في العصور الإسلامية قديمة، وفي كتب الفقه كلام على القبور، ورفعها، والكتابة على أحجارها، وله مجال آخر. وإنما لم أذكره بسبب اختلافهم (تعدد آرائهم وأدلتهم) في ذلك، وليس من منهج البحث الغوص فيه.

- ومن الشعر الذي نلقاه في القرن الهجري الأول قطعة لمجنون ليلي

(٢٩) أبو القاسم عبد الله بن الحسين ابن نايقا (٤١٠ - ٤٨٥): أديب شاعر، كاتب، مصنف، وله مقامات، (خريدة القصر - العراق - ١: ١٤٢، وفيات الأعيان ١: ٤٧٥).

(٣٠) وفيات الأعيان ١: ٤٧٦، والبداية والنهاية ١٢: ١٨٨.

(٣١) توفي سنة ٥٦١ (التكملة لابن الأبار الترجمة ١١١٥)، وانظر المقتضب من تحفة القادم ٦٣-٦٤. وهناك نصوص مشابهة لشعراء آخرين.

تدل على الكتابة على القبور، ولعل ذلك يكون من الشعر ومما ينظمه صاحبه خصيصي، قال^(٣٢):

فلا تعذلوني إن هلكتُ، ترَحَّموا عليَّ ففقدُ الرُّوحَ ليسَ يعوقُ
وخطوا على قبري إذا متَّ وكتبوا: «قتيلٍ لحاظٍ ماتَ وهو عشيقُ»
إلى الله أشكو ما ألقى من الهوى بليلى، ففي قلبي جوَى وحريقُ
فهذا اقتراح شعري فني لكتابة نصٍّ موزنٍ على قبر الشاعر، وهو يؤكد
الكتابة على الشواهد، وينبه على إمكان كتابة النص المطلوب أو نقشه على
القبر شعراً.

ومن كتابة الشعر على القبور ما ورد في «تهذيب تاريخ دمشق»^(٣٣) قال:
قال وهب (بن منبه): أصبت على قبر إبراهيم الخليل مكتوباً خلفه في حجر:
ألهى جهولا أمله يموت من جا أجله
ومن دنا من حتفه لم تغن عنه حيله
وكيف يبقى آخرُ قد مات عنه أوله؟
والمرء لا يصحبه في القبر إلا عمله
وهو شعر لا نعرف من نظمه، ولكنه كان على أيام وهب بن منبه أو قبله،
وهذا يؤكد فكرة كتابة الشعر على القبور من وقت متقدم.

ومن الثابت في النقوش الباقية من العصر الجاهلي (وما قبله) أن العرب
كانوا ينقشون على الحجارة والصخور المحيطة بالقبور مثل نقش النّمارة.
وقد عد المؤرخون والآثاريون شواهد القبور الإسلامية وثائق تاريخية،
وخصوصاً في الفترات التي شحت فيها المصادر، كما صرحت الدكتورة سعاد

(٣٢) ديون مجنون ليلى: ٢٠٩.

(٣٣) تهذيب تاريخ دمشق ٢: ١٦٠-١٦١.

ماهر في تقديمها لكتاب «شواهد قبور إسلامية من جبانة صعدة باليمن»^(٣٤).
ونسجل قطعة تدخل في موضوعنا - سبقت الإشارة إليها - لأبي الهندي
الشاعر^(٣٥)، وهي غريبة جداً، قال فيها^(٣٦):
اجعلوا إن متُّ يوماً كَفَنِي ورق الكرم وقبري مَعَصْرَه
وادفنوني وادفنوا الرَّاحَ معي واجعلوا الأقداح حول المقبرة
إنني أرجو من الله غداً بعد شرب الراح حسن المغفرة
- وفي البيت الثالث يرجع إلى بعض خصائص هذا النمط من الشعر،
وفيه أمل، ورجاء بحسن المغفرة (بعد ارتكاب المعاصي).

(٤)

والشاعر المشارك في نظم هذه النصوص يرفع كلامه إلى المولى
سبحانه وتعالى، ويخاطب به الأهل والأصحاب، ويتوجه به إلى سائر الناس
في زمانه، وبعد زمانه، ويتوجه أحياناً إلى نفسه في خطاب شخصيٍّ أو تلوِّمٍ
ذاتيٍّ، أو تذكير باليوم الموعود المحتوم.
وأكبر توجه الشعراء في منظوماتهم إلى المولى سبحانه وتعالى: في
دعاء وتوبةٍ، وضراعه وطلب مغفرة، قال ابن الجوزي^(٣٧):

(٣٤) شواهد قبور إسلامية من جبانة صعدة باليمن (المقدمة).

(٣٥) أبو الهندي غالب بن عبد القدوس الرياحي التميمي (توفي ١٣٨ هـ) شاعر، مطبوع،
فضيح، استفرغ شعره في وصف الخمر، وهو أول من توسع في وصفها في الإسلام،
وكان سكيراً خبيث السكر كما ورد في أخباره (الأغاني - الساسي ٢١: ١٧٧-١٨٠)،
وفوات الوفيات ٢: ١٥١-١٥٢.

(٣٦) طبقات الشعراء - ابن المعتز - تحقيق عبد الستار فراج - دار المعارف بمصر: ١٣٨.
(٣٧) عبد الرحمن بن علي (نسبه موصول لأبي بكر الصديق رضي الله عنه)، له تأليف كثيرة
في التفسير والفقه والحديث والتواريخ وغير ذلك. بلغت تأليفه مئتي كتاب.
مرآة الزمان ٨: ٤٨٢، وسير أعلام النبلاء ٢١: ٣٧٠ وما بعدها.

يا كثيرَ العفو عَمَّنْ كَثُرَ الذَّنْبُ لَدَيْهِ
جاءك المذنب يرجو الصِّدْقَ فحَّ عن جُرْمِ يَدِيهِ
أنا ضيفٌ وجزاء الصِّدْقِ يَفِ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ

واستفاد من بعض صفات الله تعالى: من صفة (العفو) لطلب العفو والمغفرة والصفح.

وفي قطعة أبي الصلت الداني^(٣٨) اعترافٌ من الشاعر، وإقرار بقلة (الزاد)^(٣٩):
فيا ليت شعري كيف ألقاه عندها وزادي قليلٌ، والذنوب كثيرٌ؟
فإن أك مجزئاً بذنبي فإنني بشرَّ عقابِ المذنبين جديرٌ
والتفت ابن خفاجة^(٤٠) إلى أهله وصحبه، وذكرهم بالأخوة والصحبة،
وسألهم بهذه الصلة أن يقفوا عند قبره بالتحية له، والدعاء^(٤١):

خليلي هل من وقفةٍ لتألم على جدثي أو نظرةٍ لترحم؟
خليلي هل بعد الردى من ثنيةٍ وهل بعد بطن الأرض دارٌ مخيمٌ
وإننا - حيننا أو ردينا - لإخوةٍ فمن مرَّ بي من مسلمٍ فيسلمٍ
وماذا عليه أن يقول محيياً ألا عمٌ صباحاً أو يقول ألا اسلم

(٣٨) أبو الصلت أمية بن أبي الصلت الداني الأندلسي: طيب، وفلكي، وأديب، وشاعر، رحل إلى المشرق واستقر هناك له مؤلفات كثيرة، وديوان شعر (٤٦٠-٥٢٩هـ) طبع له (الرسائل المصرية).

تحفة القادم: ٩، الوافي بالوفيات ٩: ٤٠٢.

(٣٩) وفيات الأعيان ١: ٢٤٣ وتاريخ الأدب العربي (فروخ) ٥: ١٨٣.

(٤٠) أبو اسحق إبراهيم بن خفاجة (٤٥١-٥٣٣) أكبر شعراء الأندلس وأشهر وصاف للطبيعة، كاتب أديب، شاعر، له ديوان مطبوع، وكان لمذهبه الفني أتباع في زمانه وبعد ذلك (المذهب الخفاجي)

الصلة: ١٠٠، وبغية الملتمس: ٢٠٢، والخريدة (المغرب والأندلس ٢: ١٦٧).

(٤١) أورد القطعة ابن الأبار في معجم شيوخ الصدفي: ٦١، ونقلت إلى الديوان: ٣٦٣.

وفاءً لأشلاءٍ كَرُمْنَ على البلى فعاج عليها من رفات وأعظم
يردّد طَوْرًا آهة الحُزْنِ عندها ويذرف طوراً دمعاً المترحّم
وتتصل هذه القطعة بشيء من ملامح شخصية ابن خفاجة المرهفة الحس،
البالغة التأثير، الودود، وبشيء من خصائص شعره أيضاً.
ويجري مجرى ابن خفاجة أبو البقاء الرندي^(٤٢):

خليلي بالود الذي بينا اجعلا إذا متّ قبري عُرضَةً للترحّم
عسى مسلمٌ يدنو فيدعو برحمةٍ فإني محتاج لدعوة مسلم
ومالك بن المرحّل^(٤٣):

ولتقل عند قبره بلسان التذلل:
«يرحم الله عبده مالك بن المرحّل!»

وتتوجه فئة من الشعراء إلى عامة الناس، يطلب الشاعر من المار بقبره
أن يقف قليلاً ويدعو له، ويرجو له أن يجد في موقفه عند القبور العظة
والعبرة، ومنه قول أبي الحسن سلام بن عبد الله الباهلي الإشبيلي^(٤٤)،
(والقصيدة أطول ما وجدت من نصوص البحث)^(٤٥):

(٤٢) أبو البقاء (وأبو الطيب) صالح بن شريف النفزي الرندي: حافظ، محدث، كاتب أديب،
شاعر، مؤلف (توفي ٦٨٤هـ)، من كتبه: الوافي في نظم القوافي.
الذيل والتكملة ٤: ١٣٦-١٣٩، ونفح الطيب ٣: ٣٤٧، وأزهار الرياض ١: ٤٧،
والإحاطة ٣: ٣٧٥-٣٧٦، والنص فيه، وأبو البقاء الرندي: محمد رضوان الداية: ٣٧.
(٤٣) مالك بن عبد الرحمن بن المرحّل (٦٠٥-٦٩٩هـ) أديب، شاعر من أهل مالقة، تولى
القضاء في عدد من البلدان، وتوفي بفاس (المغرب). الإحاطة ٣: ٣٤٤.
(٤٤) وزير أبوه للمعتمد بن عباد، أديب، كاتب، شاعر، له خطب ومقامات وكتب مصنفة في
الآداب والزهد والحكم (لم يصل إلينا منها شيء)، وأثنى عليه ابن عبد الملك المراكشي في
ترجمته (بقية الذيل والتكملة: ٤٨-٥٥)، وكان قد أوصى بكتابة هذا الشعر على قبره.
(٤٥) النص عند ابن عبد الملك.

يا ذا الذي مرّ بي اجتيازاً سألتك الله قف قليلا
 واسمع لقولي ففيه وعظُّ يوقظ من نومه الغفولا
 عشتُ ثمانين كاملاتٍ ناهيك منها مدى طويلا
 عجبتُ أن أدبرتُ سراعاً ولم أنل من مُنأي سولا
 بادِرَ رحلي بها ارتحالي كأنني عابِرٌ سبيلا
 وها أنا اليوم رهنُ قبرٍ أصبح من منزلي بديلا
 منفرداً لا أرى قريباً ولا حميماً ولا خليلا

فلما انقضت حكاية العمر الذي مر سريعاً، ولم يبلغ فيه على طوله مما

تمنى شيئاً ذا بال، التفت إلى وصف قدومه على المشهد الحق:

رهن ذنوبٍ تقدمتُ لي حملتُ من عبئها ثقيلا
 فما اعتذاري إذا دعاني للعرض مُستصغراً ذليلاً؟
 وقال لي: ما عملتَ في ما علمت يا ظالماً جهولاً؟^(٤٦)
 ويرجع الشاعر إلى المار العابر عند القبر، ويسأله الدعاء له:

يا ويلتا إنْ عدمتُ رُحْمِي منْ لم يزلْ راحماً وُصُولاً
 فادْعُ لي اللهُ يا وَلِيِّي فصَفْحُهُ لم يزلْ جميلاً
 واستغفر اللهُ لي عسَاهُ يكون من عثرتي مُقيلاً
 وقل: عفا اللهُ عن سلامٍ فكم عصى اللهُ والرسولاً
 فرب داعٍ بظهر غيبٍ قابِلَ من ربّه القَبُولاً

وتعددت مقاصد أبي محمد عبد المنعم بن محمد بن الفرس الغرناطي^(٤٧)

(٤٦) في البيت إشارة إلى أثر مشهور هو أن العبد يسأل يوم القيامة عن أربع فيها: «وعن علمه ماذا عمل...»، وقد قال أبو إسحق الإلبيري (ديوانه ص: ٢٦):

فلا تأمن سؤال الله عنه بتوبيخ علمت فهل عملت

(٤٧) ابن الفرس من أهل غرناطة: عالم أديب قاضٍ، تولى المناصب (القضاء والحسبة والشرطة)، واشتهر بعلوم القرآن. توفي ٥٩٧هـ (الإحاطة ٣: ٥٤١)، والشعر فيه.

في قطعته التي أعدها لتنقش على قبره، في أبياتها الأربعة، وقد توجه بها إلى
المار بقبره المسلم عليه:

عليك سلام الله يا من يسلم ورحمته ما زرتني تترحمُ
أتحسبني وحدي نُقلت إلى هنا ستلحق بي عما قريب فتعلم!
ويا [مصرفاً] يمسي لديناه مؤثراً ويُهمل أخراه ستشقى وتندمُ
فلا تفرحَن إلا بتقديم طاعةٍ فذاك الذي يُنجي غداً ويسلمُ!
فقد جمع ابن الفرس: ردّ التحية على العابر أو القاصد، وتبّه على
حقيقة الموت والحياة، ووعظه لعدم الاستغراق في الدنيا، ودعوته إلى
الانتفاع بثواب الطاعات.

وخاطب ابن شهيد^(٤٨) (صاحباً) يجاوره:

يا صاحبي قم فقد أطلنا أنحن طول المدى هجودُ
فقال لي لن نقوم منها ما دام من فوقنا الصّعيدُ
ورجع إلى زمان الدنيا متذكراً:
تذكرُ كم ليلة نَعَمنا في ظلها والزمان عيدُ
وكم سرور همى علينا سحابةً ثرّةً تجودُ
كلُّ كأن لم يكن تقضى وشؤمه حاضرٌ عتيذُ
حصّله كاتبٌ حفيظُ وضمّه صادقٌ شهيدُ

وتوقف عند المآل: فبعد هذه الحياة (بما فيها)، وبعد انقضاء الأجل
حساب حاضر، وسأل العفو والمغفرة.

(٤٨) أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد: أديب كاتب شاعر ناقد تولى الوزارة مدة، من
أصحاب ابن حزم وله مؤلفات منها (التوابع والزوابع)، وجمع شعره في ديوان (ط)
توفي سنة ٤٢٦هـ.

الذخيرة لابن بسام ١/١: ١٩١، وجذوة المقتبس: ١٣٣، وإعتاب الكتاب: ٢٠٣.

يا ويلتا إن تنكبتنا رحمةً من بطشه شديدُ
يا رب عفواً وأنت مولى قصر في شكره العبيدُ

والقطعة مثال للنص المتكامل من وصف الحال (الموت)، وتذكّار الماضي الذي فيه تقصير أو ذنوب، والإقرار بما يسجله الملكان، ورجاء للعفو والمغفرة.
وللطغنجريّ الغرناطيّ^(٤٩):

يا خليلي عرّج على قبري تجدُ أكلة التّرب بين جنبني ضريح
خافت الصوت إن نطقتُ ولكنّ أيّ نطق إن اعتبرت فصيح؟
أبصرت عيني العجائب لَمّا فرّق الموت بين جسمي وروحي!
ومن النصوص التي خاطب فيها الشاعر نفسه ما أنشده عليّ بن عيسى
الفارسي المعروف بالسكّري، قال (وأعد القطعة لتكتب على قبره)^(٥٠):

نفس! يا نفس! كم تماذّين في الغيِّ وتأتين بالفعال المعيب!
راقبي الله، واحذري موضع العزّ ض، وخافي يوم الحساب العصيب
لا يُغرّنك السّلامة في العيب ش فإن السليم رهن الخطوب
كلّ حيّ فللمنون ولا يدُ فع بأس المنون كيد الأريب
واعلمي أنّ للمنية وقتاً سوف يأتي عجلان غير هيوب
وأعدّي لذلك اليوم زاداً وجواباً لله غير كذوب
إن حب الصّدّيق في موقف الحشد رر أمان للخائف المطلوب
وينحو الشاعر في هذه القطعة نحو الزهاد إذا نظموا الشعر من زجر
النفس، ولومها ونصحها، وضرب الأمثال لقضية الحياة والموت.

(٤٩) محمد بن مالك المرّي الطنجري الغرناطي، أديب شاعر، مؤلف وله كتاب في الفلاحة، قال لسان الدين بن الخطيب: كان حيّاً سنة ثمانين وأربع مئة. الإحاطة في أخبار غرناطة ٢: ٢٨٤.
(٥٠) أبو الحسن علي بن عيسى الفارسي المعروف بالسكّري (٣٥٧-٤١٣هـ) أديب كاتب شاعر، أكثر شعره في مدح الصحابة. تاريخ بغداد ١٢: ١٧، والأنساب للسمعاني ٥: ٢١٤.

وفي مقابل أطول نص في شواهد الشواهد، وقد مر لسلام الباهلي الأندلسي، نجد أقصر نص في الموضوع، وهو لأبي العلاء المعري، فقد قال عارضاً رأيه على قارئ البيت عند قبره، ولكل من يصل إليه الشعر^(٥١):

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

وقد اشتهر البيت لشهرة المعري، ولغرابته، وتمثيله لجانب من جوانب آرائه التي بثها في دواوينه^(٥٢).

(٥)

ويرفد هذه النصوص في ذاكرة الشاعر وفي رؤيته الشعرية، وفي المفردات اللغوية، والعبارات، وفي المعاني جملةً، عددٌ من الروافد:

- فأولها الثقافة العربية الإسلامية، فقد صبغ الإسلام بصبغته الواضحة ما يخص قضية الوجود، وقضية الحياة والموت، ووجد الشعراء في ما حفظوا وما عرفوا من جوانب الثقافة الإسلامية ما يقدم لهم ما يحتاجون إليه، ومن هنا يستطيع الدارس أن يتنبّه إلى تلك الموارد في قصائد الشعراء ومقطوعاتهم: التي هي موضوع البحث، من الإيمان والتقوى، والطاعة والمعصية، والتقصير والغفلة، وتنبهوا إلى أثر الدعاء منهم ومن زائر قبورهم، وفي الآثار أحاديث عن دعاء الولد لأبويه، ودعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب، وعن الشفاعة، إلى غير ذلك من المدارك الإسلامية.

(٥١) البيت ذائع في تراجم المعري وأخباره، وللقدماء - والمحدثين - كلام طويل حوله. انظر مثلاً سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨: ٣٦.

(٥٢) ومن الطريف ما علق به أحمد شوقي على بيت المعري، فقد قال:

بينني وبين أبي العلاء قضيةٌ في البرّ أسترعي لها الحكماء
هو قد رأى نعى أبيه جنايةً وأرى (الجناية) من أبي نعماء

ديوان شوقي - الحوفي ٢: ٢٠٣.

- ومن الروافد ملامح إنسانية مما يلاحظه الإنسان منذ آدم عليه السلام، فالموت حق، والبعث حق، والحساب، والجنة والنار حق، فهذا موصول بالفكر الإنساني كما هو مشاهد وملاحظ، وهو أيضاً واضح المعالم في الفكر الإسلامي.

- ومن الروافد النوازع الشخصية من الحس المرهف، والإحساس المستمر بمحدودية الحياة، ويصور هذا الجانب في قصيدة رائعة ابن خفاجة يقول فيها، وقد وقف أمام حتمية الموت، ومحدودية أيام العمر^(٥٣):

فتعالى يا عينُ نبك عليها من حياةٍ إن كان يُغني بكها
وبكاؤه على: «عيشة أقبلت يشتهي جناها» كما قال في صدر القصيدة،
ولكن الأمر محسوم.

- ومن الروافد: التنبيه المتواصل للإنسان بوفاة من وافاهم الأجل من صاحب أو جار أو قريب، وكل وفاة هي تذكير للإنسان بذلك اليوم الموعود، وقد قال ابن خفاجة في هذا الملمح أيضاً^(٥٤):

وما غيَّض السَّلوان دمعِي وإنَّما نزلتُ دموعِي في فراقِ الأصحابِ
فحتى متى أبقي ويظعنُ صاحبُ أودعُ منه راحلاً غيرَ آيبِ؟
وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً فمن طالعِ أخرى الليالي وغاربِ؟
وكان بين أيدي هؤلاء الشعراء، وهم ينظمون قطعهم وقصائدهم، شعار العبادة والزهد من المشاركة والأندلسيين، وفي تراثهم شعرٌ كثيرٌ، ومقاصدٌ مناسبة. والنصوص التي نظمها الشعراء للكتابة على القبور صادرة عن بوح ذاتي وانفعال شخصي، ونفسٍ مترقبة واعية، واستسلام مسبق للقضاء والقدر، وتناول لقضية الحياة والموت - وهي قضية الإنسان الكبرى - تناولاً هادئاً.

(٥٣) ابن خفاجة - محمد رضوان الداية: ١٤٠-١٤١، ونص القصيدة في الروض المعطار في خبر الأقطار - مادة «شُفر».

(٥٤) المرجع السابق: ١٢٤-١٢٥، والقصيدة كاملة في ديوانه.

ويلمَح الدارس طاقة كل شاعر في ذلك الموقف، وتأنّيه أو تسرعه في تفرّغ الشحنة العاطفية التي تضطرم داخله، فقد يكتفي الشاعر بالبيتين والثلاثة، وقد يطيل الكلام (والإطالة هنا نسبية) فتكون القطعة سبعة أبيات أو نحو ذلك، وقد تطول فتزيد على ذلك.

وتبقى القطعة المنقوشة على شاهد القبر صلة وصل بين الشاعر - وقد صار في دار الحق - وبين القارئ الذي جاء قاصداً ليدعو له، وقارئ الشعر، وهو يمرّ مروراً عارضاً، فيستوقفه الكلام، وتلفته المقاصد والمعاني.

ونستأنف بقطعة ابن أرقم النميري الوادي آشي^(٥٥)، وفيها:

أتيتُ إلى خالقي خاضعاً ومن خدّه في الثرى يخضعُ
وأخرها:

فأخلصُ دعاءك يا زائري لعلّ الإله به يَنفَعُ

وفي بعض النصوص إشارة من الشاعر إلى حتمية الموت، وانتهاء الحياة، وإلى أن هذا سنة الله تعالى في خلقه، ولهذا فلا شماتة في ذلك، وفي قطعة ابن الزقاق البلنسي^(٥٦):

أإخواننا والموتُ قد حال دوننا وللموت حكمٌ نافذٌ في الخلائقِ
سبقتكم للموت والموت ظنّة وأعلم أنّ الكلّ لا بدّ لاحقي
ويجيء صوت مثل صوت ابن الفرس أعلى من صوت ابن الزقاق،
وأكثر مباشرةً:

(٥٥) أبو خالد محمد بن أحمد بن أرقم الوادي آشي النميري الأندلسي قاضٍ أديب شاعر مارس الإقراء والتدريس (توفي ٦٩٤هـ).

(٥٦) أبو الحسن علي بن إبراهيم اللخمي (ابن الزقاق) البلنسي، ابن أخت ابن خفاجة من شعراء زمانه توفي (٥٢٩هـ) وهو في نحو الأربعين، له ديوان مطبوع. المغرب ٢: ٢٣١، والذيل والتكملة ٥: ٢٦٥-٢٦٨، ونفح الطيب ٣: ١٩٩-٢٠٠. والشعر في الذيل والتكملة.

أتحسبني وحدي نُقلت إلى هنا؟ ستلحقُ بي عمّا قريبٍ فَتَعَلَّمْ
ومثل صوت أبي بكر العامري^(٥٧):

فقل للذي سرّه مهلكي تأهب فإنك بي لاحقٌ!

ويجيء في كلام الشاعر في قطعه ما يدخل في معاني النصيح والإرشاد، ومنه قول أبي جعفر اللمائي الأندلسي^(٥٨):

فيا زائراً قبري أو صّيك جاهداً «عليك بتقوى الله في السر والجمهور»
فلا تُحسننّ بالدهر ظناً فإنما من الحزم ألا يستنم إلى الدهر

ويجد القارئ تقارباً في هذه القطع في الأفكار والمقاصد والكثير من الألفاظ والعبارات؛ لأن مجرى الكلام العام واحد. ويلفت النظر ترادف فكرة نزول الشاعر ضيفاً بعد وفاته ينقلون ذلك من مقاصد الحياة المعروفة بين الناس من ضرورة إكرام الضيف والاحتفاء به، وتنويله ما يريد من المطالب. وفي قطعة للزمخشري^(٥٩):

إلهي قد أصبحت ضيفك في الثرى وللضيف حقٌ عند كل كريم
وهب لي ذنوبي في قرأي فإنها عظيمٌ ولا يقرى بغير عظيم

وفي قطعة ابن نايقا البغدادي، وقد مرّت في البحث، مثل ذلك.

وتبدو فكرة التلوّم النفسي شديدة الوضوح في ما نظمه علي بن عيسى السكري لينقش على قبره.

(٥٧) أبو بكر محمد بن إبراهيم القرشي العامري الخطيب النحوي الأندلسي، ترجم له ابن الأبار في تحفة القادم ٢٤-٢٥، قال ابن الأبار: ورسم أن يكتب على قبره (الآيات).

(٥٨) أبو جعفر أحمد بن أيوب اللمائي الأندلسي كاتب، شاعر محسن، اشتغل بالكتابة الديوانية زماناً، توفي سنة (٤٦٥هـ) بمالقة، ونقل إلى حصن الورد، وكان اتخذه مسكناً فدفن هناك. الإحاطة في أخبار غرناطة ١: ٢٣٤ - والشعر فيه.

(٥٩) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري أحد أعلام الفكر العربي الإسلامي المفسر اللغوي الأديب توفي (٥٣٨هـ). وفيات الأعيان ٥: ١٧٣، وطبقات المفسرين ٢: ٣١٤.

نفس يا نفسُ كم تَمَادَيْنَ في الغيِّ وتأتين بالفعال المعيبِ
راقبي الله واحذري موضع العزِّ ضِ وخافي يوم الحساب العصيبِ
وفي قطعة الوزير المغربي^(٦٠):
كنتُ في سفرة الغواية والجهـ ل مقيماً فحان منِّي قدومُ
وفي قطعة أبي الصلت الداني:
فيا ليت شعري كيف ألقاهُ عندها وزادي قليلٌ والذنوبُ كثيرُ
- وترددت في هذه الأشعار فكرة حتمية الموت، وانقضاء الحياة. وفي
شعر أبي بكر العامري الشلبي الأندلسي:

لئن نفذ القدرُ السابق بموتي كما حكم الخالقُ
فقد مات والدنا آدمُ ومات محمدُ الصادقُ
ومات الملوك وأشياعهم ولم يبقَ من جمعهم ناطقُ

وهذا معنى قديم تردد في أشعار الشعراء. ومن القدماء الذين نظموا فيه
عدي بن زيد العبادي^(٦١):

أيها الشامت المعيرُ بالدهـ ر أنت المبرراً الموفورُ؟
أم لديك العهد القديم من الـ أيام، بل أنت جاهلٌ مغرورُ!
وفي شعر ابن الزقاق البلنسي:
أخواننا والموت قد حال دوننا وللموتِ حكمٌ نافذٌ في الخلائقِ

(٦٠) أبو القاسم الحسين بن علي (الشهير بالوزير المغربي): كان أديباً ومترسلاً وشاعراً، وكان
مصنفاً أيضاً (٣٧٠-٤١٨هـ). وفيات الأعيان ١: ٢٧٧-٢٨١، ومعجم الأدباء ١٠: ٧٩-٩٠.

(٦١) عدي بن زيد العبادي: كان شاعراً نصرانياً من أهل الحيرة - توفي ٣٥ قبل الهجرة، كان
من دهاة الجاهلية، فصيحاً، يحسن العربية والفارسية، هو أول من كتب بالعربية في
ديوان كسرى - الأغاني (٢: ٩٥-١٤٦)، والشعر فيه.

(٦)

وقد يورد الشاعر في النص الذي ينظمه لينقش على شاهد قبره شيئاً من خصوصيات حياته يخلطها بالمقاصد التي تتردد على الشواهد، كالإشارة إلى الغربة (موت القائل الناظم غريباً)، والإشارة إلى تعيّر أحواله في حياته، ومعاناته (كالأسر بعد الحرية)، والإشادة ببعض مزايا نفسه من الجود والوفاء وعلو المكانة.

وأشار أبو علي القالي (البغدادي) إلى قبره بعبارة «قبر الغريب»، قال (٦٢):
 صلوا لحد قبري بالطريق وودّعوا فليس لمن وارى التراب حيبُ
 ولا تدفنوني بالعراء فربما بكى إن رأى قبر الغريب غريبُ
 وذكر أبو بكر الكندي غربته في القطعة التي أوصى بنقشها على شاهد قبره (٦٣):

حيّ قبراً بالبقيع حوى ذا اغترابٍ حطّ أرحلُهُ
 جدّ في تسياره وجرى طلقاً ما شاء طوّلُهُ
 فهو قد ألقى عصاه ولم يدّخر إلا توكلَّهُ!

وكان الكندي غرناطي الأصل من البيرة، تعلّم في مرسية، وانتقل إلى غرناطة مدة، ثم سكن مالقة، وكانت وفاته في غرناطة. ومن هنا عدّ الشاعر نفسه غريباً.

(٦٢) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي (نسبته إلى قالي قلا) البغدادي، من كبار اللغويين والعلماء، نزل الأندلس مرحباً به وصار أمين المكتبة العامة، له مؤلفات ذائعة، ومجالس علمية مدونة، طبع عدد من كتبه، توفي بقرطبة (٣٥٦هـ)، نفع الطيب ٣: ٧٢، والشعر فيه.

(٦٣) أبو بكر محمد بن عبد الرحمن الأسدي، أديب شاعر، من أتباع المذهب الخفاجي. وشعره من الطبقة العالية. جمعت شعره (طبع في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٨٢م، ج ٤). توفي سنة ٥٨٣ أو ٥٨٤هـ. برنامج شيوخ الرعييني ١١٦، المغرب ٢: ٢٦٤، الوافي بالوفيات ٣: ٢٣٢.

وذكر المعتمد بن عباد^(٦٤) موته غريباً (أسيراً)، وبدأ قطعته التي أوصى
بنقشها على قبره بقوله (مبتدئاً كابتداء القالي):

قبرَ الغريب سقاك الرَّائِحُ الغادي حَقًّا ظفرتَ بأشلاء ابنِ عبادِ
وذكر من مآثر نفسه بعد ذلك فقال:

بالحلم بالعلم بالنُّعمى إذا اتصلتْ بالخِصْبِ إنْ أجذبوا بالريِّ للصادي
بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا بالموتِ أحمرًا، بالضرغامة العادي
بالدهر في نِقَمٍ في البحر في نِعَمٍ بالبدر في ظُلْمٍ، بالصَّدرِ في النادي
فهذه أبيات موضعها قصائد الفخر، ولكن الشاعر أفرغ فيها شحنة
عاطفية ذاتية قوية، وهو الأسير الكسير مع نفرٍ من أهله، ثم قال على الشائع
في هذا النمط من الشعر ممزوجاً بما بدأ به:

نعم هو الحق وافاني به قدرٌ من السماء فوافاني لميعادِ
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمهُ أنَّ الجبال تهادي فوق أغوادِ
وجعل نفسه أخا الغيث، وعتب على القبر الذي غيَّب أخا الغيث
(شبيهه في العطاء والجود):

كفالك فارفق بما استودعتَ من كرمِ رَوَّاكِ كلِّ قُطُوبِ البرِّقِ رِعَادِ
بيكي أخاهُ الذي غيَّبتَ وابلَهُ تحت الصفيح بدمعِ رائِحِ غادِ
وفي قطعة أحمد الكيواني^(٦٥):

(٦٤) أبو القاسم محمد بن عباد (المعتمد) (٤٣٢-٤٨٨هـ) أحد أمراء إشبيلية في مدة عصر
الطوائف، أديب شاعر فارس، اتفق مع المرابطين ثم اختلف معهم، أخذ أسيراً إلى
أغمت بالمغرب، وفيها وفاته، له ديوان مجموع مطبوع. وفيات الأعيان ٥: ٢١ وما
بعدها، والحلية السراء ٢: ٥٢-٦٨، والوفاي بالوفيات ٣: ١٨٣-١٨٨.

(٦٥) أحمد الكيواني الدمشقي: أديب كاتب شاعر مصنّف، كان في طليعة المجددين في
الشعر في القرن الثامن عشر، وله ديوان مطبوع - انظر بحثاً عنه في مجلة مجمع اللغة
العربية بدمشق - محمد رضوان الداية، م٨٧، ج٤.

إذا مت فادفني بعيشك صاحبي مع الغربا واكتب على شدتي سطرا
 ألا رحم الرحمن حرًا قضى أسي ولم يسأل عن إلفٍ ولم يرتكب غدرا
 وذكر صفة الحر في هؤلاء الشعراء فخري البارودي^(٦٦)، قال في قطعته^(٦٧):
 قفوا أيها الزوار قبري^(٦٨) هنيهةً وقولوا سلاماً أيها الميت الحُرُّ
 وطوفوا حيال القبرِ صحبي وفكروا بموتٍ أكيدٍ ثم يتبعه الحشرُ
 تروا أن كأس الموت حق على الوري وكلُّ له يومٌ وإن أَلْفَ العمرِ^(٦٩)
 ونظم محمود الموقع^(٧٠) قطعة شعرية لتتقش على قبره، مع قطعة نثرية
 تسبقها في المعنى نفسه، والمقصد في القطعتين واحد، وقد قال في آخر
 القطعة (وهي في ستة أبيات)^(٧١):

ويا جبذا ظني جميلُ بربنا وحاشا يجازيني بحال منكدِ
 فكيف أخاف النار والله راحمٌ وأرجو لتقصيري شفاعة (أحمد)
 ثم قال في موضع آخر من الديوان بعد أن أشار إلى القطعة السابقة: «والآن
 عنِّي لي أن أضمَّ لها خمسة أبيات آخر لكن من غير البحر المذكور (الطويل) بل
 هي من الدوبيت، وأجزاؤه: فعولن مُتفاعلن فعولن فعِلن، وهي^(٧٢):

(٦٦) فخري البارودي: (١٨٨٧-١٩٦٦م): سياسي عسكري صحافي، شاعر، عربي سوري،
 كان مجاهداً ضد الاستعمار الفرنسي، وكان نائباً في المجلس النيابي السوري، صاحب
 قصيدة: بلاد العرب أوطاني.

(٦٧) الشعر في كتاب آفاق و مذكرات البارودي - دعد الحكيم مديرة مركز الوثائق التاريخية.

(٦٨) يريد قفوا على قبري.

(٦٩) أي: وإن عاش المرء ألف سنة.

(٧٠) محمود بن عبد المحسن الموقع، الدمشقي الحسيني القادري الأشعري (١٨٤٠ -
 ١٩٠٤م)، له ديوان مطبوع.

(٧١) ديوانه: ٤٨-٤٩.

(٧٢) ديوانه: ٩٧.

محمود موقَّعٌ غدا مُرْتَهناً في قبره من جرائم ذات عَنَا
 وافاه بعقره بلا زادٍ تَقَى لا يملك في ثراه إلا الكفنا
 أضحى بجميله ذا فرَجٍ والظن بربنا يُزيلُ الحزنا
 فانظر لمقَصِّرٍ رجا عفوكمُ بالهادي محمد وهو شافِعُنَا
 يا من وسعتُ عباده رحمتُه من بعض عبادك المسلمين أنا

(٧)

وقد تظهر ملامح الفن البديعي على قلةٍ ومنه قول أبي الإخلاص محمد
 ابن أحمد القرشي الإسكندري المعروف بابن التنسي^(٧٣):

إله الخلق قد عظمت ذنوبي فسامح ما لعفوك من مشارِكُ
 أغث يا سيدي عبداً فقيراً أناخ ببابك العالي ودارِكُ!
 وفي (دارك) تورية بين الدار (المنزل) والمداركة. وفي قوله (دارك)
 فعلٌ يقصد منه الرجاء.

وقول شمس الدين بن المزين^{(٧٤)(*)}:

بقارعة الطريق جعلت قبري لأحظى بالترحم من صديقِ
 فيا مولى الموالي أنت أولى برحمة من يموت على الطريقِ
 وفي الشعر تورية: فالطريق: هو المكان الذي يمر فيه الناس، والطريق
 أيضاً: طريق الاستقامة والتقوى ﴿وَأَلُوْا سَتَقَمُوْا عَلَى الطَّرِيْقَةِ...﴾ [الجن: ١٦].
 وسنجد التورية أيضاً في البيت الأول من قطعة عائشة التيمورية (التالية).

(٧٣) الضوء اللامع ٧: ٩٠-٩١.

(٧٤) خزانة الأدب للحموي: ٣٣٦.

(*) وذكر ابن حجر العسقلاني في (إنباء الغمر ١/ ٤٤٤) أن علاء الدين الموقع، علي بن
 عبد الله البيري (ت ٧٩٤هـ) أوصى أن يُكتب هذان البيتان على قبره. وشمس الدين
 محمد بن إبراهيم بن بركة الدمشقي المزين كانت وفاته سنة ٨١١هـ. = [المجلة]

واعتمدت عائشة التيمورية على حساب الجمل لتأريخ وفاتها، وتركت لذلك آخر شطر من القطعة التي نظمها لتكتب على قبرها. قال أخوها أحمد تيمور باشا في ترجمة محمد أكمل، وكان من أصدقائه: «لما مرضت شقيقتي السيدة عائشة التيمورية، وأحسّت بدنو الأجل، نظمت في مرضها أبياتاً لتكتب على قبرها، وتركت مصراع التاريخ (الشطر الثاني) لمن ينظمه بعدها، وهي:

قد كنت عائشةً فنوديتُ أرْجعي للقبر مأوى كُلِّ حيٍّ فانِ
فأتيت صِفْرَ الكفِّ عن مَرْضاته ومقرّةً بالعجز والعصيانِ
جُرْدْتُ من ثوب الهدى لكنّ لي تاجاً من الإسلام، والإيمانِ
ونزلته مستشفعاً بمحمّدٍ وتوسّلي عفواً من الرحمنِ
أصبحتُ ممن زار قبري راجياً خير الدعاء، وتلاوة القرآنِ
لكم البقا إخوانَ ديني أرّخوا:

قال أحمد باشا تيمور: فنظم المترجم (محمد أكمل) التاريخ بقوله:

قبرٌ لعائشةٍ سما بجنانِ

وتاريخ الوفاة هو سنة ١٣٢٠ هـ بحساب الجمل».

(٨)

أ- جرى الشعراء، في النصوص التي جمعتها في موضوع شواهد الشواهد، على نظم تلك النتف والقطع والقصائد نظماً قاصداً مخصوصاً بتلك المناسبة. لكن الشاعر قد يختار من شعر نظمه لمناسبة من المناسبات أبياتاً لتنقش على شاهد قبره، كالذي صنعه أحمد شوقي. فإنه - كما روى ابنه حسين شوقي^(٧٥) - اختار بيتين من قصيدته النبوية التي عارض بها البوصيري، وعُرفت بنهج البردة، مدح فيها رسول الله ﷺ وهما:

(٧٥) أبي شوقي - حسين شوقي - مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٧ - ١٦٦.

يا أحمد الخير لي جاهٌ بتسميتي وكيف لا يتسامى بالنبيِّ سَمي؟
 إنَّ جلَّ ذنبي عن الغفران لي أملٌ في الله يجعلني في خيرٍ مُعْتَصِمِ
 فقد أضاف شوقي باختياره هذين البيتين التوسل بالنبي ﷺ، والأمل
 القوي بمغفرة الله سبحانه وتعالى.

ب- وقد يحفز نصّ نظمه أحد الشعراء ليكتب على قبره شاعراً آخر
 ليعارضه، ومن ذلك ما صنعه شاعرٌ لم يُسمِّه ابن عبد الملك^(٧٦)؛ وكان
 سلام الباهلي قد نظم قصيدةً لهذا الغرض، قال في أولها:

يا ذا الذي مرَّ بي اجتيازاً سألتك الله قف قليلاً
 فقال صديقه، معارضاً، راثياً له، كأنه استجاب له:

سلامٌ ربي على سلامٍ ما عاقبتُ بكرةً أصيلاً
 تحية لا تزال تسقي صوب الحيا قبره المُحيلاً!

ج- وقد نجد النص الذي كتب على القبر، وأسلوبه يدل على أن
 صاحب الشعر هو صاحب القبر، لكن الرجل مجهول، نسيه التاريخ، ومن
 ذلك ما رواه ابن خلكان^(٧٧) قال: أخبرني بعض الأصحاب أنه رأى بجزيرة
 «سواكن» تربة ملكها عزيز الدولة ريحان، وعلى قبره مكتوب:

يا أيها الناسُ كان لي أملٌ قصَّرتُ بي عن بلوغه الأجلُ
 فليتق الله ربُّه رجلاً أمكنه قبل موته العملُ
 ما أنا وحدي نُقلتُ حيث ترى كلُّ إلى ما نُقلتُ ينتقلُ
 ومن النصوص النموذجية^(٧٨) قصيدة قصيرة نظمها ولد على لسان

(٧٦) الذيل والتكملة - تمة السفر الثامن: ٤٨-٥٥.

(٧٧) وفيات الأعيان لابن خلكان: ١٧٣/٥، وانظر ترجمة لسواكن في الروض المعطار: ٣٣٢.

(٧٨) الإحاطة في أخبار غرناطة ٤: ٢٥٠.

والده، والمُتوفَّى هو يوسف بن رضوان النجّاري أحد أعلام غرناطة في القرن الثامن، فقد كتب ولده على شاهد قبره (من نظم الابن):

إلهي خدي في التراب تذلاً	بسطت عسى رحماك يحيا بها الروحُ
وجاورتُ أحداث الممالك خاضعاً	وقلبي مصدوعٌ ودمعي مسفوحُ
ووجهت وجهي نحو جودك ضارعاً	لعل الرضى من جنب حلمك ممنوحُ
أتيت فقيراً والذنوب تؤذني	وفي القلب من خوف الجرائم تبريحُ
ولم أعتمد إلا الرجاء وسيلةً	وإخلاصُ إيماني به الصدر مشروحُ
وأنت غني عن عذابي وعالمٌ	بفقري وباب العفو عندك مفتوحُ
فهب لي عفواً من لذنك ورحمةً	يكون بها من ربة الذنب تسريحُ
وصل على المختار ما همع الحيا	وما طلعت شمسٌ وما هبت الريحُ

وأبرز ما تدور حوله الأبيات: الضراعة إلى الله تعالى والتذلل عند أبواب رحمته، وطلب العفو والمغفرة.

(٩)

ومن الملاحظات على شواهد الشواهد أنّ جماعة (المذهب الخفاجي) في الأندلس جاروا شيخهم ابن خفاجة، فنظموا مثله، وبعضهم جرى على نمطه، وأوصوا بكتابة ما نظموه على قبورهم، وفيهم ابن أخته: ابن الزقاق البلنسي، وأبو المطرف بن عميرة المخزومي، وأبو بكر الكتندي، ومالك بن المرّحل، وأبو البقاء الرندي، وغيرهم من أهل زمانه، أو ممن جاراه، واتبع طريقته في الأعصر التالية.

وقد قال ابن خفاجة في مطلع قطعته:

خليلي هل من وقفةٍ لتألمٍ على جدتي أو نظرةٍ لترحمٍ
وقال ابن الزقاق:

أخواننا والموت قد حال دوننا وللموت حكمٌ نافذٌ في الخلائقِ
وقال أبو بكر الكتندي:

حيّ قبراً بالبقيع حوى ذا اغتراب حطّ أرحلّه
وقال ابن مغاور الشاطبي:

أيها الواقف اعتباراً بقبري استمع فيّ قول عظمي الرّميمِ
وقال أبو البقاء الرندي:

خليليّ بالودّ الذي بيننا اجعلا إذا متُّ قبري عرضةً للترحمِ
وظاهر التقارب في مقاصد الكلام بين هذه النصوص، واستئناس أتباع
المذهب الخفاجي بما بدأ به ابن خفاجة، وبقي لكل واحدٍ منهم أسلوبه.

وتتجمهر مفرداتٌ كثيرة في هذه النصوص لتشكّل معجماً صغيراً
يتداول مفرداته الشعراء، كلّ على طريقته، وتشيع أفكار ومعان ومقاصد
ورؤى في نصوص شواهد الشواهد: تدور حولها تلك النصوص مع احتفاظ
كل شاعر بأسلوبه في العرض والتناول، وتحقيق الغرض وتفرّغ العاطفة
واستيفاء المقصود.

وفي معجم ألفاظ شواهد الشواهد:

- مفردات الاعتراف بالتقصير، والانسياق مع مشاغل الدنيا، والغفلة
عن الآخرة.

- ومفردات الإنابة والعودة إلى الحق، والضراعة، وطلب المغفرة،
كقول ابن شهيد:

يا رب عفواً فأنت مولّي قصّر في شكره العبيدُ

- ومفردات الأمل والرجاء، والتفاؤل بالعفو والمغفرة والظفر بالجنة،
والنجاة من النار.

- ومفردات التقرب إلى الله تعالى برسول الله صلى الله عليه وسلم،
وارتقاب الشفاعة، كقول شوقي:

يا أحمدَ الخير لي جاءَ بتسميتي وكيف لا يتسامى بالرسول سَمِي؟

- ومفردات النصح والإرشاد، والاعتبار، عسى أن يستدرك قارئ
الشعر على الشواهد أمر نفسه، ويأخذ مما يرى العظة والعبرة كقول ابن
مغاوير الشاطبي:

أيها الواقف اعتباراً بقبري استمع في قول عظمي الرميم
وقول أبي بكر الكندي:

حيّ قبراً بالبقيع حوى ذا اغترابٍ حطَّ أَرْحَلُهُ

- ومفردات ما يسمى به القبر وما حوله كالجدث والضريح، والمثوى،
والحجارة، والترب، والتراب، والرمل، واللحد. وفي شعر أبي نواس:

وعظتك أجداتٌ ونَعْتُكَ أزمنةٌ عَفْتُ

- ومفردات الشماتة وردّ الشماتة كقول ابن منير الطرابلسي:

من زار قبري فليكن موقناً أن الذي ألقاه يلقاه

وقول أبي عامر الشلبي في آخر قطعته:

فقل للذي سرّه مصرعي تأهّب فإنك بي لاحق!

- ومفردات التلوم الذاتي، كقول أبي خالد الوادي أشي:

وإن كنتُ وافيته مجرماً فإنني في عطفه أطمعُ

وقول عائشة التيمورية:

فأتيت صفر الكفّ عن مرّضاته ومقرّةً بالعجز والعصيان

خاتمة:

أشعار شواهد الشواهد نمطٌ خاصٌّ من الشعر، له أسبابه ودوافعه وله

مزاياه وخصائصه، وهو بوح ذاتي شخصي في موضوع الحياة والموت، يُنقش في لوح يُعرض على الناس ما دام الحدث قائماً. وعلى اختلاف طبيعة النصوص ثمة ملامح عامة غالبية تشمل هذه النصوص، وهي صادرة عن الحسن المرهف، والذائقة الشعرية العالية، والانفعال العاطفي بالموقف.

وهي تعبر عن ذوات أصحابها في المقاصد الواردة فيها وفي أسلوبها وصياغتها. وهي مصقولة الأسلوب متقنة الصياغة، تصدر عن الناظمين: سلسلة، سهلة، متدفقة موجزة (إلا ما سبقت الإشارة إليه من شعر سلام الباهلي والمعتمد بن عباد) مؤدية الغرض الذي قصد إليه الشاعر، وتظهر العاطفة قوية غامرة.

ومن هذه المطابقة بين موقف الشاعر، وحاله، وهو ينظم الشعر، وبين النص الذي صدر عنه - ما رواه أبو جعفر الصائغ قال: «لما احتضر أبو نواس قال: اكتبوا هذه الأبيات على قبري»^(٧٩):

وعظمتك أجداتٌ صُمّت ونعتك أزمنة عُفّت
وتكلمت عن أوجه تبكي وعن صورٍ سُبّت
وأرتك قبرك في القبو وأنت حيٌّ لم تمّت!

وهذه القطعة مع قطع أخرى لأبي نواس تصوّر حاله في المدة الأخيرة من حياته، وتعبر عنها.

ثم أقول: إن هذه القصائد والقطع من أشعار (الشواهد) نمط خاص من الشعر تغلب عليه الرقة وجيشان العاطفة، وتشكل ملمحاً أدبياً خاصاً، وهي موصولة المعاني والأفكار والألفاظ والأساليب بعناصر متشابكة من الفكر الإسلامي وفلسفة الحياة والموت، والالتفات إلى آخر موقع للإنسان بعد نهاية

الحياة، وفي رغبة الشعراء في أن تسجل على شواهدهم قطع من أشعارهم في ما يكتبون وينظمون توجه إلى الغفور الرحيم، وخطاب من الشاعر إلى أهله وصحبه، وإلى كل من يمرّ على الضريح فيدعو، ويعتبر، وإلى نفسه، وعن نفسه أيضاً، بين رحمة يطلبها وراثاً يرثي به نفسه، وضراعة وإنابة، إلى غير ذلك من البوح والدعاء والرجاء، وهو نمط عالٍ من الشعر الوجداني!

* * *

المصادر والمراجع

- ابن خفاجة - محمد رضوان الداية - دار قتيبة - الطبعة الثانية - دمشق.
- أنموذج الزمان في شعر القيروان - ابن رشيق القيرواني - جمعه وحققه العروسي المطوي وبشير البكوش - الدار التونسية للنشر - ١٩٨٦.
- أبو البقاء الرندي - محمد رضوان الداية - دار سعد الدين - دمشق - الطبعة الأولى.
- اختصار القدح المعلى لابن سعيد الأندلسي - تحقيق إبراهيم الإيباري - القاهرة - ١٩٥٩.
- أدباء مالقة لأبي بكر بن خميس المالقي - تحقيق د. صلاح جرار - مؤسسة الرسالة - بيروت.
- إنباه الغمر بأبناء العمر - ابن حجر العسقلاني - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة - الطبعة الأولى.
- الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني - دار الكتب المصرية - القاهرة - الطبعة الأولى.

- البصائر والذخائر - أبو حيان التوحيدي - تحقيق إبراهيم الكيلاني - مكتبة أطلس - دمشق - الطبعة الأولى.
- بغية الطلب في تاريخ حلب - ابن العديم - تحقيق سهيل زكار - دمشق - ١٩٨٨ - الطبعة الأولى.
- بدع القبور: أنواعها وأحكامها لصالح بن مقبل العصيمي النعيمي - دار الفضيلة - الرياض - ٢٠٠٥.
- برنامج شيوخ الرُّعيني - تحقيق إبراهيم شُبّوح - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٢.
- تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي - (طبعة مصورة عن الطبعة المصرية).
- التكملة لابن الأبار - نشر عزة العطار الحسيني - القاهرة ج ١.
- تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات - محيي الدين أفندي - صححه نصر الهوريني - المطبعة الكبرى - مصر - ١٢٨١هـ.
- تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر - عبد القادر بدران - دمشق - ١٣٢٩هـ.
- الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - دار الكتب المصرية - القاهرة - الطبعة الأولى.
- جذوة المقتبس - الحميدي - تحقيق محمود بن تاويت الطنجي - القاهرة - ١٩٥٢م.
- خريدة القصر وجريدة العصر - شعراء الشام - العماد الأصفهاني - تحقيق د. شكري فيصل - مجمع اللغة العربية - دمشق.
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة - ابن حجر العسقلاني - المكتبة الحديثية بمصر - ١٩٦٧م.
- ديوان أحمد شوقي - تحقيق د. أحمد الحوفي - دار نهضة مصر - القاهرة - الطبعة الأولى.

- ديوان أحمد الكيواني - دمشق - المطبعة الحفنية - ١٣٠١ هـ.
- ديوان أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي - جمع محمد المرزوقي - تونس - ١٩٧٤ م.
- ديوان جمال الدين بن مطروح (مع ديوان عباس بن الأحنف) - القسطنطينية - مطبعة الجوائب - ١٢٩٨ هـ.
- ديوان ابن خفاجة - تحقيق سيد مصطفى غازي - منشأة الإسكندرية - مصر - ١٩٦٠ م.
- ديوان ابن الزقاق البلنسي - تحقيق عفيفة ديراني - دار الثقافة بيروت - الطبعة الأولى.
- ديوان أبي الطيب المتنبي - تحقيق عبد الوهاب عزام - القاهرة - ١٩٤٤ م.
- ديوان أبي العتاهية - تحقيق د. شكري فيصل - دار الملاح - دمشق - الطبعة الأولى.
- ديوان مجنون ليلي (قيس بن الملوح) - عبد الستار فراج - القاهرة - الطبعة الأولى.
- ديوان محمود الموقع - مطبعة السعادة بمصر - الطبعة الأولى.
- ديوان ابن منير الطرابلسي - ابن منير الطرابلسي - جمعه د. عمر عبد السلام تدمري - دار الجيل - بيروت - ١٩٨٦ م.
- ديوان أبي النواس - دار صادر بيروت - ١٩٩٨ م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - ابن بسام الشتريني - تحقيق د. إحسان عباس - الدار العربية للكتاب - ١٩٧٥-١٩٧٨ م.
- الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي - تحقيق د. إحسان عباس - بيروت - الطبعة الأولى.

- الروض المعطار في خبر الأقطار - الحميدي - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت.
- سير أعلام النبلاء - الذهبي - مجموعة من المحققين بإشراف أ. شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - دمشق - الطبعة الأولى.
- شواهد قبور إسلامية من جبانة صعدة باليمن - تأليف مصطفى عبد الله شيحة - تقديم د. سعاد ماهر - نشر مدبولي - القاهرة - ١٩٨٨م - ١٤٠٨هـ.
- الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع - السخاوي (طبعة مصورة).
- طبقات الشعراء - ابن المعتز - تحقيق عبد الستار فراج - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثامنة.
- طوق الحمامة في الألفة والألاف - ابن حزم الأندلسي - تحقيق د. إحسان عباس.
- فوات الوفيات - ابن شاعر الكتبي - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى.
- الكامل في التاريخ - ابن الأثير - دار صادر - بيروت.
- كتاب شواهد القبور - مقبرة باب الصغير - مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية.
- المثلث والمثاني - حليم دموس - الجزء الأول - ١٩٢٦م، والجزء الثاني ١٩٣٠م - مطبعة الوفاء - صيدا.
- المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا - القاضي النباهي - تحقيق ليفي بروفنسال - القاهرة - ١٩٤٨م الطبعة الأولى.
- مرآة الزمان - سبط ابن الجوزي - حيدر آباد الدكن: ١٩٥١-١٩٥٢م.
- مرج الكحل الأندلسي - سيرته وشعره - تحقيق د. صلاح جرار - دار البشير - عمان ١٩٩٣م - الطبعة الأولى.

- المطرب في أخبار المغرب - ابن دحية الكلبي - تحقيق إبراهيم الإياري - القاهرة ١٩٥٦ م.
- معجم الأدباء - ياقوت الحموي (١-٢٠) - طبع مصر (١٩٣٦-١٩٣٨ م).
- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي - تحقيق شوقي ضيف - دار المعارف بالقاهرة - ١٩٥٥ م.
- نفع الطيب - المقري - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٦ م.
- نور الكمائم وسجع الحمائم - ابن مغاور الشاطبي - تحقيق د. محمد شريفة - الرباط.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء - أبو البركات بن الأنباري - تحقيق أبو الفضل إبراهيم - دار نهضة مصر - ١٩٦٧ م - الطبعة الثانية.
- وفيات الأعيان - ابن خلكان - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٦٨-١٩٧٢ م.
- الوافي بالوفيات - الصفدي - (النشريات الإسلامية) - (عدد من المحققين).
- الوزير المغربي أبو القاسم الحسين بن علي - دراسة د. إحسان عباس - دار الشروق للنشر - عمان - الطبعة الأولى ١٩٨٨ م.

* * *

إعراب المثنى والجمع الذي على حده

أ. د. إبراهيم محمد عبد الله (*)

مقدمة:

يتخذ هذا البحث من الحرفين اللذين يضافان إلى الاسم المفرد ليصبح مثنى أو جمع مذكر سالماً مضمراً له، وهما النون وحرف المدّ واللين، ففي المثنى تزداد الألف أو الياء للدلالة على معنى التثنية، وفي الجمع الذي على حده يزداد الواو أو الياء للدلالة على معنى الجمع أيضاً، فالعلامة الدالة على معني التثنية والجمع حرف المدّ واللين، ثم تزداد النون بعده فيهما. والغرض الوقوف على آراء النحويين في هاتين الزيادتين، وما اصطّفوه فيهما ورأوه صواباً وموازنته بما يقال في إعراب المثنى وجمع المذكر السالم في المراحل التعليمية والانتهاؤ إلى القول الصائب اليسير، وقد دار البحث حول هذه الأفكار:

- ١- مذاهب النحويين في نون المثنى وجمع المذكر السالم.
- ٢- مذاهب النحويين في حرف المدّ واللين المزيد لإفادة معنى التثنية أو الجمع السالم.
- ٣- مناقشة ما يقال في إعراب المثنى والجمع السالم.
- ٤- نتائج البحث.

(*) أستاذ النحو والصرف في قسم اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة دمشق.

مذاهب النحويين في نون المثني والجمع الذي على حده:

يرى جمهور النحويين البصريين أن هذه النون عوضٌ عما كان في الاسم المفرد من الحركة والتنوين، إذ الاسمُ بحكم اسميته لا بدّ له من حركة؛ لأنها أمانة على موقعه النحوي في الجملة، فهي تشير إلى أنه فاعل أو مفعول أو غير ذلك، والتنوين علامة على تمكّنه من الاسمية ودليلٌ على أنه منصرف^(١)، وقد جاءت الإشارة واضحة عند سيويه وجمهور البصريين إلى أن النون في المثني والجمع السالم عوض عن التنوين والحركة اللذين كانا في الاسم المفرد، قال سيويه: «واعلم أنك إذا تثبت الواحد لحقته زيادتان، الأولى منهما حرف المدّ واللين، وهو حرف الإعراب غير متحرك ولا منون، يكون في الرفع ألفاً...، وتكون الزيادة الثانية نوناً، كأنها عوض لِمَا مُنِعَ من الحركة والتنوين»^(٢).

وقال أيضاً: «وإذا جمعت على حدّ الثنية لحقتها زائدتان، الأولى منهما حرف المدّ واللين، والثانية نون... وذلك قولك: المسلمون، ورأيت المسلمين، ومررت بالمسلمين»^(٣).

ومثل ذلك رأى المُبرّد نون الثنية إذ قال: «والزائدة الثانية [أي نون الثنية] إنما هي بدل ممّا كان من الحركة والتنوين»^(٤)، وعلّل ذلك فقال: «لأن الحركة والتنوين من حق الأسماء»^(٥)، ونون الجمع السالم كنون الثنية عنده، قال: «وأما النون فبدل من الحركة والتنوين اللذين كانا في المفرد»^(٦).

(١) انظر شرح الكتاب للسيرافي: ٢٢٦/١ [القاهرة]، وشرح المفصل لابن يعيش: ٢٣١/٤.

(٢) الكتاب: ١٧/١-١٨، وانظر علل الثنية: ٦٠، وشرح الكافية للرضي: ٨٥/١، ٨٨/١.

(٣) الكتاب: ١٧/١.

(٤) المقتضب: ١٥٣-١٥٤.

(٥) المقتضب: ١٥٤/٢.

(٦) المقتضب: ٥/١، وانظر العلل في النحو: ١٦٣.

وما قاله سيبويه والمبرد قاله ابن جنّي^(٧) وابن يعيش^(٨) وابن الحاجب^(٩)، وأكدوا أن هذه النون معوّض بها عن الحركة والتنوين جميعاً لا عن واحد منهما، قال ابن جنّي: «النون في التثنية عَوْضٌ مما منع الاسم من الحركة والتنوين جميعاً»^(١٠)، وكذا قال ابن يعيش^(١١)، وقال الرضيّ مفسّراً كلام سيبويه وحاكه: «النون في الأصل عوض عن حركة الواحد وتنوينه معاً»^(١٢).

فكلمتا جميعاً ومعاً تؤكدان أنّ النون عوض عن الحركة والتنوين كليهما، وإن كان سيبويه والمبرد لم يستخدمهما^(١٣).

ورأى (الورّاق) أن المثني والجمع السالم يجب أن يكون لهما علامة تميزهما من المفرد، وأن هذه العلامة هي النون التي عوّض بها عن الحركة والتنوين، قال: «فإن قال قائل: فلم دخلت النون في التثنية والجمع؟ قيل له: عوضاً من الحركة والتنوين، فإن قال قائل: فلم يجب أن يعوّض من الحركة والتنوين؟ قيل له: لأن من شرط التثنية وهذا الجمع أن يكون له علامة مزيدة على لفظ الواحد، فكان يجب أن تلحقه الحركة والتنوين»^(١٤).

سُتُّ أقوال النحويين فيما سلف مع أنها لا تخرج عمّا قال سيبويه لتوكيد أركان البحث وتسديدها وتقوية ما سينتهي إليه.

إلا أن بعض النحويين لمّا رأى أن حرف المد واللين في المثني والجمع

(٧) انظر للمع: ١٩.

(٨) انظر شرح المفصل: ٤/٢٣١، ٥/١٤.

(٩) انظر الإيضاح في شرح المفصل: ١/٥٠٧.

(١٠) سر الصناعة: ٤٨٧.

(١١) انظر شرح المفصل: ٥/١٤.

(١٢) شرح الكافية: ١/٨٨.

(١٣) انظر ما سلف ص: ٢.

(١٤) العلل في النحو: ١٦٣.

حرف إعراب لا تظهر عليه حركة الإعراب ولا تُقدَّر على ما سيأتي بدا له أن هذه الحركة في حكم المعدوم، وخَلَصَ إلى ترجيح أن تكون النون عوضاً من الحركة في المشى المحلّى بالألف واللام، وعوضاً من التنوين في المشى المضاف، وعوضاً من الحركة والتنوين في المشى المعرّى منهما، قال الرضي: «والحركة وإن كانت مقدّرة على الحروف عند بعض أصحابه [أي سيويه] لكنّ لَمَّا لم تظهر كان كالعدم، ثم إنه رُجِحَ جانب الحركة مع اللام، أي جعل النون عوضاً منها بعدما كان عوضاً منهما [أي الحركة والتنوين]، فثبت معها ثبات الحركة، وجانبُ التنوين مع الإضافة، فحُذِفَ معها حَذْفُ التنوين، فهي في نحو جاني رجلان عوض منهما، وهو الأصل، وفي الرجلان عوض من الحركة فقط، وفي رجلا زيد من التنوين فقط»^(١٥).

ولا يُعوّض عن الحركة والتنوين ولا عن أحدهما في حال الوقف في نحو «رجلان»، وتثبت النون لأنها لا تسقط من اللفظ في الوقف كما يسقط التنوين والحركة، ولكنها ليست للتعويض حينئذ، قال الرضي: «وفي رجلان وقفاً ليس عوضاً منهما ولا من أحدهما»^(١٦).

وحكى العكبري عن بعض البصريين الأحوال الثلاث السالفة في نون التثنية والجمع^(١٧)، وابنُ جنّي بصريُّ المذهب أشار إلى أن الأصل في نون التثنية أن يُعوّض بها عن حركة الاسم المفرد وتنوينه، قال: «إلا أن أصل وَضْعِهَا [أي نون التثنية] أن تكون داخلة عوضاً ممّا مُنِعَ الاسمُ منهما»^(١٨)،

(١٥) شرح الكافية: ١/ ٨٨.

(١٦) شرح الكافية: ١/ ٨٨، وانظر شرح المفصل لابن يعيش: ٤/ ٢٣١-٢٣٢.

(١٧) انظر الباب في علل البناء والإعراب: ١/ ١٠٥.

(١٨) علل التثنية: ٨٤.

واستدلَّ على ذلك^(١٩)، وانتهى إلى أنَّ لنون التثنية والجمع الأحوال الثلاث السالف ذكرها، ثم تبَّه على صحة ما ذكره من أحوال النون الثلاث في المثني، فقال: «فقد صحَّ ما ذكرناه أن النون في التثنية تكون في موضع عوضاً من الحركة والتنوين جميعاً، وفي موضع عوضاً من الحركة وحدها، وفي موضع عوضاً من التنوين وحده»^(٢٠).

وهذا التقسيم لأحوال النون في المثني موافقٌ لكلام سيويه على رأي في تفسيره، إذ قال عن هذه النون: «كأنها عوض عن التنوين والحركة»^(٢١)، فإذا حُمِل قوله: «كأنها عوض» على ظاهره في إفادة «كأن» معنى التشبيه فالنون جيءَ بها عوضاً عن الحركة تارةً وعن التنوين تارةً أخرى، لا عوضاً عن الحركة والتنوين؛ لأنَّ النون كالعوض وليست عوضاً، وعلى هذا النحو فهم أبو حيان مقالة سيويه إذ قال: «وذهب سيويه إلى أن النون زيادة في الآخر ليظهر فيها حُكْم الحركة التي كان ينبغي أن تكون في التثنية والجمع تارة، وحكْم التنوين أخرى من غير أن تكون عوضاً عن الحركة والتنوين، ولذلك قال سيويه: «كأنها» فشبَّهها بالعوض، ولم يجعلها عوضاً»^{(٢٢)*}.

(١٩) انظر علل التثنية: ٨٤.

(٢٠) علل التثنية: ٨٤، وانظر: ٨١-٨٣ منه.

(٢١) الكتاب: ١/١٨.

(٢٢) التذييل والتكميل: ١/٣٠١.

(*) [ولعلَّ فيما قاله أبو حيان في بيان مذهب سيويه في النون، وتابعه عليه الباحث، نظراً. ذلك أن تدبَّر نصَّ سيويه في الكتاب، وهو قوله: «كأنها عوض عن التنوين والحركة». يدلُّنا على أنَّ النون في المثني في رأي سيويه عوضٌ من مجموع التنوين والحركة في المفرد؛ لأنَّ عطف «الحركة» على «التنوين» بالواو يدلُّ على معنى الجمع الذي تدلُّ عليه الواو في أصلها. ولا فرق في ذلك بين أن تكون «كأن» في عبارته للتشبيه أو =

وعلى النحويون البصريون التعويض بالنون عن التنوين المحذوف من المضاف وعن الحركة في المثنى والجمع السالم المعرفين بالألف واللام بأن الإضافة والألف واللام لا يكونان حيث يكون التنوين، فهما متعاقبان، إذا كان أحدهما تعذر الآخر، قال الورداني: «فإن قال قائل: فلم صار التنوين يُعاقب الألف واللام والإضافة؟ قيل له: لأن التنوين إنما يدخل الاسم ليُعلم أنه منصرف، وقد بينا أن جميع ما تدخله الألف واللام والإضافة ينصرف»^(٢٣).

والنون التي في المثنى والجمع السالم المعرفين بالألف واللام عوض عن الحركة؛ لأنهما إذا عُرفا بالألف واللام تُثقل ودلاً على معيّن، فإذا نُونا ازدادا ثقلاً، لذا لا يجتمع الألف واللام والتنوين، فلا يعوّض عن شيء معدوم، قال العكبري: «وإنما لم يجتمع التنوين والألف واللام لوجهين: أحدهما: أن الاسم تُثقل بالألف واللام، فلم يحتمل زيادة أخرى.

والثاني: أن الألف واللام يُعرّف الاسم، فيصير متناوياً لشيء بعينه، فيثقل بذلك بخلاف النكرة، فإنها أخفّ الأسماء»^(٢٤).

ورأى ابن يعيش في حذف النون من المضاف وإثباتها في المعرف بالألف واللام إرادة حصول التعادل بينهما، قال: «فإن قيل: فإذا كانت النون عوضاً من الحركة والتنوين جميعاً فما بالها تحذف مع الإضافة مع ثبوت أحد بدلئها وهو الحركة؟ قيل: لمّا ثبتت مع الألف واللام مع حذف أحد بدلئها وهو التنوين حذفت مع الإضافة مع ثبوت أحد بدلئها وهو الحركة ليعتدلاً»^(٢٥).

= التقدير أو التقريب أو التحقيق؛ لأن مفتاح فقه عبارة سيبويه هنا دلالة الواو، لا دلالة «كأن». ودلالة «كأن» على التشبيه والتقدير هنا لا تصفي على عبارة سيبويه عند التأمل معنى التفصيل والتفريق الذي يتراءى من نصّ أبي حيّان]. المجلة.

(٢٣) العلل في النحو: ١٧٥.

(٢٤) اللباب في علل البناء والإعراب: ٧٧/١.

(٢٥) شرح المفصل: ١٤/٥.

فالنون عندما تحذف من المضاف عوض من التنوين فيه، وعندما تثبت في المعرّف بالألف واللام عوض من الحركة، ذلك لأن الحرف إذا كان له دلالة على أمرين، وبَعْدَ أن يدلّ على واحد منهما وجب أن يدلّ على الآخر، وهذا ما أشار إليه العكبري إذ قال: «وكلُّ حرف دلّ على شيئين، وتعدّر دلالاته على أحدهما وجب أن يبقى دالًّا على الآخر»^(٢٦).

غير أنّ الأقوال السالفة التي صدرت عن ابن جني والورّاق وابن يعيش وابن الحاجب والرضي - وكلهم بصريّ - تشهد أنهم يرون أن النون في المثني والجمع السالم عوض عن الحركة والتنوين، يؤيد هذا ما جرى على لسان ابني جنّي ويعيش من استخدام كلمة «جميعاً»، وكلمة «معاً» على لسان الرضي^(٢٧).

وهذا الأصل في النون أن تكون عوضاً عن الحركة والتنوين، ولو كانت عوضاً من التنوين وحده لحذفت من المعرّف بالألف واللام والمضاف، ولو كانت عوضاً من الحركة وحدها لرأيناها في المضاف والمعرّف بالألف واللام، وإلى هذا ألمح ابن جني^(٢٨).

والظاهر أنه ومن سبق ذكره من البصريين فهموا من قول سيبويه: «كأنها عوض عن الحركة والتنوين» معنى التحقيق لا التشبيه، فحملوا «كأن» عليه، ورأوا أن النون عوض عن الحركة والتنوين، وهو ما وجّه به كلام سيبويه السيرافي^(٢٩) والفراسي^(٣٠)، قال أبو حيان: «ومن الناس من حمل كلام سيبويه على أنها عوض منهما، وزعم أن «كأن» قد تستعمل للتحقيق بمنزلة

(٢٦) الباب في علل البناء والإعراب: ١/١٠٦-١٠٧.

(٢٧) انظر ما سلف ص: ٣.

(٢٨) انظر ما سلف ص: ٣.

(٢٩) انظر شرح الكتاب له: ١/١٣٧ [بيروت].

(٣٠) انظر التعليقة على كتاب سيبويه: ١/٣٤-٣٥.

«إِنَّ»^{(٣١)*}. وربما كان وراء هذا التقسيم للنون وتعدادِ أحوالِ ثلاثٍ لها الرغبة في التيسير والتسهيل واستيعاب حالاتها كلها. هذا رأي جمهور البصريين في نوني التثنية والجمع السالم، وما ذهبوا إليه من تفرعات فيهما وتقسيمات.

وذهب الكوفيون إلى أن هاتين النونين عوض عن التنوين وحده، واستدلوا بسقوط النون في نحو «جاء غلاماً زيد»، قال ابن الحاجب في كلامه على نون التثنية: «وأما الكوفيون فيقولون: إنها عوض عن التنوين، ويستدلون بقولك: جاءني غلاماً زيد، فحذفها يدلُّ على أنها كالتنوين»^(٣٢).

وأشار ابن جني إلى مذهب الكوفيين هذا من دون نسبة، وضعفه ودفعه مستدلاً بأن النون لو كانت عوضاً من التنوين وحده لكانت الحركة التي كانت في المفرد غير مَعْوُض عنها، إذ لا تُقَدَّر على حرف المدِّ واللين، وأن المشنى اسم معرب يحتاج إلى حركة، ولا بدَّ من تعويض فيه لأن مفرده معرَب بالحركة، قال: «فأما مَنْ ذهب إلى أن النون عوض من التنوين وحده، وأنها إنما تثبت مع لام المعرفة لأنها بحركتها أقوى من التنوين فيفسدُ قوله عندي لأنه لم يعوِّض من الحركة شيئاً، وقد دلَّت الدلالة الصحيحة على أن ألف التثنية ليس فيها تقدير حركة في معناها كما أنها ليست موجودة في لفظها، وإذا كان كذلك وكان الاسم المشنى معرباً كما كان الواحد معرباً فقد يجب أن يُعوِّض من حركة إعرابه، فلهذا قلنا: إن النون في التثنية عوض ممَّا مُنِع الاسم من الحركة والتنوين جميعاً»^(٣٣).

(٣١) التذييل والتكميل: ٣٠١/١.

(*) [هكذا قال الباحث. وللقارئ أن يسأل: هل تثبت النون في المضاف في نحو: كتابا زيد، وفاعلو الخير؟] المجلة.

(٣٢) الإيضاح في شرح المفصل: ٥٠٧/١.

(٣٣) سر الصناعة: ٤٨٧.

ومما يردُّ على قول الكوفيين أن التنوين لا يكون إلا بالحركات التي هي من جنس حركة الإعراب، نحو «هذا زيدٌ»، و«مررت بزيدٍ»، و«رأيت زيداً»، فبأي شيء حصل التنوين الذي عُدت النون عوضاً منه إذا كان حرف المدّ واللين علامة إعراب؟ وكيف يمكن التوفيق بين كون حرف المدّ واللين حركة إعرابية وبين كون النون عوضاً من التنوين؟ هذا مع أن التنوين لا يحصل إلا بالحركة الإعرابية، قال السيرافي: «التنوين شيء يصحب الحركات كلّها... والدليل على ذلك أنك تقول: رأيت زيداً، ومررت بزيدٍ، وهذا زيدٌ، فالتنوين موجود في الأحوال كلّها»^(٣٤).

وفيما ذهبوا إليه جمعٌ بين علامتي إعراب على الاسم الواحد، هما علامتا التثنية والجمع والتنوين.

وقد أجاب البصريون على ثبوت النون في المثني والجمع السالم المعرّفين بالألف واللام بأن الاسم المفرد عندما تُثني أو جُمع نُكّر، إذ لا يُثنى ولا يُجمع إلا منكرٌ، فسقط عنه التعريف والتعيين، وأصبح واحداً من آحاد كثيرة غير معيّن، ودخله النون عوضاً عن التنوين والحركة اللذين كانا في مفرده المنكر، ثم أُضيف إليه الألف واللام وفيه النون، ولم تُحذف لأن الوقف عليها لا يزيلها من النطق كما يزيل التنوين، قال ابن يعيش: «النون دخلت قبل دخول الألف واللام عوضاً من الحركة والتنوين، ثم دخلت الألف واللام للتعريف؛ لأنّ التثنية لا تصحُّ مع بقاء تعريفه، ألا ترى أنك لو رُمت تثنية الرجل مع بقاء ما فيه من التعريف لُرُمت مُحالاً؟ لأنّ الرجل معيّن مقصود إليه، فإذا تُثناه زال التعيين، وصار من أُمَّة، كلُّ واحد له مثل اسمه، وهذان معنيان متدافعان، فصحَّ أنك لَمَّا أردت تثنيته نزعته عنه الألف واللام حتى صار نكرة، ودخلت النون

(٣٤) شرح الكتاب: ٢٦/١ [بيروت].

عوضاً من الحركة والتنوين، ثم دخلت الألف واللام حينئذٍ للتعريف، ولم يُزيلا النون كما أزالا التنوين؛ لأنَّ التنوين ساكن زائل في الوقف، والنون متحركة ثابتة في الوقف، فلم يَقْوِيا على حذفها^(٣٥).

وأجابوا أيضاً عن حذف النون من المثني والمجموع المضافين بأمرين:

١- أن المضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد، والنون والتنوين

يفصلان الكلمة عمّا بعدها.

٢- أن النون حُذفت من المضاف لأنَّ المضاف إليه حلَّ محلَّ التنوين،

ولا يجتمع على الاسم تنوينان^(٣٦).

حرف المدّ واللين في المثني والجمع الذي على حده:

اختلف النحويون في هذا الحرف، وكان لهم مذاهب في اسمه ووظيفته

النحوية ودلالته المعنوية، والبيان على هذا النحو:

١- حرف إعراب:

ذهب سيبويه وجمهورُ البصريين إلى أن حرف المد واللين في المثني

والجمع السالم حرف إعراب^(٣٧)، أي حرفٌ معرّض لظهور حركة الإعراب

عليه أو تقديرها، كالدال من زيد والراء من جعفر والألف من رَحَى وَعَصَا،

ولكن لا تقدّر حركة الإعراب عليه ولا تُنَوَى^(٣٨).

(٣٥) شرح المفصل: ٤/ ٢٣١-٢٣٢، وما قاله ابن يعيش كلام السيرافي، انظر حاشية شرح

المفصل: ٤/ ٢٣١.

(٣٦) شرح الكتاب للسيرافي: ١/ ١٣٩ [بيروت].

(٣٧) انظر شرح الكتاب للسيرافي: ١/ ١٣٢ [بيروت]، ونسب هذا القول إلى البصريين في

الإنصاف: ١/ ٣٣، وانظر ما سيأتي ص ٢١.

(٣٨) انظر شرح الكتاب للسيرافي: ١/ ١٣٣ [بيروت]، وعلل الثنية: ص ٥٨-٥٩، وسر

الصناعة: ٧٠٦، وما سيأتي ص ٢٤-٢٥.

٢- حرف معنى:

حرف المدّ واللين أيضاً له دلالة معنوية، فهو أمانة على معنى التثنية، قال ابن جني: «اعلم أن الألف زيدت في الاسم المثني عَلَمًا للتثنية»^(٣٩).

٣- دليل إعراب:

ذهب الأخفش والمازني والمبرد إلى أن حرف المدّ واللين في المثني والجمع السالم دليل على الإعراب، واستدلّ الأخفش بأن هذا الحرف يشير إلى الحالة الإعرابية للمثني والجمع من رفع أو نصب أو جرّ، فإذا رأينا الألف فيهما علمنا أنهما مرفوعان، وإذا رأينا الياء فيهما علمنا أنهما منصوبان أو مجروران، فحرف المدّ واللين أرشد إلى حركة الإعراب^(٤٠). قال المبرد: «والقول الذي نختاره ونزعم أنه لا يجوز غيره قول أبي الحسن الأخفش ذلك أنه يزعم أنّ الألف إن كانت حرف إعراب فينبغي أن يكون فيها إعراب هو غيرها كما كان في الدال من زيد، ولكنها دليل على الإعراب لأنه لا يكون إعرابٌ ولا إعرابَ فيه، ولا يكون إلا في حرف.

قولنا: دليل على الإعراب إنما هو أنك تعلم أن الموضع موضع رفع إذا رأيت الألف، وموضع خفضٍ ونصبٍ إذا رأيت الياء، وكذلك الجمع بالواو والنون إذا قلت: مسلمون ومسلمين»^(٤١).

وقال الزجاجي: «وقال المازني والأخفش والمبرد: هذه الحروف دليلُ الإعراب، وليست بإعراب ولا حروف إعراب»^(٤٢).

(٣٩) علل التثنية: ٤٧، وانظر شرح المفصل لابن يعيش: ٤/٢٢٥، ١٣/٥.

(٤٠) انظر علل التثنية: ٤٩-٥٠.

(٤١) المقتضب: ٢/١٥٣-١٥٤، وانظر سر الصناعة: ٦٨٥، ومصادر أخرى في شرح

المفصل لابن يعيش: ٤/٢٢٩.

(٤٢) الإيضاح في علل النحو: ١٣٠، وانظر الإنصاف: ١/٣٥.

٤- علامة إعراب:

رأى الفراء وقطرب والزيادي أن حرف المدّ واللين في المشنى والجمع السالم علامة إعراب، فالألف والواو والياء فيهما بمنزلة الحركة الإعرابية في الاسم المفرد، كالضمة في زيد من قولنا: جاء زيدٌ، قال ابن جنّي: «وقال الفراء وأبو إسحاق الزيادي وقطرب: الألف هي الإعراب، وكذلك الياء»^(٤٣).

وممن ذهب إلى هذا الرأي وأخذ به الحريري^(٤٤) وابن مالك^(٤٥)، وابن هشام الأنصاري^(٤٦)، وابن الحاجب^(٤٧)، إلا أن هذا الأخير رأى أن النون في المشنى لها ثلاث الأحوال التي عدّها الرضي وابن جنّي وغيرهما من البصريين^(٤٨).

ونسب الزجاجي هذا القول إلى الكوفيين كلهم، قال: «قال الكوفيون كلهم: الألف في الثنية والواو في الجمع، والياء في الثنية والجمع هي الإعراب نفسه»^(٤٩)، ونسبه إليهم أيضاً ابن الأنباري^(٥٠).

ومن المعاصرين الذين رأوا أن حرف المدّ واللين بمثابة الحركة الإعرابية في المشنى والجمع السالم الأستاذ سعيد الأفغاني، رحمه الله، قال: «يكون الرفع بالضمة، وينوب عنها ألف في الاسم المشنى وواو الجمع في المذكر السالم... ويكون النصب بالفتحة، وينوب عنها ياء في المشنى وجمع المذكر السالم»^(٥١).

(٤٣) علل الثنية: ٥٠، وانظر مصادر أخرى في شرح المفصل لابن يعيش: ٤ / ٢٣١.

(٤٤) انظر الملحّة في شرح الملحّة: ١ / ١٨٥، ١ / ١٨٨.

(٤٥) انظر شرح التسهيل لابن مالك: ١ / ٧٤، وشرح ابن عقيل: ١ / ٥٦، والتذييل والتكميل: ١ / ٢٨٧، ١ / ٢٩٩.

(٤٦) انظر أوضح المسالك: ١ / ٧٥-٧٦.

(٤٧) انظر الإيضاح في شرح المفصل: ١ / ٥١٣.

(٤٨) انظر الإيضاح في شرح المفصل: ١ / ٥٠٧، وما سلف ص: ٤-٥.

(٤٩) الإيضاح في علل النحو: ١٣٠.

(٥٠) انظر الإنصاف: ١ / ٣٣.

(٥١) الموجز في قواعد اللغة العربية: ٧٤.

ومنهم أيضاً الأستاذ عباس حسن، رحمه الله، إذ كان أشدَّ القائلين بهذا الرأي تعصباً له، فلم يره إلا أكثر الآراء شهرة وإصابة للحقيقة، ولم يُجزَّ إلا الأخذ به وحده، قال: «حكمُ المثنى أنه يُرفع بالألف نيابة عن الضمة... ويُنصب بالياء نيابة عن الفتحة... ويُجرُّ بالياء نيابة عن الكسرة... هذا هو أشهر الآراء في إعرابه»^(٥٢)، ثم قال: «الاقتصار عليه في عصرنا منعاً للفوضى والاضطراب...»^(٥٣).

فالأستاذان المعاصران أخذوا بأن حرف المد واللين علامة إعرابية على سبيل النيابة، ومؤلفاتهما اكتسبت سيورة بين طلاب العلم، ورأينا أن الأستاذ عباس رحمه الله قال ما قال متعللاً بسدِّ باب الفوضى، ولكنَّ سبيلُ أهل العلم والتحقيق أحقُّ أن يُتَّبَع، وما انتهى إليه أهلُ التمهيص والنظر هو الأجدرُّ بالتهديِّ به، وما قاله علماء هذه اللغة هو الذي يُتَّأسى به في العربية.

٥- وهناك رأي رابع قال به الجرْمِيُّ^(٥٤)، هو أن الألف في المثنى حرف إعراب، لكنَّ^(*) انقلابه في حالتي الجر والنصب هو الإعراب، قال ابن جني: «وقال أبو عمر الجرْمِي: الألف حرف الإعراب كما قال سيبويه، إلا أنه كان يزعم أن انقلابها هو إعراب»^(٥٥).

(٥٢) النحو الوافي: ١ / ١٢٠.

(٥٣) النحو الوافي: ١ / ١٢٣.

(٥٤) ونسب إلى غيره، انظر المقتضب: ٢ / ١٥٤-١٥٥، وسر الصناعة: ٦٩٥، ٧١٣، والإنصاف: ١ / ٣٥.

(*) حاشية ص ١٣ = [ضبط الباحث النون من «لكن انقلابه» بالسكون ضبط قلم، وهكذا ضبط الياء في قوله ص ١٦: «معني الثنية»، وقوله ص ٢٠: «حرفي الثنية». والصحيح المناسب لقواعد العربية أن تُكسَّر النون والياء في هذه المواضع لالتقاء الساكنين. ويكفي دليلاً أن تنظر في القرآن الكريم، فما من موضع فيه اجتمع فيه ساكنان في كلمتين إلا حُرِّكَ أولهما بالحركة المناسبة التي تقتضيها قواعد العربية. ومن ذلك مثلاً =

٦- وذهب ابن عقيل مذهباً في حرف المدّ واللين، فرأى أن تقدّر عليه الحركة الإعرابية، وبدا له أن هذا هو الصواب، قال: «والصحيح أن الإعراب في المثني والملحق به بحركة مقدّرة على الألف رفعاً والياء نصباً وجرّاً»^(٥٦).

تلك أشهر الآراء في حرف المدّ واللين في المثني والجمع السالم، وكان للنحويين منها مواقف وآراء، إذ قوّوا بعضها واعتمدوه، وضعّفوا بعضها واطّرحوه. فمما دُفِعَ به قول الأخفش والمبرد: إن حرف المد واللين دليل على الحركة الإعرابية - أن معنى الكلمة مستفاد من إعرابها، والذي يشي بهذا المعنى الحركة الإعرابية، وهي ليست في الكلمة، وإنما جعل حرف المد واللين دليلاً عليها لا مفيداً معنى، فقد عوّلنا في فهم معنى الكلمة على شيء محذوف مدلول عليه، وهو بعيد، قال السيرافي: «إذا جعلنا هذه الحروف [أي حروف المدّ واللين في المثني والجمع] دليلاً على الإعراب، والإعراب دالٌّ على المعنى فهذه الحروف غير دالة على معنى الكلمة، وإنما الدالُّ على معناها ما ليس في الكلام، وبعيدٌ أن يُجعل معنى الكلمة معلوماً من غير لفظ الكلمة مع إمكان الاستدلال بلفظها على معناها»^(٥٧).

وأفسد الورّاق هذا القول، وأظهر ما فيه من تناقض بأن حرف المدّ واللين إما أن يدلّ على إعراب في الكلمة أو في غيرها، فإذا دلّ على إعراب فيها فيجب أن يقدر في حرف المدّ واللين لأنه آخر حرف، فهو إذن حرف إعراب، وهذا مذهب سيبويه، وإذا دلّ على إعراب في غيرها فهي مبنية،

= قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبُ الصَّلَاةِ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُلْفًا مِنْ أَيْلٍ﴾ [هود: ١١٤]، وقوله: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوَّارِيَهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران: ١٩٨]. المجلة.

(٥٥) علل الثنية: ٥٠.

(٥٦) شرح ابن عقيل: ٥٨/١.

(٥٧) شرح الكتاب: ١/١٣٤ [بيروت].

والمبرد والأخفش والمازني يرون أن المثني والجمع السالم معربان، قال: «وأما أبو الحسن الأخفش وأبو العباس المبرد ومَنْ تابعهما فيقولون: هذه الحروف دلائل على الإعراب، وليست بإعراب ولا حروف إعراب، وهذا القول فاسد؛ لأنه يقال لقائله: خبرنا عن قولك: إن هذه الحروف الأوائل دلائل إعراب وليست بإعراب ولا حروف إعراب هل يدل على إعراب في الكلمة أو في غيرها؟ فإن قال: تدلُّ على إعراب في الكلمة فلا بدَّ من أن يُقدَّر الإعراب فيها إذ كانت هي أو آخر الكلم، فيرجع إلى قول سيويوه، وتسقط هذه العبارة، أو يقول: تدلُّ على إعراب في غير الكلمة، وما عَدِم إعرابه فهو مبنيٌّ، ومن مذهبه أن التثنية والجمع معربان فيتناقض قوله»^(٥٨).

وممَّا رُدَّ به قول الكوفيين والفراء وقطرب والزيادي ومَنْ قال بقولهم من المعاصرين والمتقدمين: إن حرف المدِّ واللين في المثني والجمع السالم حركة إعراب - أن هذا الحرف إذا حُذِف من المثني والجمع السالم يجب أن يبقى فيهما معنى التثنية والجمع ولا يزول، ذلك لأن حرف المد واللين وَفَّق قولهم بمنزلة الحركة الإعرابية التي تظهر آخر الاسم كالضمة في الدال من قولنا: حضر زيدٌ، فإذا حُذِفَت بقيت الكلمة تدل على معناها الذي كانت عليه، ولكن إذا كانت الألف من قولنا: حضر الزيدان علامة إعراب وحُذِفَت فإن معنى التثنية يَحْتَلُّ ويزول؛ لأن الألف من صيغة الكلمة جيء بها لإفادة معنى التثنية، قال ابن جني: «وأما قول الفراء وأبي إسحاق الزيادي: إن الألف هي الإعراب فهو أبعَدُ الأقاويل من الصواب، قال أبو علي: يلزم مَنْ قال: إن الألف هي الإعراب أن يكون الاسم متى حُذِفَت منه الألف دالًّا من معنى التثنية على ما كان يدل عليه والألف فيه، لأنك لم تَعْرِضْ لصيغة الاسم، وإنما حَذَفَت

(٥٨) العلل في النحو: ١٦٥، وانظر الإنصاف: ٣٥ / ١.

إعرابه، فسيبيل معناه أن يكون قبل الحذف وبعده واحداً كما أن زياداً ونحوه متى حذفت إعرابه فمعناه الذي كان يدل عليه معرباً باقٍ بعد سلب إعرابه»^(٥٩).

فحركة الإعراب تدخل الاسم وتخرج منه ومعناه لم يتغير، وليس كذلك المثنى والجمع السالم إذا حُذِفَ منهما علامتا التثنية والجمع إذا عُدَّ علامتي إعراب وحُذِفتا.

واستدلَّ ابن يعيش أيضاً على فساد هذا الرأي بأن الواو في مِذْرَوَانِ^(٦٠) صحَّت، ولم تُقَلِّبْ، ولو كانت الألف حركة إعراب لُقَلِّبَت الواو ياءً؛ لأنها جاءت رابعة متطرفة كما في أَغْزَيْتُ وَأَدْعَيْتُ، فثبتت الواو دليل على أن الألف من صيغة الكلمة قال: «ويدلُّ على أن الألف في التثنية ليست إعراباً قولهم: مِذْرَوَانِ، ألا ترى أن الألف لو كانت إعراباً لوجب أن تنقلب الواو في مِذْرَوَانِ ياءً لأنها رابعة وقد وقعت طرفاً كما قلبت في أَغْزَيْتُ وَأَدْعَيْتُ»^(٦١).

ورأى ابن يعيش أن الألف والياء والواو في المثنى وجمع المذكر السالم حروف تحمل معنى التثنية والجمع، عُوِّضَ بها عن ضمِّ اسم إلى اسم، واسم إلى اسمين، فهي ذات معنى داخلية في صيغة الكلمة، قال: «فكما كانت الألف في التثنية عوضاً من ضمِّ اسم إلى اسم، وهو معنى الدلالة على التثنية، والثاني - وهو التنوين - عوضاً من الحركة والتنوين على ما قرَّرنا فكذلك الواو في الجمع السالم والياء عوضٌ من ضمِّ اسم إلى اسمين فصاعداً إلى الاسم المذكور، وهو معنى الجمع»^(٦٢).

فإذا كان حال هذه الأحرف على هذا النحو من الدلالة على معنَيي

(٥٩) سر الصناعة: ٧١٦.

(٦٠) «المذروان: ناحيتا الرأس». اللسان (ذرا).

(٦١) شرح المفصل: ٤/٢٣١، وانظر سر الصناعة: ٦٩٥-٦٩٦.

(٦٢) شرح المفصل: ١٤/٥.

التثنية والجمع فهي معدودة في بنية الكلمة وصيغتها، ولو كانت إعراباً جاز حذفها، ولو حُذفت سقط معنى التثنية والجمع، وهو المقصود منها، وإلى هذا أَلَمَعَ السيرافي وحَكَمَ على قول الكوفيين والفراء وقطرب والزيادي بالفساد، قال: «ففسد أن تكون هذه الحروف بمنزلة الحركات من قِبَل أن ارتفاع الحركات من الاسم حتى يبقى متعرياً منها غير مُخَلِّ بمعناه، وارتفاع الحروف من التثنية والجمع مُبَطِّلٌ لمعناها»^(٦٣).

فحرفُ المدِّ واللين الذي عدّه الفراء وَمَنْ رأى رأيَه علامة إعراب أُضيف إلى الاسم المفرد لإضفاء معنى عليه لم يكن فيه، ألا وهو معنى التثنية أو الجمع السالم، وإذا كان كذلك فهو من بنية الكلمة كالهاء في قائمة والألف في حُبَلَى، فكما أن هذين الحرفين داخلان في صيغة الكلمة وبنيتها لإفادتهما معنى التأنيث كذلك حرفُ المد واللين في المثني والجمع السالم ينبغي أن يكون من بنية المثني والجمع السالم، وكما أن حرفي التأنيث حرفا إعراب تظهر عليهما الحركة الإعرابية أو تقدّر كذلك حرف المد واللين في المثني والجمع السالم حرفُ إعراب، ولكن لا تقدّر عليه حركة الإعراب لمكان النون منه، قال ابن جني: «فكما أن الميم في قائمة ليست حرف الإعراب، وإنما عَلِمَ التأنيث في قائمة هو حرف الإعراب فكذلك ينبغي أن يكون عَلِمَ التثنية في نحو قولك: الزيدان والعُمران حرفَ الإعراب، وَعَلِمَ التثنية هو الألفُ، فينبغي أن تكون هي حرف الإعراب كما كانت الهاء في قائمة حرف الإعراب»^(٦٤).

ومما يؤنس في هذا المقام هذه التاء التي تُزاد فيما يجمع بألف وتاء مزيدتين، إذ هي دالة على معنيي الجمع والتأنيث أو على التأنيث فحسب

(٦٣) شرح الكتاب: ١/ ١٣٣-١٣٤ [بيروت].

(٦٤) علل التثنية: ٥٢، وانظر ص: ٤٧ منه.

على خلاف بين النحويين^(٦٥)، وهي حرف إعراب تظهر عليه حركات الإعراب لأنه من بنية الكلمة كما تظهر على التاء في «قائمة» فكما عُدَّت هذه التاء بدلالتها على معنى الجمع حرف إعراب عُدَّت أيضاً الألفُ والواو والياء أحرف إعراب في المثني والجمع السالم لدلالاتها على معنيي التثنية والجمع. قال ابن يعيش: «وهذه التاء هي حرف الإعراب في هذا الجمع لأنها حرف صيغت الكلمة عليه لمعنى الجمع فكانت كالواو والياء في الجمع المذكور السالم»^(٦٦).

ومن الأمور التي رُدَّ بها قول الكوفيين ومَنْ تابعهم أن الألف والواو في المثني والجمع ثابتان من دون أن يعمل فيهما عاملاً، نحو قولنا: اثنان وعشرون وثلاثون، فلو كانت الألف والواو علامتي إعراب ما ثبتتا إلاّ بعامل، ولا عاملاً، قال أبو حيان: «وقد رُدَّ هذا المذهب بأن الألف والواو ثبتت قبل دخول العامل، قالوا إذا قصدوا مُجرّد العدد لا الإخبار: واحد، اثنان، عشرون، ثلاثون، أربعون، ولو كانت إعراباً لم توجد إلا بعد دخول العامل»^(٦٧).

وهذا القول أضعف الأقوال عند الورّاق، قال: «وقد روي عن غير هؤلاء أنهم جعلوا هذه الحروف هي الإعراب، كالضمة والفتحة، وهذا القول أضعف الأقاويل»^(٦٨).

أما قول الجرمي ومَنْ تابعه: إن الألف حرف إعراب، إلا أن انقلابها إلى ياء في حالتي الجرّ والنصب هو الإعراب فقد أبطله النحويون بأنّ انقلاب الألف لا يحيلها عن أنها حرف إعراب، فالمتعارف عليه أن الألف

(٦٥) انظر في ذلك حواشي شرح المفصل لابن يعيش: ١١/٥.

(٦٦) شرح المفصل: ١٢/٥، وانظر الكتاب: ١٧/١.

(٦٧) التذييل والتكميل: ٣٠٠/١.

(٦٨) العلل في النحو: ١٦٦.

في (كَلَا) حرف إعراب، وهي تقلب إلى ياء في حالتي النصب والجر، ولم يقل أحد: إنَّ انقلابها إعراب، قال ابن يعيش: «انقلابها [أي الألف] لا يخرجها عن كونها حرفَ إعراب بعد أن قام الدليل على ذلك، ألا ترى أنَّ لا نختلف في أن ألف (كَلَا) حرف الإعراب منها، وأنت مع ذلك تقلبها ياء في النصب والجر، نحو قولك: جاءني الزيدان كلاهما، ورأيتهما كليهما، ومررت بهما كليهما»^(٦٩).

وألزم الزجاجيَّ الجرميَّ القول بأن المثني المتصل بألف التثنية غير مُعَرَّب لأن الألف لم تنقلب، والانقلاب عنده هو الإعراب، قال: «ويلزم الجرميَّ أن تكون في حال الرفع «الزيدان» غير مُعَرَّبة، لأنَّ الألف عنده غير منقلبة، وإنما الانقلاب عنده الإعراب»^(٧٠).

وأما قول ابن عقيل فإن بعض البصريين ذهب إليه، ولم يلتفت إليه جمهورهم؛ لأنه يؤدي إلى تقدير حركة على حرف المد واللين، وإذا قُدرت فما نقول في النون^(٧١).

فالمذاهب الخمسة السالفة مضعَّفة بعيدة عن الصواب عند جمهور البصريين، وما بقي إلا قول سيبويه ومن قال بقوله وهو أن حرف المد واللين حرف إعراب بمنزلة الراء في جعفر، وتضافرت الأدلة والبراهين على صحة هذا القول وصوابه، وساق النحويون بضعة أدلة على استقامته وسداده.

من ذلك أن الحركة الإعرابية تدخل على الكلمة لتعيين موقعها النحوي،

(٦٩) شرح المفصل: ٢٣٠/٤.

(٧٠) الإيضاح في علل النحو: ١٤١، وانظر ردوداً أخرى على قول الجرمي في علل التثنية:

٦٦، والتذليل والتكميل: ٢٨٨-٢٩١، والإنصاف: ٣٥/١.

(٧١) انظر أقوال النحويين في الردِّ على هذا القول فيما سيأتي: ص ٢٤-٢٥.

فإما أن تكون مسنداً أو مسنداً إليه أو فضلة، ولا يكون ذلك إلا بعد أن تدلّ الكلمة على معناها، فتأتي الحركة الإعرابية فتحدّد وضعها الإعرابي من فاعل أو مفعول أو غير ذلك، وحرف المدّ واللين لم يؤت به إلا لإفادة معنى التثنية أو الجمع، فهو إذن من صُلب الكلمة وتكوينها وذو معنى؛ لأنّ الغرض من إلحاقه بالكلمة زيادة معنى على المفرد، وهو كالهاء في قائمة، والألف في حُبلى في إضفائهما معنى التأنيث، فكما أن هذين الحرفين حرفا إعراب وذوا معنى كذلك حرف المدّ واللين في المثنى والجمع السالم حرفٌ معنى أيضاً أسبغ على المفرد معنى، قال ابن يعيش: «حكم الإعراب أن يدخل الكلمة بعد دلالتها على معناها للدلالة على اختلاف أحوالها من الفاعلية والمفعولية ونحوهما، نحو قولك: جاءني زيدٌ، ورأيت زيدا، ومررت بزید، فيختلف حال الاسم بحسب اختلاف الإعراب، وذات الاسم واحدة لا تختلف، فلمّا كان الواحد دالاً على مفرد، وبزيادة حرفي التثنية دالاً على اثنين كان حرف التثنية من تمام الاسم ومن جملة صيغة الكلمة، وصار كالهاء في قائمة والألف في حُبلى؛ لأنّ الألف والهاء زيدا لمعنى التأنيث كما زيد حرف التثنية لمعنى التثنية، وصارا حرفي إعراب كذلك في التثنية»^(٧٢).

وانطلق ابن جنّي لإظهار قوة مذهب سيبويه وسدادته ممّا يجمع بين الاسم المفرد ومثناه، فرأى أن الاسم المفرد ومثناه إذا كانا معرّبين متمكّنين فلا بدّ من حرف إعراب تظهر عليه الحركة الإعرابية، فكلمة «رجل» معربة متمكّنة، وحرف الإعراب فيها اللام، ومثناها رجلان معرب متمكّن لا بد فيه ممّا وُجد في مفرده من حرف إعراب، قال معقّباً على الأقوال السالفة في

(٧٢) شرح المفصل: ٢٢٨-٢٢٩، وما استدلل به ابن يعيش استدلل به السيرافي في شرح

حرف المدّ واللين في المثني والجمع السالم: «وأقوى هذه الأقوال قولُ سيبويه، والدليل على صحة قول سيبويه أن الألف حرف إعراب دون أن يكون الأمر فيها على ما ذهب إليه غيره أن الذي أوجب للواحد المتمكن حرف الإعراب في نحو رجل وفرس هو موجود في التثنية في نحو قولك: رجلان وفَرَسان، وهو التمكن، فكما أنّ الواحد المتمكن المعرب يحتاج إلى حرف إعراب فكذلك الاسم المثني إذا كان معرباً متمكناً احتاج إلى حرف إعراب، وقولنا: رجلان ونحوه معرب متمكن محتاج إلى ما احتاج إليه الواحد المتمكن من حرف الإعراب»^(٧٣).

ثم أبطل أن يكون حرف الإعراب في المثني الحرف الذي قبل المدّ واللين أو الحرف الذي بعده، واستدل على ذلك، وانتهى إلى صحة قول سيبويه وحده^(٧٤).

ولم يرَ الزجاجي مذهباً من المذاهب السالفة صائباً إلا مذهب سيبويه، قال: «ونختم الكتاب بمذهب سيبويه وما احتجَّ به له وعليه لأنه هو الصواب دون غيره»^(٧٥).

على أنه ينبغي التنبيه على عبارة جاءت في كلام سيبويه، قد يفهم منها خلاف مذهب في أن حرف المد واللين في المثني والجمع السالم حرف إعراب، وقد تمسك بها الكوفيون واحتجوا بها على سداد مذهبهم^(٧٦)، قال: «واعلم أنك إذا ثبت الواحد لحقته زيادتان، الأولى منهما حرف المد واللين، وهو حرف الإعراب غير متحرك ولا منون، يكون في الرفع ألفاً»^(٧٧).

(٧٣) علل التثنية: ٥١-٥٢.

(٧٤) انظر علل التثنية: ٥٢-٥٤.

(٧٥) الإيضاح في علل التثنية: ١٣١، وانظر ص: ١٤١ منه.

(٧٦) انظر الإنصاف: ٣٤/١.

(٧٧) الكتاب: ١٧/١.

قد يظن ظانُّ أن قوله: «يكون في الرفع ألفاً» يعني أن حرف المدّ واللين علامة إعرابية، كما نقول: يكون الاسم في الرفع مضموماً، ولكن الأمر على خلاف ذلك، إذ المقصود أن المشى يقع موقع الاسم المرفوع ويكون فيه ألف وإن لم يكن مرفوعاً، لا أن هذه الألف علامة إعرابية، نظير ذلك أننا نقول: الضمائر في الرفع تكون هو وهي وهم وهنّ، والضمائر في النصب إياك وإياه وإياهم، ولا يُعدُّ واحد منها مرفوعاً أو منصوباً؛ لأنّ هذه الضمائر تقع مواقع الاسم المرفوع والمنصوب، قال السيرافي شارحاً عبارة سيبويه السالفة: «يكون في الرفع ألفاً، يعني حرف الإعراب الذي ذكره... فيتأوّل أي في الموقع الذي يقع فيه المرفوع، وإن لم يكن هو مرفوعاً، كما نقول: ضمير المنصوب المنفصل إِيَّاكَ وإِيَّاه، وضمير المرفوع هو وهي، وفي التثنية هما، وفي الجمع هم وهُنّ، وليس شيء من هذا بمرفوع ولا منصوب، ولكن ما يقع موقعه من الأسماء المعرّبة يكون مرفوعاً ومنصوباً»^(٧٨).

ونظير كلمة سيبويه السالفة قول ابن الصائغ: «فالياء حرف الإعراب وعلامة التثنية وعلامة الجر أو النصب، والنون دخلت المشى عوضاً من الحركات والتنوين»^(٧٩)، وقال أيضاً: «والألف في قولك: الزيدان تدل على ثلاثة أشياء، أحدها: أنها حرف الإعراب، الثاني: أنها علامة الرفع، الثالث: الدالة على التثنية»^(٨٠).

لا ريب أنه لا يعني بقوله: «وعلامة الجر أو النصب» وقوله: «علامة الرفع» أنّ حرف المدّ واللين في المشى والجمع السالم حركة إعرابية، وإنما يرمي إلى ما ذكره سيبويه، لذا صرّح بأنّ الألف والياء حرفا إعراب، ولكنه

(٧٨) شرح الكتاب: ١/١٣٦ [بيروت].

(٧٩) اللمحة في شرح الملحّة: ١/١٨٩.

(٨٠) اللمحة في شرح الملحّة: ١/١٨٧-١٨٨.

أراد أن يشير إلى أنّ حرف المدّ واللين يدل على معنى التثنية أو الجمع، ويدلُّ أيضاً على ما دلّت عليه كلمة سيبويه السالفة.

ونظير عبارة ابن الصائغ السالفة عبارة ابن يعيش إذ قال: «وفي هذه الواو [أي واو الجمع السالم] ستة علامات الجمع والتذكير لأن هذا الضرب من الجمع إنما هو للمذكّرين ممن يعقل والسلامة والقِلَّة وعلامة الرفع وحرف الإعراب»^(٨١).

فلو كانت الواو علامةً إعرابية ما عدّها حرفَ إعرابٍ معرّضاً لظهور حركة الإعراب عليه أو تقديرها، ولكنه قصد إلى أنّ هذا الحرفَ حرفٌ معنًى وهو ما قصد إليه سيبويه وابن الصائغ.

ولا تقدّر الحركة الإعرابية على حرف المدّ واللين في المثني والجمع السالم ولا تُنوى عند سيبويه على نحو ما نقدرها في الاسم المقصور^(٨٢)، واستدل النحاة على أن هذه الحركة لا تقدّر ولا تُنوى بأن النون عوض بها عن الحركة والتنوين، فإذا قُدرت الحركة الإعرابية أو نُويت لم يكن حاجةً للتعويض عنها وعن التنوين بالنون، قال ابن جنّي: «واعلم أن سيبويه يرى أن الألف في التثنية كما أنه ليس في لفظها إعراب فكذلك لا تقدّر فيها كما تقدّر في الأسماء المقصورة المعربة نية الإعراب، ويدل على أن ذلك مذهبه قوله: «ودخلت النون كأنها عوضٌ ممّا مُنع الاسمُ من الحركة والتنوين»^(٨٣).

وعلل السيرافي عدم تقدير الحركة على حرف المدّ واللين الذي هو حرف إعراب في المثني والجمع السالم بأن الحركة الإعرابية يُجاء بها

(٨١) شرح المفصل: ١٤/٥.

(٨٢) انظر الكتاب: ١٧-١٨، وعلل التثنية: ٤٨، ٥٨.

(٨٣) علل التثنية: ٥٨-٥٩، وانظر سر الصناعة: ٧٠٦.

للإشارة إلى اختلاف الوضع الإعرابي للاسم وتبذله، ولا يمكن إدخالها على المثني والجمع الذي على حدّه، قال: «لا حركة منونة فيه [أي في حرف الإعراب في المثني والجمع السالم] من قبل أن الحركات وضَعُهنَّ في أصولهنَّ للدلالة على اختلاف ما دخلن عليه، ولا سبيل إلى إدخالهنَّ في المثني والمجموع ولا في نظير لهما»^(٨٤).

ووجد أبو علي الفارسي عدم إعلال الياء ألفاً في نحو مررت برجلين، وضربت رجلين؛ برهاناً على صحة مذهب سيويه في عدم تقدير الحركة على حرف المدّ واللين، فالياء في رَجُلَيْنِ صَحَّتْ ولم تُعَلَّ، ولو كان فيها حركة مقدّرة لقلبت ألفاً؛ لأنها حينئذٍ تحرّكت وانفتح ما قبلها، وذلك على نحو ما جرى في رَحَى، قال ابن جني: «قال أبو علي: ويدل على صحة ما قاله سيويه من أنه ليس في حرف الإعراب من الثنية تقدير حركة في المعنى كما أن ذلك ليس موجوداً في اللفظ صحّة الياء في الجر والنصب في نحو: مررت برجلين، وضربت رجلين، فلو كان في الياء منها تقدير حركة لوجب أن تقلب ألفاً كرحى وفتى، ألا ترى أن الياء إذا انفتح ما قبلها وكانت في تقدير حركة وجب أن تقلب ألفاً، وهذا استدلال من (أبي علي) أتى على قياس، وهو في نهاية الحُسن وصحة المذهب وسداد الطريقة»^(٨٥).

ومما اعترض به الكوفيون على قول سيويه وأكثر البصريين: إن حرف المدّ واللين حرف إعراب - أنّ حرف الإعراب ثابت لا يتغيّر، مهما كان إعراب الاسم، ونحن نرى أن حرف الإعراب في المثني والجمع السالم يكون ألفاً أو واواً أو ياءً، فلو كان حرف إعراب ما تبدّل، كالراء من جعفر،

(٨٤) شرح الكتاب: ١/ ١٣٣ [بيروت].

(٨٥) علل الثنية: ٥٩-٦٠.

والدال من زيد، وهذا مردود بأننا نرى حرف الإعراب يتبدّل، فيكون ألفاً في الرفع، وياءً في النصب والجرّ، ذلك على نحو ما نرى في كِلا، قال ابن جني: «إنّ انقلاب الألف في الجر والنصب لا يمنع من كونها حرف إعراب لأنّنا قد وجدنا فيما هو حرف إعراب بلا خلاف بين أصحابنا هذا الانقلاب، وذلك ألف كِلا وكَلتا من قولهم: قام الرجلان كِلاهما، والبنتان كِلتاهما، ومررت بهما كِلَيْهما وكِلْتَيْهما، وقد قلبت كما رأيت، فكذلك أيضاً ألف التثنية هي حرف إعراب، وإن قلبت في الجر والنصب»^(٨٦).

والمثنى والجمع الذي على حده، حرف الإعراب فيهما معتلّ لا تظهر عليه حركة الإعراب، وكلُّ اسم معتلّ الآخر له نظير من الاسم الصحيح الآخر تظهر عليه حركات الإعراب كعَصاً نظيرُها من الاسم الصحيح الآخر جَمَل، فظهور حركات الإعراب على اللام من جَمَل يدل على إعراب عصا بالحركات، والمثنى والجمع الذي على حده ليس لهما نظير من الاسم الصحيح المثني أو المجموع جمعاً سالماً تظهر على آخره حركات الإعراب، فجعل تبدّل حرف المد فيهما في أوضاع إعرابهما عوضاً من عدم وجود نظير لهما من الصحيح، قال السيرافي: «للتثنية والجمع خاصة ينفردان بها، فاستحقّقا من أجلها التغيير، وهي أن كل اسم معتلّ لا تدخله الحركات فله نظير من الصحيح تدخله الحركات، نحو قفا وعصا وحُبلى وسكّرى، نظير قفاً وعصاً جبل وجَمَل، ونظير ألف التأنيث في حُبلى وسكّرى حمراء وفقهاء، لأن هذه الهمزة في حمراء وفقهاء هي ألف التأنيث، والتثنية وجمع السلامة لا نظير لواحد منهما إلاّ تثنية أو جمع، فامتنع التثنية والجمع من نظير يدل إعرابه على مثل إعرابهما، كدلالة جمل

وجبل وحمراء وفقهاء على إعراب أمثالهن من المعتلّ، فعوض التثنية والجمع من فقد النظير الدالّ على مثل إعرابهما تغيير الحروف فيهما»^(٨٧).

وبذا نرى أن مذهب سيبويه وجمهور البصريين في نوني المثنى والجمع السالم وحرف المدّ واللين هو المذهب القويّ الذي تعضده الدلائل والبراهين، وأن ما سواه من الآراء في هذا المضممار مضعّف غير مقبول.

وفيما أتى البحث على ذكره من حال نوني التثنية والجمع السالم وحرف المدّ فيهما عند النحويين البصريين ذكرى لأهل العربية ومحبيها والغير عليها وسبب صالح لإعادة النظر منهم في إعراب المثنى والجمع الذي على حدّه لتدبّر السبيل المثلى في ذلك وجعل ما نقوله في إعرابهما موافقاً لطبيعة العربية ومعطيات المحاكمة العقلية المنبثقة من خصائص هذه اللغة ومن مذاهب النحويين الرصينة التي تقوم على الدليل والبرهان.

إننا في حاجة إلى تقديم إعراب للمثنى والجمع السالم يَجُبُّ عنّا الوقوع في التناقض ويكفيها أسئلة كثيرة يمكن أن تقال، ولنا في تقسيم نوني التثنية والجمع السالم إلى ثلاثة أقسام على ما جاء على لسان جمهور البصريين أسوة حسنة نتهدى بها، ولنا أيضاً فيما قطعوا به من أن حرف المدّ واللين في الجمع السالم والمثنى حرف إعراب ركنٌ قويٌّ ناوي إليه.

نتائج البحث:

انتهى البحث إلى أمور، هذه تعدادها:

- القول بأن حرف المدّ واللين في المثنى والجمع السالم علامة إعراب، وأنّ النون فيهما عوض عن التنوين في الاسم المفرد قول ضعيف مردود عند جمهور النحويين البصريين؛ لأنه مثارٌ تساؤلات واعتراضات وتناقضات.

(٨٧) شرح الكتاب: ١/١٣٢ [بيروت]، وانظر الإنصاف: ١/٣٧.

- ردُّ القول بأن حرف المدّ واللين في المثنى والجمع السالم دليلُ إعراب وإفسادُه، والحكمُ على القول بأن انقلاب حرف المدّ واللين في المثنى والجمع هو الإعراب بالبطلان والتناقض.
- تقويةُ قول سيويوه وجمهور البصريين: إن حرف المدّ واللين في المثنى والجمع السالم حرف إعراب، والاستدلال على صوابه بالأدلة والبراهين.
- الأخذُ بقول جمهور النحويين البصريين في حالات نوني المثنى والجمع السالم الثلاث، واقتراحُ اعتماده في المراحل التعليمية لأنه يُجَنَّبنا الوقوع في أخطاء واعتراضات (*).
- العملُ بالقول السالف في نوني المثنى والجمع السالم لا يخالف كلام سيويوه على وجه في تفسير كلامه.
- نشرُ البحث مذاهب النحويين وأقوالهم في حرف المدّ واللين والنون في المثنى والجمع الذي على حده، وانتهى إلى صحة ما قاله سيويوه وجمهور البصريين.

* * *

(*) [كان القول الذي انتهى إليه الباحثُ وأخذ به، ودعا إلى اعتماده، ووصفه بالقول الصائب اليسير، ووسمه بالصحة والقوة والاستقامة والسداد، قول سيويوه وجمهور البصريين: إن حرف المدّ واللين (الألف والواو والياء) في المثنى وجمع المذكر السالم حرفُ إعراب (أي الحرف الذي تكون عليه علامةُ الإعراب)، وإنَّ النون عوض من التنوين والحركة في الاسم المفرد، أو أحدهما كلٌّ بحسب حاله. وهو قولٌ فيه عند التأمل «منطقةٌ مظلمةٌ» آثر الباحثُ أن يتركها على حالها، ولم يكشف ظلمتها، ذلك أنَّ الكلام على علامة الإعراب في المثنى وجمع المذكر السالم في هذا الرأي تُرك مجهولاً، ولم يصرِّح الكاتب بما كان عليه هذا الرأي في ذلك، ولا أشار إليه؛ فما هي علامة الإعراب في هذا الرأي؟!]. المجلة.

المصادر والمراجع

- الإنصاف في مسائل الخلاف، الأنباري، دار الفكر، بلا تاريخ.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام، بلا تاريخ.
- الإيضاح في شرح المفصل، لابن الحاجب، تحقيق أ. د. إبراهيم محمد عبد الله، دمشق، دار سعد الدين، ط ١، ٢٠٠٥ م.
- الإيضاح في علل النحو، للزجاجي، تحقيق أ. د. مازن مبارك، ط ٢، دار النفائس، ١٩٧٣.
- التذييل والتكميل، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق أ. د. حسن الهنداوي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨.
- التعليقة على كتاب سيويه، لأبي علي الفارسي، تحقيق د. عوض القوزي، ١٩٩٠ - ١٩٩٦ م.
- سرُّ صناعة الإعراب، لابن جني، تحقيق د. حسن الهنداوي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٣ م.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٨٠.
- شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق د. عبد الرحمن السيد، محمد بدوي مختون، ط ١، ١٩٩٠.
- شرح الكافية، للرضي الأسترابادي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- شرح كتاب سيويه، للسيرافي، دار الكتب العلمية، بيروت، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

- شرح المفصل، لابن يعيش، تحقيق أ.د. إبراهيم محمد عبد الله، دار سعد الدين بدمشق، ط ١، ٢٠١٣ م.
- علل التثنية، لابن جني، تحقيق د. صباح التميمي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢.
- العلل في النحو، للوزّاق، تحقيق د. محمود الدرويش، الرياض، ط ١، ١٩٩٩.
- الكتاب، لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، دار القلم، ١٩٦٦.
- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- اللباب في علل البناء والإعراب، للعكبري، تحقيق د. غازي طليمات، د. عبد الإله نبهان، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩٥.
- اللمحة في شرح الملحّة، لابن الصائغ، تحقيق إبراهيم الصاعدي، المدينة المنورة، ط ١، ٢٠٠٤.
- المقتضب، للمبرد، تحقيق عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب، بيروت.
- الموجز في قواعد اللغة العربية، لسعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣.
- النحو الوافي، لعباس حسن، دار المعارف، ١٩٨٠ م.

* * *

الحجاج في بائية إسماعيل بن يسار النسائي

الأستاذة الدكتورة سمر الديوب (*)

ملخص:

ينطلق هذا البحث من فكرة أن أيّ خطاب حجاجي بالضرورة، يسعى إلى تثبيت فكرة، أو تغييرها، أو إيجاد موقف من قضية ما، وهي خيارات تتأسس على خطة حجاجية تتوجه إلى متلقٍ، وتتوسّل الخطاب الحجاجي البرهاني بغية التأثير في المتلقي بلاغيًا.

وتهدف هذه القراءة النصية إلى الكشف عن فاعلية الحجاج في بائية ابن يسار، وتأكيد الوظيفة الحجاجية. ولتحقيق هذه الغاية تنظم الدراسة في ثلاثة محاور:

- الحجاج لغة واصطلاحاً.

- العتبات الحجاجية في البائية.

- ركائز الحجاج لدى ابن يسار.

١- هدف البحث وأسئلته:

ينطلق البحث من فكرة أن النظم الشعري يختزل حجة من زاوية

(*) أستاذة في قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة البعث.

ورد البحث إلى مجلة المجمع بتاريخ ١٢/٧/٢٠١٧م.

وظائفية، ويشير أسئلة، منها: ما الطرق التي يتوسل بها الحجاج في نص شعري منظوم؟ كيف يمكن أن يحاجج الشاعر المتلقي مع أنهما غير مجتمعين في مقام واحد؟ ما نوعية حجج الشاعر؟ وما طبيعتها؟ وهل ترمي إلى الإقناع أو إلى الحمل على الإقناع؟

ويهدف إلى تأكيد الطبيعة الحجاجية للبائية، وإبراز الجوانب الحجاجية فيها، والبحث في علاقة الحجاج بالبلاغة، وفي القوانين التداولية التي تحكم النص بوصفه نصًا إيحائيًا، والكشف عن الآليات المستخدمة من قبل الشاعر المحاجج؛ لتدعيم وجهة نظره، وتفنيده وجهة النظر المضادة.

٣- منهجية البحث:

يُعدّ البحث في ركائز الحجاج وأنواعه عملاً تداوليًا، على علاقة بالمتلقي؛ ذلك لأنه يقوم أساساً على وجود خلاف بين طرفين. وقد تشكلت البائية من عتبتين نصيتين انطوتاً على^(*) علامات نسقية حجاجية توضح العلاقة المتوترة بين الشاعر، والذات الجماعية التي ينتمي إليها من جهة، والعرب من جهة أخرى. وهو أمر من شأنه جعل التداولية الناظم الأساس الذي تقوم عليه هذه القراءة النصية.

٣- الحجاج لغة واصطلاحاً:

يعد الحجاج في أبسط تعريفاته حواراً بين طرفين، يوجّه طرف الخطاب إلى متلقٍ بهدف تعديل رأيه، أو سلوكه، مادته اللغة. ويعود الجذر اللغوي إلى مادة

(*) ورد في البحث هنا، وفي ثلاثة مواضع آخر: انضوتاً على، تنضوي على بمعنى الاحتواء. والصحيح: انطوى على.

في المعجم الوسيط (طوي): انطوى على كذا: اشتمل عليه واحتواه. وفيه (ضوي): انضوى إلى كذا: مال إليه وانضم. ويقال: انضوى تحت لوائه. = [المجلة]

حجج، ويورد ابن منظور في هذه المادة معاني القصد والبرهان والتخاصم^(١).
ويفرق أبو هلال العسكري بين الحجة والدلالة والبرهان، فالحجة لديه
الاستقامة في القصد^(٢).

ونظراً لتفاعل الذوات في الخطاب الحجاجي، وما يتضمنه من جدليات
تسعى إلى البرهنة يُضحى الحجاج مداراً لتوالد الأنساق التي تتسم بأنها منفتحة
دلاليًا. ولأن الحجاج قائم على طبيعة جدلية يكتسي قيمة ضدية، وبما أنه قائم
على توالد الأنساق تكتسب هذه الأنساق قيمة استدلالية. وقد أشار حازم
القرطاجني إلى احتمالات الكلام، وخاصيته^(٣). ويعدُّ القرطاجني أول بلاغي
نوّه بالقيمة الحجاجية للشعر، ومزج بين بلاغة البديع وبلاغة الخطابة^(٤).

(١) حجّ إلينا فلان؛ أي قَدِم، وحجّه يحُجُّه حجًّا: قصده.. والحجة: الوجه الذي يكون به
الظفر عند الخصومة، وجمع الحجّة: حُجج وحجاج. والحجة: الدليل والبرهان..
التحاج: التخاصم؛ وحجّه محاجّة وحجاجاً: نازعه الحجّة، والرجل المحجاج هو
الرجل الجَدِيل. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة حجج.

(٢) الحجّة: هي الاستقامة في النظر، والمضي فيه على سنن مستقيم من رد الفرع إلى
الأصل. وهي مأخوذة من الحجّة، وهي الطريق المستقيم. وهذا هو فعله المستدلّ،
وليس من الدلالة في شيء، وتأثير الحجّة في النفس كتأثير البرهان فيها، وإنما تنفصل
الحجة من البرهان؛ لأن الحجّة مشتقة من معنى الاستقامة في القصد: حجّ يحجّ: إذا
استقام في قصده. انظر: أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، ص ١٦.

(٣) الكلام لدى حازم القرطاجني إما أن يرد على جهة الإضمار والاقتصاص، وإما أن يرد
على جهة الاحتجاج والاستدلال. انظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ٦٢.

(٤) رأى القرطاجني أن التخيل قوام المعاني الشعرية، والإقناع قوام المعاني الخطابية،
ورأى أن استعمال الإقناع في الأقاويل الشعرية سائغ؛ لأن الغرض من الصناعتين
واحد، وهو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر لمقتضاه.
فكانت الصناعتان متآخيتين لأجل اتفاق المقصد والغرض منهما. انظر منهاج البلغاء،
ص ٣٦١. ويعني هذا الكلام أن الغرض من الصناعتين واحد؛ لأن ثمة قصداً حججياً
لشعر يتوسل بالتخيل.

ولم يَخُصِ البديعون القدماء في الأبعاد الحجاجية للصورة، واقتصر عملهم على الملاحظات، والخصومات الشعرية، والشروح. ويمكن أن نعدَّ البيان والتبيين للجاحظ الكتابَ المؤسس لبلاغة الخطاب الإقناعي في التراث العربي^(٥). لكن ما بدأه الجاحظ لم يُطوَّر، وظل الجدل مرتبطاً بعلم الكلام بعيداً عن البلاغة.

ومن المعاني اللغوية للحجاج القصد، ويتفق هو ومعنى الدليل والبرهان الذي يحصل به الظفر عند الخصومة. والحجج هي الطرق التي يسلكها صاحب الحجة بغية إقناع المخاطب، والتأثير فيه بناء على آليات مستعملة في التَّحَاج. ويتعين على ما سبق أن للحجاج علاقة وثيقة بالجدل والتخاصم. وتفترض هذه العملية وجود طرفين، فلا وجود لخطاب خارج دائرة الحجاج^(٦). ولأن الحجة تبني على تسويغات، وأدلة للدفاع عن فكرة ما ترتبط بالحجة، والمنطق والقياس^(٧).

ولكي يكون للحجة التأثير المطلوب يجب أن يكون هنالك بصر بالحجة، فُتُلْتَقَطُ المناسبة بين الحجة وسياق الاحتجاج في صورتها المثلى، حتى يسد المتكلم الطرق على السامع^(٨) ثم تُرتَّب الحجج، فتوضع كل حجة في مكانها

(٥) البيان والتبيين، ٧٦/١.

(٦) يرى د. رضوان الرقبي أنه لا يوجد حجاج من غير تواصل باللسان، ويكمن معنى الحجة في القصد والظفر والغلبة على الخصم، ويقوم الحجاج على أساس التخاطب بين المتكلم والمستمع اللذين يفترض فيهما أن يتحاجا في أمر يستلزم دليلاً، أو حجة له، أو عليه. انظر: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص ٧١.

(٧) يرى د. حمادي صمود أن أحد الطرفين يحاول أن يؤثر في الطرف المقابل جنساً من التأثير، يوجه به فعله، أو يثبت لديه اعتقاداً، أو يميله عنه، أو يصنعه له صنفاً. مقدمة في الخلفية النظرية

للمصطلح، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص ١٢.

(٨) يقول الجاحظ: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة. البيان والتبيين، ٨٨/١.

المناسب، فيبدأ المحاجج بالمقدمات التي تعتمد على الاستمالة والتأثير، فالخبر، فالخاتمة التي تثير عواطف المتلقي وانفعالاته، منتقياً الألفاظ الدالة والمناسبة، ومعتمداً على الاستدلال؛ أي إيراد الدليل. ويعد إيراد الدليل أوسع من الحجاج، وهو ينطلق من المقدمات إلى النتائج بعلاقات منطقية^(٩).

يتضح مما سبق أن الكلام كله حجاجي بالضرورة؛ لأنه يهدف إلى تغيير فعل المتلقي، أو آرائه وقناعاته. وترى (أموسسي) Amossy أن ثمة مقصداً حجاجياً صريحاً ومباشراً، وأن ثمة بعداً حجاجياً مضمراً غير مباشر. فالمقصد الحجاجي (Visée argumentative) يميز معظم الخطابات في حين أن البعد الحجاجي (Dimension argumentative) ملازم لخطابات متعددة جداً. ومن أمثلة النوع الأول المرافعة، فهدفها الأساس الإقناع ببراءة المتهم، أو تقديم ظروف مخففة تخفض مدة سجنه. ومن أمثلة النوع الثاني الوصف في مقال صحفي، أو في عمل روائي، فغالباً ما يبدو مجرد محاولة لتصوير جزء من الواقع تصويراً حسياً بصرياً، ومع ذلك فهو أحب صاحبه أو أبقى يضفي على موضوعه طابعاً ومعنى خاصين^(١٠).

ويتضمن الحجاج إشارة ثقافية معرفية؛ لأنه ينطوي على أفكار فلسفية

(٩) عد السكاكي الاستدلال في البلاغة العربية حجة، ودلالة عقلية بيانية قائلاً: «وإذا قد تحقق أن علمي المعاني والبيان معرفة خواص الكلام، ومعرفة صياغات المعاني؛ ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها، بحسب ما يعني به قوة ذكائك، وعندك علم أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها، وشعبة فريدة من دوحتها - علمت أنه تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي، ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب المعاني والبيان». مفتاح العلوم، ص ٤٣٢.

(١٠) محمد نجيب العمامي: تحليل الخطاب السردي، هامش ص ٩٠ نقلاً عن: Ruth Amossy, *L'argumentation dans le discours (Discours politique, Littérature d'idées, Fiction)*, Nathan/ Her, Paris, 2000, p.25-26.

قائمة على تساؤلات متعددة، ومن أجل ذلك يُوظَّف التاريخ، وعلم النفس، والاجتماع، والعلوم السياسية بوصفها أنظمة مساعدة^(١١).

وقد حدد (بيرلمان) Perelman الحجاج بوصفه جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفة تحفز المتلقي على الاقتناع بما تعرضه عليه، أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع^(١٢).

وينطوي النص الحجاجي على وحدة قد تكون خفية بفضل الجانب البلاغي في الحجاج، وهو يستفيد من التاريخ، لكن له تاريخه الخاص، وسياسته الخاصة.

أما الحجاجية Argumenta logy فهي المصطلح الذي يفضله (إيريك كراب) Erik C. W. Crabbe، وتعني مجموعة من المقدمات والتصورات والفرضيات التي يؤلف المحاجج منها خططه البرهانية، وبهذه المقدمات يتم التأثير في المعنيين، وللمتلقيين الحق في رفضها إن لم تنسجم مع تصوراتهم^(١٣). ويعد الاستدلال والبرهان والإقناع مصطلحات تمثل ركائز الخطاب الحجاجي. وثمة فرق بين البرهان والحجاج^(١٤) كما أن ثمة فرقاً بين

(١١) Naess, Aren, A Necessary component of Logic: Empirical Argumentation (١١) .Analysis, p.10

(١٢) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، ص ٢١.

(١٣) محمد سالم الطلبة، مفهوم الحجاج عند (بيرلمان) وتطوره في البلاغة المعاصرة، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ص ١٩٣.

(١٤) يتميز الحجاج بإمكان نقض قضية ويتسم بالإضمار. أما البرهان فيتسم بالظهور، ولا ينقض، ولا يدحض قضية؛ لأن نتيجته موضوعية ويقينية. وتقوم ماهية الحجاج على أنه ينطوي على قدر من الالتباس في الوظيفة لا نظير له في طرق الاستدلال، ولولا تضمن الحجاج هذا الالتباس لما تميزت طريقه من طرق البرهان. فهذا الالتباس هو الفاصل بين الحجاج والبرهان. انظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص ٢٣٠.

الحجاج والاستدلال^(١٥)، فالاستدلال (Discursive) عملية ذهنية متصلة يجري الانتقال بها من المقدمات إلى النتائج بالاستناد إلى علاقة منطقية تربط الأولى بالثانية^(١٦).

ويقوم الحجاج على الجدل، وهو يختلف عن البرهان^(١٧)، كما أن ثمة فرقاً بين الإقناع - إقناع الآخرين - والاقتناع؛ إقناع المرء نفسه (Conviction)، وهو يقع في منطقة وسطى بين الاستدلال والإقناع^(١٨).

وفي سياق هذا البعد التنظيري للحجاج وعلاقته بالنسق تبدو بائية إسماعيل ابن يسار ميداناً لحضور الأنساق الحجاجية بوصفها نصّاً سياسياً يصور اعتراض الشاعر على السياسة العامة بصورة النقد الاجتماعي لبعض عادات العرب.

٤- الشاعر والقصيدة:

إسماعيل بن يسار النسائي، وكنيته أبو فائد، قيل: إنه من أسرة من سبي فارس، كانت من موالي بني تيم بن مرة، تيم قریش^(١٩)، وكان من أسرة شاعرة تقطن المدينة في الحجاز^(٢٠).

(١٥) يتصل الحجاج بالعلاقات بين الأقوال في الخطاب، بخلاف الاستدلال الذي يتصل بالعلاقات بين القضايا التي يحكم عليها بالصدق أو الكذب. أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، ص ٣٦٢.

(١٦) المرجع السابق، ص ٩٩.

(١٧) مدار البرهان إنتاج قول يبلغ به الإنسان اليقين في مجال الضروري، ومدار الجدل امتحان قول لبناء قول تقارب به اليقين في مجال الممكن. المرجع السابق، ص ١١٠.

(١٨) المرجع السابق، فصل الحجاج بين بيرلمان وتيتيكاه، ص ٣٠٠.

(١٩) أبو الفرج الأصفهاني، ٤/٤٠٨.

(٢٠) ذكر أبو اليقظان عن جويرية، قال: ليس بالمدينة شاعر من الموالي إلا وأصله من أذربيجان، ثم عدّ إسماعيل بن يسار. انظر: رواية ابن قتيبة في معجم الشعراء للمربزباني، ص ٣٤٦. ويتساءل د. يوسف حسين بكار: إذا كانت نسا مدينة بخراسان وفارس وكرمان وهمدان فألى أي نسا تنسب هذه الأسرة؟ شعر إسماعيل بن يسار، د. يوسف حسين بكار، ص ١٠ =

وكانت له علاقات بأقطاب النزاع السياسي في العصر الأموي. فقد قيل: إنه انقطع إلى آل الزبير، وحين أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان وفد إليه، ومدحه^(٢١). وقد حقد على الأمويين لأسباب كثيرة^(٢٢).

وقد نظم الموالي أنفسهم في صفوف الأحزاب المناهضة للأمويين لما في ذواتهم من ضغينة وغِلٍّ، ولتتشبهوا بحياة الأحرار، ويخرجوا من حياة الرق، فكان انتماءؤهم الحقيقي للنزعة الكسروية؛ لإعادة ما كان لهم من عزٍّ، ومجد، وحضارة انصهرت بالإسلام، فتغنَّوا في أشعارهم بأمجاد ساسان، فشكل شعرهم بداية شعر الشعوبية^(٢٣).

وقد أراد الموالي أن يكون لهم دور في الحياة السياسية. ويرى د. شوقي ضيف أن العرب اندمجوا في الموالي منذ الأيام الأولى في الفتوح، وأن نظام الولاء جعل العرب والموالي بنعمة الإسلام إخواناً^(٢٤) لكن ظهور الدعوات الكثيرة من الموالي لاستعادة أمجادهم السابقة، ومحاربة العرب في الفكر والعادات أمور تثبت أن المساواة لم تتحقق. فقد كان للموالي دور في إضعاف السياسة الأموية؛ لأن منهم مَنْ وقف إلى جانب أعداء الأمويين كما فعل سُديف بن ميمون حين طالب بثورة على الأمويين، وشاركهم الشعراء السود في هذه الحركة.

= ويورد صاحب الأغاني سبب اللقب «النسائي» فقد كان والده يبيع النجد والفرش التي تتخذ للعرائس، أو أنه كان يصنع طعام العرس ويبيعه. انظر الأغاني: ٤/٤٠٨. (٢١) المصدر السابق، ٤/٤٠٨.

(٢٢) انظر: عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ١٥-٢٣.

(٢٣) قلت ملاحظات القدماء على شعر إسماعيل بن يسار، وأخباره، فقال عنه أبو الفرج: كان مليح الشعر، وأعجب الوليد بن يزيد بشعره الغزلي. انظر: شعره وأخباره، ص ٥٢، ويعدُّ اتصاله بأولي الأمر جزءاً من سياسته الخفية. انظر المقطوعة رقم ١ من شعره.

(٢٤) العصر الإسلامي، ص ٢١٣-٢١٤.

وكان الشعوبيون يتمسكون بترائهم المجوسي، ويتسترون بالإسلام، ولا يكشفون إلا طرفاً من آرائهم المغالية^(٢٥)؛ فممدوح زياد الأعجم ملك متوج، وهو أثر فارسي، فلم ينس المُلْك الفارسي في داخله، ورغب في استعادته^(٢٦):

ملكٌ أغرُّ متوجُّ ذو نائلٍ للمعتفين يمينه لم تُشجِّج

وتبدو شعوبية إسماعيل بن يسار صورة محولة عن الفخر العربي إلى الفخر بأمجاد الفرس، بدأ قصيدته بالحديث عن دار هند التي خلت، ودرست، وجمال هند، وأثره في نفسه، ثم انتقل إلى الحديث المباشر عن الفخر بالفرس، وهجاء بعض عادات العرب، وتقاليدهم موازنة بعادات الفرس قائلاً^(٢٧):

ما على رسمٍ منزلٍ بالجَنابِ	لو أبانَ الغداةَ رجَعَ الجوابِ ^(٢٨)
غَيَّرَتْهُ الصَّبا وَكُلُّ مُلْتٌ	دائمِ الودقِ مكفهرِ السحابِ ^(٢٩)
دار هندی، وهل زماني بهندی	عائِدٌ بالهوى و صفوِ الجَنابِ
كالذي كان، والصفاءُ مصونٌ	لم تشبُه بهجرةٍ واجتنابِ
ذاك منها، إذ أنت كالغصنِ غضُّ	وهي رؤدٌ كدميةِ المحرابِ ^(٣٠)
غادةٌ تستبي العقولَ بعذبِ	طيبِ الطعمِ، باردِ الأنيابِ
وأثيثٌ من فوقِ لونِ نقيِّ	كياضِ اللجينِ في الزريابِ ^(٣١)

(٢٥) الجذور التاريخية للشعبوية، ص ٢٨.

(٢٦) شعر زياد الأعجم، ٤٩/٢.

(٢٧) شعر إسماعيل بن يسار، ص ٢٨-٢٩.

(٢٨) الجَناب: الفناء، وما قرب من محلة القوم، وهو موضع في السماوة بين العراق والشام، والجَناب: اسم لأكثر من موضع في الحجاز.

(٢٩) أَلْتُ المطر: دام أياماً لا يقلع.

(٣٠) الرؤد: الشابة الحسنة، الدمية: الصورة.

(٣١) أثيث: شعر أثيث، وهو الكثير العظيم، اللجين: الفضة، الزرياب: الأصفر من كل شيء، والذهب، وماؤه. وهو معرب زراب الفارسية؛ لأن معنى زر: ذهب، وآب: ماء.

فَأَقِلَّ الْمَلَامَ فِيهَا وَأَقْصِرْ لَجَّ قَلْبِي مِنْ لَوْعَةٍ وَاكْتَسَابِ
صَاحٍ أَبْصَرْتَ أَوْ سَمِعْتَ بَرَاعِ رَدَّ فِي الضَّرْعِ مَا قَرَى فِي الْعَلَابِ^(٣٢)؟
انْقَضَتْ شِرَّتِي وَأَقْصَرَ جِهْلِي وَاسْتَرَاخَتْ عَوَاذِلِي مِنْ عَتَابِي^(٣٣)
رَبِّ خَالٍ مَتَوَجِّجٍ لِي وَعَمِّ مَا جِدَّ مَجْتَدِي كَرِيمِ النَّصَابِ^(٣٤)
إِنَّمَا سَمِيَ الْفَوَارِسَ بِالْفَرِّ سِ مِضَاهَاةٍ رِفْعَةٍ الْأَنْسَابِ
فَاتْرِكِي الْفَخْرَ يَا أُمَّامُ عَلَيْنَا وَاتْرِكِي الْجُورَ وَانْطَقِي بِالصَّوَابِ
وَاسْأَلِي، إِنْ جَهَلْتِ عَنَا وَعَنْكُمْ كَيْفَ كُنَّا فِي سَالِفِ الْأَحْقَابِ
إِذْ نَرَبِي بِنَاتِنَا وَتَدَسَّوْ نَ سَفَاهًا بِنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ

٥- العتبات الحجاجية في البائية:

٥-١ - عتبة المرأة الراحلة «بُعْد حجاجي»:

ينضوي الحجاج في هذه القصيدة تحت نوعين: نوع رمزي يحتاج إلى تأويل «بُعْد حجاجي»، ونوع مباشر «مقصد حجاجي». وقد افتتح قصيدته بالحديث عن الطلل الدارس الذي فقد أشكال الحياة كلها، ونسب الطلل إلى هند، وتحدث عن أثرها في نفسه. ويعدُّ الافتتاح وسيلة حجاجية تثير اهتمام المتلقي، وتهيئه لكي يكون في مضمون الفكرة^(٣٥).

(٣٢) قَرَى: جَمَعَ، الْعَلَاب: جَمْعُ عُلْبَةٍ، وَهِيَ إِنَاءٌ يَتَّخَذُ مِنْ جُلُودِ الْإِبِلِ يَحْلَبُ فِيهِ. الْحَلَاب: الْإِنَاءُ الَّذِي يَحْلَبُ فِيهِ أَيْضًا^(*).

(*) شرح الحلاب هنا شرح لما ورد في رواية أخرى. [المجلة]

(٣٣) الشَّرَّة: النِّشَاطُ وَالرَّغْبَةُ، وَشَرَّةُ الشَّبَابِ: حِرْصُهُ وَنِشَاطُهُ.

(٣٤) النَّصَاب: الْأَصْلُ.

(٣٥) يقول محمد الولي: إن الغاية من الافتتاح كسب المخاطب لمصلحة الأطروحة التي ندافع عنها.. وللافتتاح على العموم ثلاث وظائف هي: إثارة انتباه المتلقي، أو القاضي، وتهيئته لأجل الاستفادة، استمالته. انظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، ص ٥٧-٥٨.

وقد وظف الشاعر في افتتاحه اهتمامه بالموضوع والخصم على حد سواء، فقد جابه المتلقي الذي أراد أن يدخل في حجاج معه - العرب بعامة بالرمز أمامة - بالشعر، وهو أمر يكشف عن ثقافته، ومعرفته أن للشعر سلطاناً على الطرف الآخر، وأن له مكانة في المجتمع، فتحدث عن العام بالرمز هند، وأقحم نفسه بوصفه الموضوع أيضاً بطريقة رمزية.

٥-١-١- التوجيه الحجاجي السلبي بالوصف:

إن الصراع بين العرب والفرس موجود، لكن ابن يسار تصرف في اختيار الأحداث بما يخدم هدفه الحجاجي، ويدين العرب، ويُعدّ استحضار الوقائع فعلاً حجاجياً في حد ذاته. فالصفات التي اختارها للدار الدراسة، ولهند الراحلة تجلو وجهة نظره. وثمة بعد حجاجي في تحديد نوع الموقف الذي يحكم به على الموصوف. فقد رفض الواقع رفضاً قاطعاً، ودعا إلى الانكفاء إلى الماضي وأمجاده. وتعني العودة إلى ديار هند التحول إلى الماضي الجميل، فأسقط رمزه على السلطة ليعبر عن رفضه لها.

وقد بدأ حديثه بمقطع وصفي «الأبيات ١-٧» صدره بموصوف ثانوي «دار هند»؛ لأن الذي يهمه ما تحيل عليه هند. ففرّع الموصوف إلى عناصر: الدار البالية، ريح الصبا، المطر الهاطل، الزمن الجميل، ثم أقام علاقة بين الموصوف، والمكان، والزمان، والشخصيات «هو/ هند» بأسلوب بلاغي. فالجزء: دار هند يحيل على الكل «هند/ الفرس» وقد جاء هذا الوصف ذاتياً، أوضح العلاقة الوثيقة بين دار هند وابن يسار، حمل وظائف، منها: الوظيفة العقائدية (الإيديولوجية)؛ إذ يحمل وصف هند الفكر المتعلق بولعه الشديد بماضيه، ورغبته في عودته، كما حمل وظيفة الإيهام بالواقع، فالوصف ليس واقعياً، بل يقدم واقعاً فنياً. ويكشف نهوض الوصف بوظائف عن بعده التداولي، فقد أراد

علاقة تفاعلية مع المتلقي، كما أراد أن تقتنع الذات المتلقية، وتتأثر بما يصف، وهو أمر من شأنه أن يكسب الوصف توجيهاً حجاجياً سلبياً^(٣٦).

لقد هدف من وصف المكان، ووصف هند إلى التأثير في المتلقي، وجعله يعتقد صحة ما يصف، وإلى جعل المتلقي متبنياً وجهة نظر الواصف، فقد بدا ابن يسار منفِعلاً، راعباً في أن يشاركه المتلقي انفعالاته. وقد عزف عن التفصيل في صورة الطلل الدارس «البيتان ١-٢»؛ لأنه مهتم بفكرته الخاصة، ولأن الشعرَ مقامٌ تكثيف، لا تفصيل. فقدم وجهة نظره «Point of view» بالوصف، ورسم مسافة بينه وبين الآخر ذات طبيعتين: فكرية، وعاطفية، فقد تذكر «دار هند وهل زماني بهند»، وقيم «الصفاء مصون»، ورأى «وهي رؤد كدمية المحراب»، وأول «هل زماني بهند عائد بالهوى وصفو الجنب؟» ثم صرّح في العتبة الثانية. وقد أكسبت وجهة نظره، والطبيعة المزدوجة للخطاب «الرمزية والمباشرة» الوصف بعداً حجاجياً. فما يبدو وصفاً عادياً للطلل وهند موظف لخدمة هدفه، ومخاطبة المتلقي، والتأثير فيه.

ويوجّه الوصف في العتبة الأولى توجيهاً حجاجياً، ويعني التوجيه الحجاجي الوجهة التي يحددها ملفوظ ما للملفوظ الذي يليه. فهو يقع بين الحجة والنتيجة المنتظرة^(٣٧)، فقد وجّه ملفوظ «كالذي كان والصفاء مصون» إلى ملفوظ الحضارة الساسانية السابقة الأفضل.

(٣٦) يرى جان ميشيل آدم أن مسألة التوجيه التقويمي «الحجاجي» ملازمة لكل وصف، فالوصف حجة تقود إلى استنتاج. انظر: تحليل الخطاب السردى، محمد نجيب العمامي، هامش ص ١٢٣، نقلاً عن: Jean-Michel Adam, *Les textes : types et prototypes*, op. cit. p.91

(٣٧) انظر: تحليل الخطاب السردى، ص ١٠٠ نقلاً عن: Patrick Charaudeau et Dominique Maingueneau, *Dictionnaire d'analyse du discours*, Editions du Seuil, Paris, 2002, p.579

وآمة تفاوت في الفضاء النصي المخصص لوصف كل طرف، فقد وصف الدار، وجمال هند في العتبة الأولى، والفُرس، والعرب في العتبة الثانية، وقد نزع الوصف إلى الاستقصاء، والإفصاح عن رغبات ابن يسار. وتبدو في وصف هند ذائقته الجمالية التي لا تختلف عن ذائقة العرب:

غادة تستبي العقول بعذب وهي رؤد كدمية المحراب
فهو يرسم ملامح المرأة النموذجية لدى العرب، فيقدم صورة لنفسه مزودة بثقافة تراثية عارفة بالأنموذج الجمالي الأثوي.

ونجد في وصف الجمال الأثوي أنه يخاتل السلطة، فيوظف الوصف، والنسق الحجاجي؛ ليدعن له الطرف الآخر «العرب»، لكن هذا الجمال الأثوي فقد صفة الجمال؛ لأن الحضارة العربية أذابت الحضارة الساسانية، وجعلتها عرضة لتغيرات الزمن. فلهند بحمولتها الرمزية موقف من العرب/أمامة، فأدت وظيفة حجاجية. فكان للخطاب الوصفي وظيفة حجاجية، فالوصف حجة ضمنية لدعم فكرة ما؛ ذلك لأن حقل الحجاج هو الخطاب، فلا خطاب من غير حجاج، ولا خطاب من غير بلاغة حجاجية.

٥-٢-١ - بلاغة الحجاج في العتبة الرامزة:

تهدف البلاغة إلى تحقيق الإقناع والتأثير؛ لذا تلتقي الحجاج، وفي البلاغة بُعداً تداوليً حجاجي، فللصور البديعية والبيانية بلاغة، وحجاج. وبما أننا توصلنا سابقاً إلى أن الحجاج يخترق الخطابات نجد أن آمة بعداً حجاجياً في نص ابن يسار. ويعني الكلام السابق أن الحجاج يرتبط بالسياق من غير أن ينفي ذلك صلته بالبلاغة. فكل جملة متلفظٍ بها تقدّم على أنها حجة^(٣٨).

(٣٨) يرى جان كوهن أن الشعر يظل دوماً في وفاق مع الوظيفة البلاغية، ويقصد بالوظيفة البلاغية الإقناعية، أو الخطابية، فتتغير حال الذي يتلقى الخطاب بواسطة الخطاب نفسه. وفي الشعر =

إن الإثارة أمر مرتبط بالبلاغة، فالبرهنة على صدق دعوى ابن يسار تجعله يستميل المتلقي، ويثير انفعالاته. لكننا نرى أن ثمة معنى أوسع للحجاج الذي يشمل الشعر والنثر. فهو خطاب يسعى إلى تعديل موقف، أو إثبات موقف، أو سلوك لدى المتلقي بالتأثير فيه، سواء أكان ذلك بالخطاب العقلي أم العاطفي^(٣٩).

وتقوم طبيعة النظم الشعري لدى ابن يسار على المزوجة بين التصوير والحجاج، فيقوم التصوير على رسم التفاصيل، والمفارقة بين الطرفين، فتقديم صورة هند المشرقة الغائبة يفترض وجود صورة أمامة المخالفة. والتصوير أداة من أدوات التعبير الحجاجية. ففي التشبيه يكون المشبه به أعلى قيمة، وهو أمر يدعو إلى التأثير في المتلقي:

ذاك منها، إذ أنت كالغصنِ غضُّ وهي رؤدٌ كدمية المحرابِ
وأثيثٌ من فوقٍ لونٍ نقيٍّ كيباض اللجينِ في الزريبِ

= لا يتعلق بتغيير المعتقد بل بتغيير الرؤية. إن هدف الشعر ليس الإقناع لكنه على غرار ما سبق أن دعت البلاغة القديمة التأثير بمعناه الاستعاري: بعث الإحساس.

Jean Cohen, Le Haut langage, P172.

(٣٩) ارتبطت البلاغة بالحجاج. وقد عرفها أرسطو بأنها تكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان. انظر: محمد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، ص ٨.

وقد تطورت دراسة البعد الحجاجي في البلاغة والجانب الإقناعي فيها، ورائد هذا التصور بيرلمان Perelman الذي قرر حضور الحجاج في جميع الخطابات الاجتماعية والسياسية والقانونية والإشهارية، وفي جميع أشكال المناقشات العامة؛ أي إنه يغطي مجال الخطاب كله الذي يهدف إلى الإفهام والإقناع مهما كان المتلقي، ومهما كانت الطريقة المتبعة، وطبيعة الموضوع الذي يدور حوله النقاش. انظر: حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي - عناصر استقصاء نظري، ص ١١٢.

فيكون المشبه به الدليل في الصورة، فقد سعى ابن يسار المحاجج إلى إثارة انفعالات العرب، فظهر حجاجه بالصورة التشبيهية انفعاليًا، حافظ على الاختلاف بين الطرفين، فلكل منهما وجهة نظر لا يقبل أن تغيرها حجج الطرف المقابل. وحين يصور جمال هند بهذه الطريقة يولّد خيارات في ذهن المتلقي، فيجد نفسه في مواجهة صورة تدركها حواسه، فلا يمكن إنكارها، فجاء التشبيه صريحاً، والحجج ضمنية. فهند التي تسلب العقول ذات قيمة حجاجية وإن لم يقبل المتلقي بها^(٤٠).

وتؤدي الاستعارة وظائف متعددة في عمليات التخاطب، والتأويل، والفهم، فتؤكد المعنى، وتبالغ فيه، وتؤدي وظيفة حجاجية إقناعية، مع أنها تتداخل بالتأثير الوجداني^(٤١).

وقد قسم الجرجاني الاستعارة إلى مفيدة، وغير مفيدة، ويعني ذلك أن ثمة استعارة حجاجية، واستعارة تزيينية.

«دار هند، الصفاء مصون» وردت هاتان الاستعارتان في سياق الحديث عن جمال هند/ الحضارة السابقة، ويرتبط مفهوم القوة الحجاجية بالسياق، ومقاصد الشاعر. فهو يخاطب ديار هند، ويعلي من قيمتها في نفسه، ويجعل الصفاء

(٤٠) ليس الهدف من الحجاج تدقيق بعض الجهات المنطقية التي للقضايا بقدر ما هو توفير للوسائل المفضية إلى إقناع الجمهور، وحملهم على التصديق من خلال التنوع في ضروب التعبير عن الفكرة. وتعد الصور البلاغية ذات قيمة حجاجية وإن لم يقبل المتلقي بها. انظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية منذ أرسطو إلى اليوم، ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٤١) المجاز أبلغ من الحقيقة، ويستغل الحجاج طاقات اللغة كلها بثراها. وقد ذكر الجاحظ أن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك، وأحقّ بالظفر. البيان والتبيين: ٦٣/١.

مصوناً. والقول الذي يقع في أعلى درجات السلم الحجاجي هو الدليل الأقوى؛ لذا يمكن أن نعد الأقوال الاستعارية أعلى حجاجياً من الأقوال العادية^(٤٢).

ويعني وجود القيمة الحجاجية للاستعارة أن الحجاج ليس شيئاً مضافاً إلى اللغة، بل هو في جوهرها.

وقد عدل ابن يسار عن التعبير الصريح، فوظف الاستعارة، وغدت وسيلة مهمة للاستدلال. وقد جعل الزمن الماضي مثاليًا، مفقودًا، وحين خاطب الديار رفع من قيمتها إلى مرتبة الإنسان في الفعل هادفًا إلى إحداث تغيير في الموقفين الفكري، والعاطفي لدى المخاطب = العرب. وحين خاطب دار هند، وجعل الصفاء مصوناً اختار مُعْطَيْن، وجعلهما ينهضان بوظيفة حجاجية؛ ذلك لأن هاتين الصورتين تجلوان وجهة نظره، وموقفه من هند = الحضارة الساسانية، فنجد صفتين متناظرتين، متعارضتين، واختيار إحداهما يكشف رؤية الشاعر الخاصة، فمخاطبة دار هند تعني التقليل من قيمة دار أمامة، والصفاء المصون يعني أنه يفقد الصفاء في دار أمامة. ويحدد البعد الحجاجي موقف ابن يسار، فقوله: «الصفاء مصون» يتجاوز الحزن على الماضي إلى تحديد طبيعة الحياة التي يريدها في المستقبل، فيسلط العقل على الخيال؛ ليحرك مشاعر الطرف الآخر، وانفعالاته^(٤٣).

وتأتي الكناية في الإطار ذاته «طيب الطعم، بارد الأنياب» ففيها معنيان: قريب، وبعيد، وهو يريد المعنى البعيد. فالحياة السابقة بما فيها أجمل،

(٤٢) الاستعارة أدعى من الحقيقة لتحريك همة المستمع إلى الاقتناع، أو الالتزام بقيمتها. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص ٣١٢.

(٤٣) يرى عبد القاهر الجرجاني أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلاً، والمجاز أبلغ أبدأ من الحقيقة. انظر: دلائل الإعجاز، ص ٥٥-٥٦. ويعني الكلام السابق أن للمخاطب الأهمية في الكلام ذي السياق البلاغي الحجاجي.

وأفضل من وجهة نظره، ولها طعم لا يُنسى، وهذا سبب يدفعه للرجعة في استعادتها، فتتكفى رؤياه نحو الماضي.

وابن يسار مطلع على عادات العرب، يرصدها من وجهة نظره؛ لذا أقام خطته على التدرج في الاحتجاج، فبدأ بالرمز، وانتهى بالمباشرة؛ لأنه على دراية بالشعر، يعرف أن خطته الحجاجية لن يكتب لها النجاح إذا بدأ بالحجاج المباشر التقريري.

٥-٢- عتبة الذات المتمردة «مقصد حجاجي»:

يشعر ابن يسار أن ذاته مقهورة، فيحاول إعلاء صوته الحجاجي أمام الآخر المختلف. فالزمن زمن السلطة العربية، وهذا الزمن السلطوي يفقد خاصية الديمومة من وجهة نظره إذا ما قوبل بثقافة العمل، فيوجد تضاداً بين موقفين: موقف العرب من الحضارة الساسانية، والموقف الحجاجي المعارض للعرب وعاداتهم، يُظهر الرفض، والحركة الضدية تجاه الآخر.

وفي الحجاج المباشر في العتبة الثانية تحضر صورة العرب من قرائن التخاطب، وهي ضمير المفرد المخاطب منفصلاً ومتصلاً وبارزاً ومستتراً «أمامة»، وهي قرينة تسمح بتكوين صورة كَوْنها عن العرب. ويعدُّ هذا البناء لصورة الآخر المختلف المحاور تقنية حجاجية، فلا تُظهر صورة العرب نظرة ابن يسار إلى محاوره (أمامة) فقط، بل تُظهر أن الشاعر صاغها بطريقة تسمح له بتوظيفها حجاجياً. فقد سعى إلى زحزحة الصورة المعروفة عن مخاطبه، والتي يتمسك بها:

فاتركي الفخرِ يا أمأمَ علينا واتركي الجورَ وانظقي بالصوابِ

وحين يبني صورة العرب يبني في الوقت نفسه صورة لذاته، ولمن يمثله؛ لذا أدت هذه الصورة وظيفة حجاجية ولا سيما أن العلاقة بينه وبين

محاوَره علاقة عدااء، فقد أظهر خطابه أنه يمتلك سلطة تسمح له بمخاطبة العرب ومناقشتهم، ثم يعيد تشكيل الصورة السابقة التي يظن أن مخاطبه يحملها عنه، فقد انتقد العربُ الفرسَ، فردّ على ذلك برسم صورتهم، وقد كان واعياً أن لصورة الذات في خطابه دوراً مهمّاً في التأثير في مخاطبه، فرسمها بطريقة تؤدّي وظيفة حجاجية^(٤٤):

واسألِي، إن جهلتِ عنا وعنكم كيف كنا في سالفِ الأحقابِ
إذ نربّي بناتِنَا وتدسّو نَ سفاهاً بناتكم في الترابِ
وينسب إلى نفسه الصورة الإيجابية المشرقة بطريقتين: رمزية، ومباشرة؛ لتغيير موقف المخاطب منه. وما كان للصورة نجاعة حجاجية لولا المستويان: القصدي والبعدي.

ويؤكد لجوؤه إلى المستويين معاً اقتناعه بصعوبة المهمة، وأن ردّ الفعل سيكون سلبياً، فسارع إلى الكشف عن قصده الحقيقي، وإلى أن يكون له الأثر الكبير في الطرف المقابل.

٥-٢-١ - القياس الناقص:

القياس لدى أرسطو مقدمة كبرى توصل إلى مقدمة صغرى، تؤدّي إلى استنتاج. وقد يكون القياس مضمراً، وفي القياس المضمّر ننتقل من فكرة عامة ليست موضع نقاش؛ لكي نسوّغ فكرة خاصة^(٤٥). فقد انطلق من فكرة

(٤٤) يعيّر إسماعيل بن يسار العرب دسّهم بناتهم في التراب في حين أن شريعة مزدك كانت تبيح الأمهات، والأخوات، والبنات. انظر: أبو حيان التوحّيدي، الإمتاع والمؤانسة، ٩٣-٩٢/١.

(٤٥) أرسطو، فن الخطابة، ص ١٥٤.

وقد عرّف د. بدوي الضمائر بأنها عصب الحجاج في الخطابة، والمقصود بالضمائر الأقيسة المنطقية التي أضمرت بعض مقدماتها. ص ٧.

أن الفوارس أُطلِقت عليهم تسمية فرس انطلاقاً من الاشتقاق اللغوي؛ ليصل إلى فكرة خاصة، وهي تفوق الفرس على العرب.

ولجأ إلى القياس الناقص، فأضمر بعض المقدمات، ودعا إلى هذا الإضمار أسباب عديدة تتعلق بالتأثير الخطابي. ويكون القياس الناقص على الشكل الآتي:

للحضارة أهلها ← نحن نحمل صفات حضارية ← نحن أهل الحضارة
ويحمل هذا القياس معاني خفية تنحو بعيداً نحو المقارنة، فهو يقيد الطرف الآخر، ويلغي موقفه الحرّ، وحين يفعل ذلك يدفع محاوره إلى الاعتراف له، وجعل وجهة نظره حقيقة لا تناقش، وينجم عنها ضرورة الاعتراف لهم بالسلطة، والطاعة الواجبة^(٤٦).

لقد صرّح حيناً، وأضمر حيناً، ورغب طوراً، وأرهب طوراً. وكلامه كله موجه نحو نتيجة تُستخلص، ويمكن أن تُستنبط في العتبة الأولى. ويعدّ استخلاص النتيجة أمراً مهمّاً حجاجياً، فيستخلص المتلقي نتيجة لا يشعر أنها فرضت عليه قسراً.

ولأنه يعرف أن المتلقي سينكر حججه سارع إلى إثباتها بطريقتين، وإثبات الصورة المقابلة، والأثر النفسي^(٤٧)، وانطلاقاً من فكرة أن أي حجاج يفترض

(٤٦) يرى ديكرود Ducrot وأنسكونبر Anscombe أن المواضيع المشتركة مبادئ عامة تقدّم على أنها مقبولة من مجموعة بشرية ما. انظر: تحليل الخطاب السردي، محمد نجيب العمامي، هامش ص ١٠١، نقلاً عن: Patrick Charaudeau et Dominique Maingueneau, *Dictionnaire d'analyse du discours*, Editions du Seuil, Paris, 2002, p.579

(٤٧) يرى د. محمد العمري أن القياس الخطابي قياس مضمر، يقوم على الاحتمالات. انظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص ٧٧.

وجود اختيار ما انتقى ابن يسار من التاريخ ما يوافق هدفه الحجاجي: «كيف كنا في سالف الأحقاب، نربي بناتنا، ربَّ خال متوج لي وعم».

ويعدّ استحضار الواقع فعلاً حجاجياً في حدّ ذاته، فلم يشأ أن يقدم الدليل على ما أراد، بل رسّخ الصورة السلبية لسلوك العرب في ذهن المتلقي باستحضار صورة من أفعالهم. وفي الشاهد التاريخي ينطلق الشاعر من فكرة خاصة، فيقوم الشاهد على علاقة الجزء بالكل، خلاف القياس المضمّر الذي ينطلق من فكرة عامة؛ ليسوّغ فكرة خاصة^(٤٨).

ولكي يحقق غايته بنى صورة، وهدم صورة مقابلة بثائية البناء والهدم.

٥-٢-٢ - ثنائية البناء والهدم:

ليست صورة الذات مقصودة لذاتها، بل بوظيفتها الحجاجية. وقد بنيت الصورة على ثنائية البناء والهدم، فللخطاب الحجاجي خطاب مضاد، ولا يعني الدخول في الجدل عدم اتفاق فقط، بل يعني أن المجادل يمتلك حججاً مضادة^(٤٩).

إن الصفات التي اتسمت بها العرب حملت الشاعر على تنويع أدواته الحجاجية، فرسم صورة الذات الجماعية = الفرس، وقدّم صورة مقززة للآخر، وأثار انفعالات، واعتمد على القياس الناقص، فهزأ من العرب بمقصد حجاجي حيناً، وبعد حجاجي حيناً آخر، وبدا مفرطاً في ثقته بنفسه، وغدا أكثر من ندد للعرب، وأراد التفوق. لكنه وقع في التناقض، فقد عيّر العرب دسّهم بناتهم في التراب، وهي عادة قديمة غير شائعة، متناسياً أن شريعة (مزدك) كانت تبيح الأمهات، والبنات، والأخوات، فبنى هوية

(٤٨) يرى أرسطو أن الشاهد التاريخي الأكثر إثارة للتصديق، فن الخطابة، ص ١٥٥.

(٤٩) محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص ١٠٨.

جعلت تواصله سلبياً مع المتلقي، فوقع في الخطأ، وهدم الصورة التي بناها عن نفسه في خطابه. فقد تصارعت في خطابه وجهتا نظر: وجهة النظر المتعالية، ووجهة النظر المضادة، وبنى حجاجه في البداية بناء منطقيًا، فهو يحن إلى ديار فارس وأمجادها، لكن هذا الكلام سيكون موضع اعتراض من قبل المتلقي، فعمد إلى مقدمة صغرى؛ لترك الباب مشرّعاً للدفاع:

أنا أحنّ إلى أمجاد فارس ← أستطيع أن أعيدها ← يجب أن أحييها

فالنتيجة الضمنية في العتبة الأولى تدخل في علاقة تضاد بالنتيجة الضمنية في العتبة الثانية، فبدأ بالحنين إلى الحضارة، والرغبة في إعادة أمجادها، وانتهى إلى تفوق الفرس على العرب في بعض العادات، فسقط، ولم تقنع حجته؛ لأنها اعتمدت على إثارة الانفعالات.

إنه يرفض الآخر رفضاً قاطعاً، ويهدف إلى ما هو أبعد من الحجاج، والإقناع، يهدف إلى الإخضاع، فأدار حواراً من طرف واحد افتقد فيه الحجاج الحقيقي أهمّ شروطه.

وقد لجأ إلى التمثيل؛ ليقوي حجته:

صاح أبصرت أو سمعت براع ردّ في الضرع ما قرى في العلاب

الخطاب الحجاجي

الدليل



العرض

استهلال



نتيجة



الخطاب الانفعالي

فهم ← تأثير ← إقناع

فلا أحد يفرط فيما يجني، فكيف يفرط بحضارته. والتمثيل استقراء بلاغي، وحجة تقوم على مشابهة، يراد منها استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى الأخرى، ويعدّ دعامة من دعائم الحجاج؛ لقيمته التأثيرية، والإقناعية. ويمكن تمثيل المسار الحجاجي في النص بما يأتي:

ويقودنا الكلام السابق إلى الحديث عن إثارة الانفعالات في الخطاب الحجاجي بوصفها أهم ركائز الخطاب.

٦- ركائز الحجاج:

٦-١ - إثارة الانفعالات Pathos:

من ركائز الحجاج الثلاث إثارة الانفعالات في الوجدان والعقل. وقد أثار الشاعر انفعالات لبيّن للعرب الفرق بين الصورتين. ويعدّ رسم صورة الذات، وإثارة انفعالات المخاطب تقنيتين حجاجيتين. لكنه انفعال سلبي نتيجة نقده العرب، وقلب المقدمات.

فالمقدمة الكبرى «إنما سمي الفوارس بالفرس» حقّها أن تأتي قبل المقدمة الصغرى «ربّ خال متوج لي وعم»، فلم يكن همه ترتيب المقدمات، بل انصرف إلى التأثير في المحاور، وإجباره على الاعتراف بالتفوق. فالخاص يغدو لديه عامّاً، وتقود الصورة المنفّرة للعرب إلى نتيجة، وتقوم هذه النتيجة على بناء الصورتين، وستستغلّ لتدعم نتيجة غير مصرّح بها، بل تترك استنتاجها للمخاطب، وهي الطموح السياسي.

وإثارة العواطف - تبعاً لما سبق - ثمرة تفكير عقلي، ونشاط ذهني يظهر في شكل عاطفة^(٥٠)؛ فثمة علاقة بين إثارة الانفعالات والمكوّن العرفاني من جهة، والحجاج من جهة أخرى؛ لأن وراء كل عاطفة معارف، وأحكاماً يتجه إليها الفعل الحجاجي، ويدافع عنها المحاجج حين يرغب في تسويغ عاطفته.

ويتجلى الأثر الانفعالي في أقواله الموجّهة إلى العرب. وثمة ملفوظات

(٥٠) تحدث أرسطو عن وظيفة العاطفة في الحجاج، فقد فضّل القول في تأثير العواطف في العقل. انظر: فن الخطابة، ص ٣٠ وما بعدها. ونستطيع أن نرى بالمقابل أن للعقل دوراً في تحديد العاطفة، وتوجيهها.

خاصة بالسبب في عدائه العرب ذات بنية حجاجية، فقد أذاب العرب حضارته، وحن إليها، ورغب في استعادتها. وهو لا يريد فقط وضع المشكلة موضع نقاش بل يريد بيان الموقف منها، فاستهل خطابه بإثارة المشكلة بطريقة رمزية، ولعب على وتر العواطف، فأثار انفعالات المتلقين بتذكيرهم بما هو موضع شفقة لهم، وتفوق له.

٦-٢- صورة الذات Ethos:

(الإيتوس) من دعائم الحجاج الثلاث، ويعني رسم صورة الذات في الخطاب أن الشاعر يرسمها صراحة وإيحاءً، فخطابه رسم لصورة الذات. وحين يرسم صورة الآخر يرسم صورة الذات بطريقة غير مباشرة. وعلى هذا النحو يقدم الشاعر عامداً، أو غير عامد صورة لنفسه في خطابه^(٥١):

فاتركي الفخر يا أمأم علينا واتركي الجور وانطقي بالصواب
تأتي صورة العرب مختزلة في أمامة، وهي رمز أنثوي للعرب جميعاً،
يقابل رمز هند في العتبة الأولى^(٥٢). فساق مراتب حجاجية، موجهة توجيهاً

(٥١) تقول أموسسي (Amossy) في هذا الصدد: «كلّ تكلم يستتبع بناء صورة ذات. ولتحقيق هذا الغرض ليس من الضروري أن يرسم المتكلم صورته (Portrait) ولا أن يفصل القول في خصاله ولا حتى أن يتحدث صراحة عن نفسه. فأسلوبه وكفاءاته اللغوية والموسوعية ومعتقداته الضمنية تكفي لتقدم تمثلاً لشخصيته. وعلى هذا النحو المتكلم، عامداً أو غير عامد، ينجز في خطابه تقديماً لنفسه». الذاتية في الخطاب السردية، محمد نجيب العمامي، هامش ص ١٠٢، نقلاً عن: Ruth Amossy, La notion d'ethos de la rhétorique à l'analyse du discours (Introduction), in *Images de soi dans le discours, la construction de l'ethos*, (sous la direction de Ruth Amossy), Delachaux et Niestlé S.A., Lauzanne (Switzerland) – Paris, 1999, p. 9.

(٥٢) يرى د. طه عبد الرحمن أن الذي يحدد ماهية الحجاج العلاقة المجازية، وليس العلاقة الاستدلالية وحدها، فلا حجاج بغير مجاز. اللسان والميزان، ص ٢٣٢.

كمياً، تقبل التدرج في اتجاه واحد على مقتضى التزايد^(٥٣): لنا نسب، لنا عز، نربي بناتنا. وهي في الوقت نفسه موجهة توجيهاً قصدياً، فيحدد الشاعر المراتب التي تنزل بها الجمل التي تصف الذات. ولتحقيق ذلك يلجأ إلى ما يمكن تسميته حركة الكلمة الحجاجية.

٦-٣- «الاستراتيجيات الخطابية» Logos:

ونقصد بها حركة الكلمة الحجاجية، فقد تُرجم كلمةً كلمةً أخرى من الحقل المعجمي نفسه بعلاقة المجاورة بالمجاز المرسل، وعلاقة المشابهة بالتشبيه والاستعارة^(٥٤) وهي حركة حجاجية تسميها الأسلوبية المعاصرة عدولاً.

دار هندی، وهل زماني بهندی عائدٌ بالهوى وصفو الجَنابِ
لقد نسب الديار إلى هند على سبيل المجاز، فزاحمت هذه الكلمة غيرها، واكتسبت طابعاً حجاجياً، وبنيت أمام صورة أمانة بمحمولها السلبي، وتساوقت الكلمة المختارة مع سياق استخدامها^(٥٥).

ومن طرائق عرض الخطاب عرضاً حجاجياً أسلوب القصر «إنما سمي الفوارس بالفرس» ويفيد القصر الإثبات، والتخصيص، فيخصص صفة معينة بموصوف معين. ويأتي القصر هنا في مقامين مختلفين يقتضيان هذا الفرق «الفوارس/ الفرس» فقله: (سُمي الفوارس) يقودنا إلى تصور ومقامين يعلم الطرفان أن الفوارس فرس ذوو نسب، وهي جملة ترد في

(٥٣) المرجع السابق، ص ٢٧٥.

(٥٤) يقول ابن أبي الإصبع: هو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسد مسده لأجل نكتة في المذكور، ترجح مجيئه على سواه. بديع القرآن، ص ١١٢.

(٥٥) يرى ديكر أن البعد الحجاجي سابق للبعد الإخباري في القول. فكل قول هو حجاجي بالقوة قبل أن يؤدي دوره الإخباري. فالسمة الحجاجية منغرس في اللغة. انظر فصل التداولية المدمجة لهرمان باريه ضمن كتاب تلوين الخطاب، صابر الحباشة، ص ١٧٩، ١٩٣.

سياق محاورة وجدال، ينكر العرب عليهم أنهم فوارس، فيأتي أسلوب القصر؛ ليعلمهم، فتغدو العبارة ذات قيمة حجاجية، تندرج في سياق حجاجي يتمثل في إنكار المخاطب، وإقناع المتكلم.

وللقصر علاقة وثيقة بالاستدلال؛ إذ يندرج أسلوب القصر في سياق استدلالي بمنزلة حجة تقود إلى نتيجة، يريد المتكلم من المخاطب التسليم بها. وهو أمر يقتضي وجود سياق حوارى تواصلى يهدف إلى الإقناع عن طريق الحجة^(٥٦).

وبأسلوب القصر أعاد بناء صورة الذات؛ لكي تؤدي دوراً حجاجياً إيجابياً، وقلب صفات الخصم؛ لكي يقلب الجانب الحجاجي الإيجابي إلى سلبي. فالصفات الإيجابية لدى العرب تظل موضع شك لديه.

ويعدّ ضمير المتكلم من أجلى علامات الذاتية في الخطاب، فقد أعلم المخاطب - العرب بصيغة أنتِ أمانة - بموضوع الحجاج، وتبنى الموقف، وسعى إلى إقامة الدليل.

ولا يمكن دراسة البنى الأسلوبية منفصلة عن أهدافها الحجاجية. ويعدّ التكرار واحداً من طرائق عرض الخطاب عرضاً حجاجياً؛ لإبراز شدة حضور الفكرة المراد إيصالها، والتأثير بها: «فاتركي.. واتركي، بناتنا.. بناتكم، دار هند.. زماني بهند».

ويضمن التكرار تنامي النص، وانسجامه حجاجياً حين يقيم علاقة حجاجية بين الحجة التي تأتي قبل التكرار، والحجة التي تليه. ويؤدي

(٥٦) يقول أبو البقاء الكفوي: القصر في الاصطلاح: جعل أحد طرفي النسبة في الكلام سواء كانت إسنادية أو غيرها مخصوصاً بالآخر بحيث لا يتجاوزها إما على الإطلاق، أو الإضافة بطرق معهودة. الكليات، ص ٧١٦-٧١٧.

التكرار معنى التوكيد؛ إذ تتوافر في الشاعر شروط الاستعلاء، فيوجه توكيده من زاوية عليا؛ ليكون لحجته قبول دون نقاش.

وقد ورد بعض التكرار في صيغة ثنائيات ضدية: نربي بناتنا وتدسون بناتكم، ولجأ إلى التضاد لغاية حجاجية؛ لتدعيم الفكرة، ولبلوغ غايته الحجاجية.

ومن الكلمات التي لها حركة حجاجية فعل الأمر: «اتركي، انطقي»، ويهدف إلى توجيه المتلقي نحو سلوك معين يخدم هدف الشاعر. ويأتي الاستفهام في هذا السياق حجاجياً أيضاً «هل زماني بهند؟»؛ ذلك لأنه يستلزم تأويل السياق انطلاقاً من قيمته الحجاجية، ويحمل افتراضات ضمنية تجعله حجاجياً، خادماً نتيجة الشاعر.

وأخيراً يقوم السلم الحجاجي على ترتيب الحجج عمودياً، من الحجة الضعيفة إلى القوية في فئة حجاجية واحدة. فكل جملة في السلم الحجاجي دليل على مدلول معين، وكل جملة تعلقه تكون دليلاً أقوى منه:

- ↑ - في الزمن الماضي كان الصفاء مصوناً.
- سمي الفوارس بالفرس مضاهاة رفعة الأنساب.
- ↑ - نربي بناتنا وتدسون سفاهاً بناتكم بالتراب.

٧- خاتمة:

يقوم الحجاج على حجة منطقية للتأثير في الآخرين، وإقناعهم، وهو خطاب تواصلية قائم على الحوار مع الآخر المختلف. ويمكن بناء على ما سبق أن نسجل النتائج الآتية:

- الخطاب الحجاجي البلاغي يجعل الحجاج مؤثراً؛ لأن للمجاز قوة حجاجية كبرى.

- للوسائل الحجاجية وظيفة جمالية تضاف إلى وظيفتها الحجاجية.

- الاعمءاء على الحجاج فؤء الرعبة فف الائنقال من المفاخرة، والمنافرة إلى الحوار، والمناظرة، والإقناع.
- رسم الشاعر صورة للفؤس أفضل من الءقفة، فكشف، وانكشف، وأءى حجاجه وظفة سلبة.
- نوع فف أساللب الءطاب، وءءرء من الرمفة إلى المباشرة، فتارة فذكر العرب باسمهم الصرف، وتارة بالرمز أمامة، وتارة فذكر الفرس صراحة، وتارة بالرمز هند.
- لوجهة نظر ابن يسار ووجهة النظر المضاة وظفة فف بناء الحجاج فف القصفة.
- لم فشا ابن يسار أن فؤئر فف المءاور فقط، بل أراد حصره فف ءائرة الاعتراف به.

* * *

المصادر والمراجع

- أرسطو: ١٩٨٦، فن الءطابة، ترجمة د. عبء الرحمن بءوف، ءار الشؤون الءفافة العامة، بءاء.
- ابن أبف الإصبع: ١٩٥٧، بءفء القرآن، ءءفوق: حنفف محمد شرف، مءبة نهضة مصر.
- الأصفهانف، أبو الفرج: د.ء، الأغانف، نسخة مصورة عن طبعة ءار الكء المصرية.

- أعراب، حبيب: ٢٠٠١، الحجاج والاستدلال الحجاجي - عناصر استقصاء نظري، عالم الفكر، عدد يوليو، مجلد ٤٠، سبتمبر.
- الأعجم، زياد: ١٩٨٣، شعره، جمعه وحققه د. يوسف حسين بكار، ط ١، دار المسيرة، بيروت.
- التوحيد، أبو حيان، ١٩٣٩، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- الجاحظ، عمرو بن بحر: ١٩٦١: البيان والتبيين، ط ٢، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر.
- الجرجاني، عبد القاهر: د. ت، دلائل الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الحباشة، صابر: ٢٠٠٧، فصل التداولية المدمجة لهرمان باريه ضمن كتاب تلوين الخطاب، الدار المتوسطة للنشر، تونس.
- الدريدي، سامية: ٢٠٠٨، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، ط ١، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.
- الدوري، عبد العزيز: ١٩٨٦، الجذور التاريخية للشعوية، ط ٤، دار الطليعة، بيروت.
- الرقبي، رضوان: ٢٠١١، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، مجلد ٤٠، أكتوبر، ديسمبر.
- السكاكي: ١٩٧٨، مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان.
- صمود، حمادي: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، منشورات

- كلية الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس.
- ضيف، شوقي: د.ت، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر.
 - الكفوي، أبو البقاء: ١٩٩٨، الكليات، ط ٢، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
 - الطلبة، محمد سالم: ٢٠١٠، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ط ١، ج ٢، الحجاج مدارس وأعلام، إعداد وتقديم حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.
 - طروس، محمد: ٢٠٠٥، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ط ١، دار الثقافة، الدار البيضاء.
 - طه عبد الرحمن: ١٩٨٨، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط ١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
 - العمامي، محمد نجيب: ٢٠٠٩، تحليل الخطاب السردى، وجهة النظر والبعد الحجاجي، ط ١، مسكيلاني للنشر، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، وحدة الدراسات السردية، تونس.
 - العمامي، محمد نجيب: ٢٠١١، الذاتية في الخطاب السردى، الإدراك والسجال والحجاج، ط ١، دار محمد علي الحامي للنشر، تونس.
 - العمري، محمد: ١٩٨٦، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط ١، دار الثقافة، الدار البيضاء.
 - العمري، محمد: ١٩٩١، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، مطبعة النجاح.
 - القرطاجني، حازم: ١٩٦٦، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس.

- المرزباني، معجم الشعراء، ١٩٦٠، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
- ابن منظور الإفريقي: ١٩٩٧، لسان العرب، ط٦، دار صادر، بيروت.
- الولي، محمد: ٢٠٠٥، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، دار منشورات الأمان، الرباط.
- ابن يسار، إسماعيل، ١٩٨٤، شعره وأخباره، د. يوسف حسين بكار، ط١، دار الأندلس، بيروت.

المراجع الأجنبية:

- Cohen, Jean, Le Haut langage, Paris, éd. Flammarion, 1979.
- Aren, Naess, A Necessary component of Logic: Empirical Argumentation Analysis,

* * *

المعجم وعلاقته بالنحو عند د. تمام حسان

الدكتور سعد فرج الله^(*)

بحثُ المعجم من المباحث المهمة التي باشرها د. تمام حسان (١٩١٨-٢٠١١م) في بواكير تأليفاته اللغوية، وله فيه موقفان مثلهما نظريّة وتطبيقاً: الموقف الأوّل جاء في حيز نمودجه: (اللغة العربيّة معناها ومبناها)، وما سبقته من أبحاث مهّدت لظهور هذا النموذج، جعل فيه المعجم موضوعاً لغويّاً، لا يعدو أن يكون حشداً من الكلمات أو رصيماً للمتكلم. وهو وإن كان جزءاً من اللغة، فإنّه ليس جزءاً من النّظام، ولا وظيفة له تذكر عند التّحليل النّحوي. أمّا الموقف الثّاني فيمثّل تحوّلاً في أفكاره وختاماً لها، ولاسيّما بعد تأثره بأبحاث المدرسة التّوليدية، أدّى به إلى قلب رأيه السّالف رأساً على عقب، إذ أصبح المعجم نظاماً بما توفّر له من شروط النّظام، وصار بعد ذلك جزءاً أصيلاً من التّحليل النّحوي.. وقد دارت في إطار هذين الموقفين جملة أفكار تتعلق بالمعجم صناعة وتأليفاً وتحليلاً، حرص فيها د. تمام كلّ الحرص على جعلها تسير في ركاب نمودجه: (المبنى والمعنى) على الرّغم من تصادمها النّظري بين موقفه

(*) كلية الآداب - جامعة البصرة.

ورد البحث إلى مجلة المجمع بتاريخ ٢٩/١١/٢٠١٧م.

الوصفي والموقف التوليدي التفسيري. وهو ما سيجلوه البحث في تضاعيف سطره اللاحقة، من خلال تدرج الباحث في رصد تسلسل أفكار د. تمام وتحولها، ومناقشة ما طرحه من رؤى وتصورات قامت حول المعجم، وتنوع موقفه منه، وتحديداً في الجانب الذي أفصح فيه عن طبيعة العلاقة بين المعجم والنحو، وما له صلة بهذه العلاقة.

أولاً: المعجم قبل مرحلة النظام:

- مفهوم المعجم:

كان للمعجم ومنهجه اللغوي موقعه البارز في أول مؤلف لتمام حسان، وأعني به كتاب (مناهج البحث في اللغة) الذي أنجزه سنة (١٩٥٥م)، منطلقاً فيه من منظور سياقي في ضمن الاتجاه الوصفي، وملتمزاً بمفهوماتها الأساسية جميعاً في تحديد أصوله النظرية وخطواته الإجرائية. والمنهج الذي اتبعه في تحليله اللغة، يجعل المعنى كبرى القضايا اللغوية ومحور دراستها، ذاهباً إلى أن فروع اللغة: من صوت، و صرف، ونحو، ودلالة، جميعها تدور حول المعنى وجوداً وعدمًا^(١). وليس مقصود د. تمام من المعنى إلا مدلول العلامة اللغوية دون سواه، أي الذي يتوصل إليه عن طريق المنهج الشكلي حصراً، مستبعداً كلاً من المعنى النفسي والمعنى الفلسفي^(٢). وبأثر ذلك، كان مدخله لفهم المعجم ومباشرته له يتوجه من باب المعنى، وضمن عنوان (المعنى المعجمي). وليس المعجم في مفهومه إلا معنى الكلمة المفردة، الواقع خارج السياقين: المقالي والمقامي، اللذين يمنحان الكلمة من

(١) ينظر اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان/ ١١٧. وينظر اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان/ ٩.

(٢) ينظر مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان/ ١٩٥.

المعاني المتنوعة التي لا يوردها صاحب المعجم^(٣).

وكان كثيراً ما يردّد - في مواضع عديدة من أبحاثه وكتبه - أنّ المعنى المعجمي متعدّد ومحمّل، غير محدّد بدلالة واحدة، وهو بذلك لا يكشف عن المعنى الدلالي^(٤). دلّ على ذلك صلاحية دخوله في أكثر من سياق، سواء في نصوص تراثية قديمة سبقت، أم في نصوص حديثة معاصرة، أو لاحقة. والمعجم عنده لا يسمّى معجماً حتى تُفرد كلمته عن السياق، أمّا إذا التحقت بسياق معين، فلا يكون معناها معجمياً، بل يصير معناها سياقياً^(٥). وهو بعد، ما انفكّ يحرص الحرص الدائم على بيان الفرق بين المعنيين: الوظيفي والمعجمي، فالأول منهما يمثل معنى المبنى التحليلي صوتاً أو صرفاً أو نحواً، أي المعنى الذي يحدّده النظام في اللغة؛ في حين يمثل الثاني معنى الكلمة المفردة مشتقة كانت أو جامدة، بوجود الرابطة العرفية بينها وبين مدلولها^(٦).

- موضوع المعجم:

يشرع د. تمام - منذ أوائل كتبه، في مقارنته المعجم - في مراجعة مادته أو موضوعه وهي (الكلمة) شرحاً وتوضيحاً، مجتهداً في تحديد مفهوم الكلمة عند قدماء النحويين العرب، والمحدثين من لسانيي الغرب، أمثال (يسبرسن)، و(بلومفيلد)، و(ساير)، و(جاردنر)، مستعرضاً آراء الجميع، ناقداً أو ناقضاً لها، لكون الغالب منها كان قد استند - في رأيه - إلى تصورات فلسفية، أو منطقيّة، أو نفسية؛ وهي بمجموعها أفكار مستقاة من مناهج غريبة عن منهج اللغة ووظيفتها الخاصة.

(٣) ينظر اللغة العربية معناها ومبناها ٣٢٤-٣٢٥.

(٤) ينظر اللغة بين المعيارية والوصفية / ١٢١.

(٥) ينظر اللغة العربية معناها ومبناها / ٣٢٣-٣٢٤.

(٦) ينظر السابق / ٣٥٤.

وخصّ د. تمام تعريفات النّحاة العرب بالنقد السّليبي، زاعماً أنّها قد تخلط أحياناً بين اللفظ والقول، عندما يعرفونها بقولهم: (الكلمة هي اللفظ المفرد) أو (الكلمة قولٌ مفردٌ)؛ أو قد يُنبئ التعريف عن علاقة بين الكلمة ومعناها من قولهم: (الكلمة لفظٌ وضع لمعنى) وهو حدّ يصدق - عنده - على معاني حروف الجر!؛ أو ربما أضاف بعضهم إلى التعريف فكرة منقوصة في زعمه، كفكرة التقدير من قول السيوطي: (قولٌ مفردٌ مستقلٌ أو منويٌّ معه)^(٧). وقد حكم على هذه التعريفات جميعها بأنّها تنطوي على عيوب، مجملها:

«١ - إنّها لا تفرّق بين الصّوت والحرف، أي بين عملية النطق والنظام الذي تجري عليه.

٢ - إنّها تخلط بين الوظيفة اللغويّة، والمعاني المنطقيّة والوضعيّة.

٣ - إنّها لا تفرق بين وجود الكلمة وعدمها، في تعريفها، وهذا يؤدي إلى الخلط في التفكير»^(٨).

وارتضى لنفسه تعريفاً، رأى أنّه يقوم على منهج وظيفي، بملاحظة الكلمة في أفرادها، أو حذفها، أو حشوها، أو موقعها، إبدالاً، وتغييراً، وعلامات. ويقوم تعريفه الآتي على مفهوم نسبي لا كليّ، لأنّ الكلمة من المفاهيم التي «لا يمكن أن تعرّف تعريفاً ينطبق عليها في كلّ اللغات، وإنّما تستقل في كلّ لغة بتعريف خاص بها، مستقى من طبيعة اللّغة، ووسائلها الخاصة في التعبير»^(٩). ولذا قال في تعريف الكلمة (العربيّة) إنّها: «صيغة ذات وظيفة لغويّة معينة في تركيب الجملة تقوم بدور وحدة من وحدات المعجم، وتصلح لأن تفرد، أو تُحذف،

(٧) همع الهوامع، السيوطي، ٤ / ١.

(٨) مناهج البحث في اللغة / ٢٢٦.

(٩) المصدر السابق / ٢٢٥.

أو تُحشى و يُغيّر موضعها، أو تُستبدل بها غيرها في السياق، وترجع في مادتها غالباً إلى أصول ثلاثة، وقد تُلحق بها زوائد^(١٠).

ولو عدنا لما جاء به د. تمام حسان، من نقده القدماء: النحويين العرب، لوجدناه نقداً غير متوجّه في حقيقته، ويشوبه النقص، بما لا يخفى على المتأمل في الأسس المعرفية للنحو العربي، وأصول البناء المنهجي لنحوهم. يكفيننا معرفة أنّ نحائنا فهموا الكلمة فهماً دقيقاً، مثلهم مثل المحدثين من اللسانيين، في أنّ الكلمة: هي وحدة لغوية لا وحدة صوتية، في إطار نظرية الفائدة ذات السمة التركيبية، التي تتحكم بمسار فهمهم النحوي؛ ولم يدّر في خلداهم - وهم يشرحون مفهوم الكلمة - أنها مستقلة عن الكلام (معقد الفائدة). يثبت ذلك: إدراجهم الحرف (الموضوع لمعنى مصاحب) في أقسام الكلام، بوصفه قسيماً للاسم والفعل، لكونه دالاً على معنى في غيره، ولا يكون ذلك إلا عند الكلام. وهو ما رآه د. تمام نقصاً في التعريف! ومما يبرز مفهوم الفائدة التركيبي ذلك، عبارة السيوطي: (.. أو منويّ معه) التي نقضها د. تمام، بزعمه أنّها فكرة منقوصة؛ لاستنادها إلى التقدير أو التأويل، مع أنّ التأويل أصبح لاحقاً عنصراً رئيساً في النظرية اللغوية التفسيرية الحديثة، وهي فكرة عدّها د. تمام نفسه - في بحث له متأخر - من دواعي استقامة المنهج وصحة التحليل^(١١).

يضاف إلى ما تقدم، أنّ مصطلحي اللفظ والقول، اللذين يردان في تعريفات النحاة للكلمة، بينهما من التناسب الواضح، ما لا يوحي بالصورة التي وجهها المؤلف من أنّ فيهما خلطاً وتناقضاً. فبين القول واللفظ من

(١٠) المصدر السابق / ٢٣٢.

(١١) ينظر مقالات في اللغة والأدب، د. تمام حسان، ١/ ١٤٧.

العلاقة المنطقية التكاملية التي لا تخفى على المتأمل، وأعني بها علاقة العموم والخصوص من وجه، ما يدفع التضارب والخلط المزعومين، إذ إنَّ اللفظ - عندهم - هو: «الصوت المشتمل على بعض الحروف، سواء دلَّ على معنى كزيد، أو لم يدلَّ على معنى كديز..»^(١٢). في حين أنَّهم عرّفوا القول بكونه: «اللفظ الدالُّ على معنى كرجلٍ وفرسٍ»^(١٣). وسواء أقيّل: الكلمة: (قولٌ مفردٌ) أم (لفظٌ وضع لمعنى) فهما يؤديان الغرض المرجوَّ في تحديد الكلمة تحديداً علمياً؛ لأنَّ اللفظ - وهو عام - قد قيّد بالإفراد (الوحدة اللغوية) وبالمعنى (الإفادة)، وبذلك يخرج مفهوم الصوت من قيد القول المفرد. ولا يخفى أن النظرية اللغوية الحديثة تعدّ اللغة - في جماعها - صوتاً ومعنى، وهو ما ينطبق على تعريف اللفظ تمام الانطباق، مع ملاحظة خصوصية القول بالنسبة إلى اللفظ (العام) عند نحاة العرب.

على أنّ تعريفه الذي ارتضاه للكلمة يدخل عليه من الاعتراض ما يسلبه كفايته. فمن شروط المعرفة العلمية الحديثة وتقنياتها المنهجية المنظمة مبدأ الاقتصاد في التنظير، والاصطلاح، والإجراءات المنهجية.. ولو أخضعنا تعريف النحاة للكلمة وتعريف د. تَمَّام حَسَّان لها، استناداً إلى تلك الضوابط، لألفينا تلاؤماً واضحاً بين تعريف النحاة والشروط المعرفية الحديثة، لكونه أوفى اقتصاداً به؛ مع انزوائها - في الوقت نفسه - عن تعريف د. تَمَّام المسهب؛ وأنَّ ما ذكره من قيود وظيفية لتعريف الكلمة، لا تزيد على أن تكون من لوازمها المستوعبة ذاتاً، بما تحمله من علامة فهمها الذاتية في ذهن متكلم اللغة، بعيداً عن تأملات اللغوي ومحدداته، التي هي مرحلة خاضعة لمفاهيم نسبية.

(١٢) شرح قطر الندى، ابن هشام / ٣٧.

(١٣) المصدر السابق نفسه.

- المعجم والنظام:

النظام في فهم تمام حسان لا يكون نظاماً إلا «إذا قامت علاقة تكامل بين مكوناته، بحيث يتوقف أداء كل منها لوظيفته على وظيفة الآخر»^(١٤). واللغة بوصفها منظمة عرفية للرمز، لا توصف عنده بالنظام أو الجهاز إلا عند تحقق ثلاثة شروط مجتمعة؛ أولها: وجود شبكة من العلاقات العضوية. وثانيها: وجود القيم الخلاقية، أي المقابلات التي تقوم على نواحي الخلاف بين المعنى والمعنى والمبنى والمبنى. وثالثها: إمكانية انتظام عناصر الفرع اللغوي في جدول يمثل ارتباط هذه العلاقة. واستناداً إلى هذه الشروط المتقدمة^(١٥)، وجد د. تمام أن اللغة العربية فيها ثلاثة أنظمة فحسب، مرتبة بحسب منهج التحليل اللغوي وهي: النظام الصوتي، والنظام الصرفي، والنظام التحوي، في تفصيل يُطلب في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها.

أما المعجم فقد عدّه د. تمام - مبدئياً - فرعاً من فقه اللغة، وهذا الأخير يفتقد شروط العلمية أو الصناعة، التي تتألف من: الموضوعية، والشمول، والتماسك، والاقتصاد، وبذلك صار فقه اللغة علماً غير مضبوط، أي هو من قبيل المعارف لا العلوم^(١٦). والمعجم بعد ذلك ليس بجهاز، فهو عبارة عن كلمات مختزنة في ذهن المجتمع، أو معدودة بين جلدي المعجم الكتاب؛ إنه - بحسب زعمه - : «جزء من اللغة، ولكنه ليس نظاماً من أنظمة اللغة. هو من اللغة لأنه سجلُّ لكلماتها، ولمعاني هذه الكلمات، وهذه الكلمات ساكنة صامتة بالفعل، ولكنها صالحة بالقوة لأن تصير ألفاظاً مسموعة، أو

(١٤) اجتهادات لغوية، د. تمام حسان/ ٣٣٨.

(١٥) ينظر اللغة العربية معناها ومبناها/ ١٤ وما بعدها.

(١٦) ينظر الأصول، د. تمام حسان/ ٢٤٣ وما بعدها.

مخطوطة مكتوبة، أو مقروءة في سياق الكلام»^(١٧). والسبب في ذلك يعود إلى أن المعجم فرع لغوي لا يمكن تحقيقه إلا في نظام عضوي متكامل، وبذلك حسم د. تمام أمره بإخراجه من زمرة النظم اللغوي، معللاً ذلك ومفضلاً فيه، بقوله: «وليس المعجم نظاماً من أنظمة اللغة، فهو لا يشتمل على شبكة من العلاقات العضوية، والقيم الخلاقية، ولا يمكن لمحتوياته أن تقع في جدول يمثل احتباك هذه العلاقة»^(١٨).

- المعجم والنحو:

في نموذج (اللغة العربية معناها ومبناها) والأبحاث التي جاءت في مضماره قبلاً وبعداً؛ لم تتجاوز مباشرة د. تمام للمعجم الإطار الفردي، وتحديد الذي يُعنى بصناعة المعجم، وإعداده بالصورة العلمية والإجرائية المناسبة. ورأى أن منهج دراسته يقوم على متابعة طبيعته الإحصائية التصنيفية فحسب. ويعني بالتصنيف - هنا - الشق الفني منه، الذي يُوضع لتيسير العرض، وغايته الشرح والإيضاح؛ وهو بخلاف الشق العلمي الذي يستعير بالأصناف عن المفردات. فالمنهج الذي يتجه إليه المعجم، هو إعداد قائمة من الكلمات التي يستعملها المجتمع اللغوي، في وضعها العرفي الاعباطي^(١٩). مع الإشارة إلى أن المعنى يستوفي القسط الأكبر من دراسته للمبنى والمعنى معجمياً. وبعد، فإن مسار الدراسة للمعجم يكون في جانبين:

- الأول: الجانب النظري، وهو المفضي إلى العلاقة العرفية للكلمة بمدلولها، من الحقيقة، والمجاز، والتطور اللغوي والاقتراض؛ وهذا الجانب يراه د. تمام مجتمعاً في: علم البيان، وعلم الصرف، وعلم المتن،

(١٧) ينظر اللغة العربية معناها ومبناها / ٤٠.

(١٨) المصدر السابق / ٣٩.

(١٩) ينظر الأصول / ٢٤٥، واللغة العربية معناها ومبناها / ٣١٤.

وبحوث فقه اللغة، وتأريخ الأدب، داعياً إلى توحيدها جميعاً في علم واحد يسمّى (علم المعجم)^(٢٠).

- الثاني: الجانب التطبيقي، وهو الإجمالي، بما يلحق به من شروط المعلومات الضرورية، وتوفرها لصناعة المعجم، من نحو: طريقة نطق الكلمة، وهجائها، وتحديد الصّرفي؛ وشرحها من جهة الشكل، وتخصيص المداخل مادةً واشتقاقاً، وشرح المعاني، والاستشهاد، وتحديد ضمائم الكلمة طبقاً لمفهوم التضام من أحد وجهيه المتعلق برصف الجمل وطرقها الممكنة^(٢١).

أما علاقة المعجم بالنحو فهي غائبة تماماً في هذه المرحلة من تفكير د. تمام، على الرغم من ربطه بين المعجم وظاهرة (التضام) من وجهها الأول، من خلال فكرة الضّمائم. وظاهرة التضام عنده، هي إحدى القرائن اللفظية للنظام النحوي، ولها وجهان^(٢٢):

- الوجه الأول: يتعلق بالوسائل الممكنة في رصف الجمل، من تقديم وتأخير، وفصل ووصل.. إلخ. ويطلق على هذا الوجه مصطلح (التوارد). ورأى أنه أقرب إلى الدراسات التركيبية البلاغية الجمالية منه إلى العلاقات النحوية والقرائن اللفظية؛ وهذا الوجه، هو ما كان همزة الوصل بينه وبين المعجم في تحديد الضّمائم في موقفه الأول منه، ثم صار بعد تحوّل فكره المدخل الرئيس لعملية ربط المعجم بالتحليل النحوي.

- الوجه الثاني: يقصد به استلزام أحد العنصرين التحليليين النحويين للآخر بعلاقة (التلازم) أو نقيضها، أي أن يكون بينهما تعاند، ويصطلح عليه

(٢٠) ينظر اللغة العربية معناها ومبناها / ٤٠.

(٢١) ينظر المصدر السابق / ٣٣٠-٣٣١.

(٢٢) ينظر المصدر السابق / ٢١٦-٢١٨.

ب (التنافي) بمعنييه الوجودي والعدمي.

وعند العودة إلى الجانب التطبيقي من صناعة المعجم، يتحدث د. تمام عمّا يجب أن يقدمه المعجم للقارئ من خلال فقرة (الشرح) وهو «أن يتوخّى المعجم تحديد ضمائم الكلمة طبقاً للوجه الأول من وجهي فهمنا للتضام، وهو الذي أطلقنا عليه (التوارد). والوجه الآخر وهو (التلازم)»^(٢٣). ويريد بهذا الكلام الإشارة إلى تبدّل المعنى في حالة توارد كلمة أو تلازمها مع ضميمة لها من الكلمات. مثال التوارد، كلمة (صاحب) التي تعطي معاني مختلفة في تواردها مع كلمات أخرى من نحو: صاحب الدار: مالكها، وصاحب رسول الله: رفيقه، وصاحب الفضيلة: عالم الشريعة، وصاحبى: صديقى.. إلخ. ومثال التلازم قولهم: رغب فيه: طلبه، ورغب عنه: كرهه، وإليه: استعانه، وهكذا. ويضاف إليهما ما يسمّى بالعبارات المسكوكة، نحو: ضرب أحماًساً بأسداس، ويُلقى الجبل على الغارب، ويضع الأمور في نصابها.. وسواها^(٢٤). وهذه الأمثلة المتقدمة قد يلمس فيها القارئ أثارةً من منحى تركيبى، ومع ذلك، قد وردت عند المؤلف في سياق أسلوبى فردي حرّ، لا يخضع لقاعدة، أو نظام، على الرّغم من وجوده في قرينة نحويّة !.

ثانياً - المعجم بعد مرحلة النظام

- علاقة المعجم بالنحو:

لم يُعرّف للمعجم أية علاقة بالنحو في مباحث اللسانيات التصنيفية ونظرياتها، إذ كانت تلك العلاقة مستبعدة تماماً في مفهوماتها الأساسية وإجراءاتها التطبيقية؛ ولكن مع ظهور اللسانيات التوليدية التفسيرية منذ بدايات

(٢٣) ينظر اللغة العربية معناها ومبناها / ٣٣١.

(٢٤) المصدر السابق / ٣٣١.

النصف الثاني من القرن الماضي، أصبح المعجم من الموضوعات الرئيسة في نظرياتها، وحظي بنقاشات مطوّلة بين علماء التّوليدات بمختلف توجهاتهم التركيبيّة، أو الدلاليّة، أو الوظيفيّة، وقُدّمت في سياقها نظريّات، ونماذج تمثليّة، وتطبيقات، للتحقق من خصائص النّحو العام أو الخاص. وسبق هذا كلّ إعداد بيانات مفصّلة عن المعلومات التي يقدمها المعجم، من خصائص: سمات، أو ميزات، أو اطّرادات على مستوى البناء العميق التّوليدي، أو مستوى البناء السّطحي التّحويلي، تركيباً وتأويلاً. فلم يعد ينظر إلى المفردة المعجميّة من كونها مقتصرة على العلاقة الإشاريّة بين الدال والمدلول، بل توسّع النّظر في سمات تلك المفردة، وخصائصها التركيبيّة الدلاليّة، وعلاقاتها النّحويّة، وقواعد الاشتقاق والتّفرع فيها عند البناء المقولي. وبأثر من ذلك تحوّل موضوع المعجم من المعجم القاموسي، إلى المعجم الذّهني، أي القدرة على إحداث الكلام وتأويله. وأسهمت النّظريات التّوليديّة، بتمثيلاتها ونماذجها وتحقيقاتها الصّوريّة، في الكشف عن المعجم وقواعده في التركيب النّحوي، وبدأ الحديث عن مصطلحات ومفاهيم تحلله وتبين علاقته بالنّحو، مثل مصطلح (قواعد الإسقاط) التي تأتي من خلال المزاوجة بين الوحدات المعجميّة وتمثيلاتها الدلاليّة، بما يكتنز المدخل المعجمي من قراءات لمكوناته في حالتي الأفراد والتركيب؛ فتحوّل ذلك المدخل من الصّورة البسيطة إلى مركّب ذي بنية سلّميّة، يمثل السمات النّحويّة والسمات الدلاليّة. وتقوم ما عُرفت بـ(قيود التّوارد) في مرحلة الملء المعجمي، بتصنيف الأداء من القراءات المشوّهة، التي تخرق قواعد الإيضاح والمقبوليّة والصّحة^(٢٥).

ولتوضيح أكثر؛ إنّ القواعد التّوليديّة التّحويليّة تتألف من قواعد تقوم

(٢٥) ينظر اللسانيات واللغة العربيّة، د. عبد القادر الفاسي الفهري، ٢/ ١٩٥-١٩٦.

بتعداد أو احتساب جمل اللغة، من خلال ثلاثة مكونات هي: المكوّن الصوتي، والمكوّن الدلالي، والمكوّن التركيبي. يتألف المكوّن الصوتي من المعجم في نطقه، وسمعه، وسماته، ومن القواعد الصوتية أيضاً. وأمّا المكوّن الدلالي فهو يحتوي على المعجم بوصفه لائحة بمفردات اللغة. ويحتوي على القواعد الإسقاطية، التي تؤلف قدرة المتكلم على تأويل الجمل من خلال معنى المفردات. والمعجم في هذا المكوّن يسند المعنى الأولي للمفردة، ويسند تمثيل المؤلفات الدلالية التي تعكس التركيب. فضلاً عن أنّ (المشير الدلالي) الذي يشير إلى أجزاء المعاني، يختصّ بتمثيل مفهوم أو (سمة)، وهو جزء من معنى المدخل المعجمي. ومن أمثلة المشير الدلالي أنّ لفظاً مثل (كرسي) أصبح يشير إلى معانٍ متعددة، على النحو الآتي: كرسى: (شيء) (مادّي) (جامد) (مصنوع) (متاع) (شيء له أرجل) (شيء له مقعد) (مقعد لشخص واحد). أمّا المكوّن التركيبي فهو يتألف من المكوّن الأساس، والمكوّن التحويلي. وتظهر علاقة المعجم بالنحو في المكوّن الأساس الذي يضمّ - أولاً - قواعد التكوين، التي تعطي المعلومات اللازمة لاحتساب الجمل الصحيحة والمحتملة. ويضمّ - ثانياً - المداخل المعجمية التي يحمل كلّ مدخل منها سماته التركيبية، والصوتية، والدلالية.

وتبرز هذه السمات، ذات الصفة التركيبية، في تحليل الجملة الآتية:

- أكل الولد التفاحة

إذ تقوم قيود التوارد المعجمي بتحديد العلاقة التأليفية بين عناصر

الجملة على النحو الآتي:

- أكل: [+ فعل] [+ متعدّد] [+ مستمر] [+ نشاط] [+ عمل]

- الولد: [+ اسم] [+ عام] [+ إنسان] [+ متحرك] [+ مذكّر] [+ مفرد]

- التَّفاحَة: [+اسم] [+عام] [- إنسان] [- متحرك] [+مؤنث] [+مفرد] ويُستنتج من القراءة الدلالية للجملة السابقة، أنّ الفعل (أكل) لا يتخذ اسماً فاعلاً في العادة غير متحرك. ولذا، إنّ جملة مثل (أكلت التفاحة الولد) هي جملة صحيحة التركيب بنائياً، ولكنّها غير مقبولة تأويلياً، لأنّ الفعل (أكل) لا ينخرط في تركيب فاعله = [- إنسان] و[- متحرك]، إلا على سبيل المجاز، والمجاز ليس من موضوعات النحو الكلّي. يضاف إلى ما تقدّم بيانه، أنّ مدخلاً معجمياً مثل (المحمول/ الفعل)، تُحدّد موضوعاته من خلال سماته التركيبيّة بناء على إمكاناته التفرّيعيّة في الاشتقاق أو التعدي أو اللّزوم. وهذه بمجموعها ظواهر معجميّة ذات أثر طبيعي في التّابعات اللّغويّة^(٢٦).

- نقد وتوجيه:

إنّ موقف د. تمام حسان، القائم على عزل المعجم عن النحو، لاقى معارضة من الدّارسين التّوليديين العرب، وعلى رأسهم د. عبد القادر الفاسي الفهري، الذي رأى أنّ الإقرار بالفصل بين النحو والمعجم نظريّة خاطئة، وبناء على ذلك، رفضَ منهج د. تمام الإفرادي الذي يقصر دراسة المعجم على تعداد قائمة من الكلمات المستعملة في مجتمع لغوي، يعسر بعدد على الفرد استقصاؤها، لعرفيتها، وارتباطها بالاختيار الأسلوبي، الذي لا يصلح للتّصنيف، أو التّقييد. وقد استعان الفهري في نقده بمبادئ النّظرية التّوليديّة، وأبحاثها التي كشفت عن العلاقة التّامة بين المعجم والنحو. تلك العلاقة الكامنة في الجانب التّوليدي من تحليل العنصر النّحوي للملكة اللّغوية، المؤوّلة دلاليّاً، التي أبانت السّمات الخاصّة بالمفردة، ذات الصّفة التركيبيّة

(٢٦) ينظر الألسنيّة التّوليديّة التّحويليّة وقواعد اللغة العربيّة، النّظرية الألسنيّة، د ميشال زكريا،

المطرّدة، في تتابعات سياق لغوي معين، مشيراً إلى أنّ «المفردات تفرز خصائص واطّرادات فرعيّة أو تامة، تمكّن من وصفها في طبقات عامّة أو فرعيّة، لها خصائص يمكن استخلاصها من مبادئ عامّة تضبط المَلَكَة اللّسانيّة العامّة، أو المَلَكَة الخاصّة بلغة من اللّغات الطبيعيّة»^(٢٧)؛ يضاف إليه، أنّ المعرفة المعجميّة في التّوليديّة، هي معرفة مكتسبة بالفطرة، وهناك من الأدلّة المتوفّرة عند الباحث التّوليدي التي تثبت أنّ المَلَكَة الإنسانيّة تملك من المعلومات الكثيرة عن طبقات المفردات وسماتها الدلاليّة، ما تتنفي فيها الحاجة إلى معرفة الفرد بكل المفردات أو تعلم خصائص طبقاتها^(٢٨).

- مراجعة وتعديل:

يبدو أنّ النّقد الذي وجّهه بعض أصحاب الكتابات التّوليديّة لتّمّام حسان، كان قد ترك صداه في فكره وتأملاته في المعجم، فدعاه إلى أن يطّلع على مبادئ النّظريّة التّوليديّة التحويليّة، ويفتش في أبحاثها، ونتائجها في مجال المعجم. وقد ذكّر - بدءاً - أنّ كتابه: (اللّغة العربيّة معناها ومبناها) ظهر سنة (١٩٧٣) وهو لم يكن قد سمع بالتّوليديّة أو بصاحبها، وورد ذلك في قوله: «ولم يكن اسم (تشومسكي) قد طرق سمعي، حتى ذلك الوقت، ولم أقرأ له إلاّ أثناء إقامتي بالمغرب»^(٢٩)، وكأنّه يعتذر عن نفسه، لكونه لم يستثمر نتائج التّوليديّة في نموذجه الذي وضعه لمعنى العربية ومبناها، ولاسيّما دراسة المعجم بوصفه عنصراً من المكوّن التّركيبي. لكن بعد الاطلاع على اللّسانيات التّوليديّة، وما تبين له من طبيعة العلاقة العضويّة

(٢٧) المعجم العربي، نماذج تحليلية جديدة، د. عبد القادر الفاسي الفهري/٦.

(٢٨) ينظر المصدر السابق /٦-٧.

(٢٩) مقالات في اللغة والأدب، ١/٧٩.

بين النحو والمعجم، راجع قرائنه اللفظية، وتحديدًا تلك المعنىّة بيان المداخل المعجميّة، وهي قرينة (التّضام)، وفرعها الذي اصطلح عليه بـ (التّوارد) في نموذج الذي وضعه للعربية. يقول د. تمام: «غير أنّ ما جاء بعد ذلك من اطلاع على تطوّر النظرية النّحويّة التّوليدية، ومداومة التّأمل في طبيعة المعجم، وما يشتمل عليه من حقول معانٍ، وأصناف كلمات، أدّى في النهاية إلى تعديل هام لفهم فكرة التّوارد لدى المؤلّف»^(٣٠). وبأثر من هذا، قام المؤلّف بتعديل نظريته للمعجم من جانبين: جانب النّظام، وجانب النّحو؛ فقد صار المعجم نظاماً بعدما كان لائحة من المفردات. وصار المعجم جزءاً من خطة التّنظير النّحوي، بعدما كان منحصرًا بالدراسات الأسلوبية البلاغية. وهذا ما ستجد تفصيله في السّطور اللاحقة.

المعجم نظام:

يظلّ المعنى عند تمام حسان بمنزلة قطب الرّحى في مدار أفكاره وآرائه، وكان المدخل إلى تصنيف المعجم نظاماً، يتلمّس طريقه من خلال عنصر المعنى. فقد نظر إلى المعجم بوصفه مفردة تضمّ نوعين من المعاني، أحدهما وظيفي، والثاني معجمي. وليس المعنى الوظيفي عنده إلا دلالة العنصر اللّغوي، الذي يدلّ على معنى عام من نحو: معاني الضمائر، والإشارات، والموصولات؛ أو يدل على وظيفة سياقية تقوم بعملية الربط بين عناصر السّياق، من أمثلة: وظيفة الأدوات وحروف المعاني. على أنّ مظنة هذا المعنى هي كتب النّحو في الغالب. أمّا المعنى المعجمي فهو من المعاني المفردة، التي تُبينها الكلمات في حالة الأفراد، ذات الأصول الاشتقاقية والصّيغ الصّرفية، ومن شأنها الدلالة على الأشياء والأحداث. والأشياء هذه،

(٣٠) المصدر السابق، ١/١٣٧.

منها ما هو حسي وما هو مجرد. والأحداث معانٍ يدلّ عليها عناصر: مثل اسم الحدث (المصدر)، أو الحدث مقروناً بزمن (الفعل)، أو موصوف بالحدث (وصف) ^(٣١). وأمّا العلاقة بين هذين النوعين: الوظيفي والمفرد، فيقول عنهما: إنهما «يتصافران للكشف عن المعنى الذي تدلّ عليه الكلمة المفردة من جهة، وتقوم عليهما وظيفة المعجم من جهة أخرى» ^(٣٢).

وتأمل د. تَمّام في العلاقات التي تفضي إلى روابط متينة بين محتويات المعجم، وعثر فيها على المستوى الكافي من الانسجام، لتحويل كيانه من مفهوم التعداد اللغوي الخارج عن التصنيف المحكم، إلى مفهوم النظام المنتمي إلى سلسلة نظام اللغة المتكافئة عضوياً. ورأى أنّ هذه العلاقات تبرز مكوناتها في البيان الآتي ^(٣٣):

- ١- ترابط المفردات بواسطة أصول الاشتقاق.
 - ٢- التمايز بواسطة الصيغة الصرفية للكلمات.
 - ٣- بيان معنى الكلمة بواسطة هذين المحورين.
 - ٤- النظر إلى أصل وضع الكلمة لبيان الأصلي وغير الأصلي من المعاني.
 - ٥- أثر المسموع في بيان الأصلي.
 - ٦- الحقول المعجمية وأثرها في تكوين السياق.
 - ٧- المناسبة المعجمية بين ألفاظ من حقل وألفاظ من حقل آخر.
 - ٨- فكرة النقل وأثرها في مرونة النظام المعجمي.
- وهكذا اكتشف تَمّام حسان بعد اللأي، أنّ المعجم يشتمل على شبكة من

(٣١) اجتهادات لغوية / ٣٣٩-٣٤٠.

(٣٢) المصدر السابق / ٣٤٠.

(٣٣) المصدر السابق / ٣٤٠-٣٤١.

العلاقات العضوية، والقيم الخلافيّة، أمكن بعدها لعناصره الوقوع في جدول يمثل احتباك هذه العلاقات. ومن صور هذه العلاقة العضوية التي عدّها بين مكوناته، مفهومها: أصل الوضع، وأصل الاشتقاق، اللذان يرجعان الكلمة إلى ثلاثة حروف مقطّعة، ثم يتبعها بناء الكلمة معجمياً، إمّا بصورة الاسم إذا كان مفرداً أو جمعاً؛ أو بصورة الفعل إذا كان متعدّياً أو لازماً. ثم تُلحظ العلاقة التي تنشأ بين المفردات التي تعود إلى مادة اشتقاقها، على الرّغم من تعدد معانيها. ذاهباً إلى أنّ (الحقول المعجمية) هي أهم ما يدلّ على كون المعجم نظاماً. ومن الأمثلة التي ساقها لبيان رأيه في قيام المعجم نظاماً، ما يكشف علاقات الكلمة ذات الأصل المشترك بقربياتها دلاليّاً، من نحو: لفظ (جاه) الذي يرجع إلى أصل مادته المقطّعة (و.ج.ه). وهذه الحروف المفرّقة في رأيه، تلخّص علاقة بين حشد من المفردات، تشترك جميعها أحياناً في معنى الوجهة نحو: (الوجه) من الوصف لذي الجاه، أو تختلف عنها بالمعنى أحياناً من قبيل: الوجه، والجهة، والوجهة، والتوجيه.. وسواها^(٣٤).

أمّا القيم الخلافيّة في المعجم، بوصفها أحد شروط النّظام، فقد تمثّلت في الصّيغة الصّرفيّة، وتعدّد وجوهها، في المعنى الوظيفي، على الرّغم من اشتراكها في أصل اشتقائيّ واحد. ومثاله التّمايز والفرق الذي يحدث بين صيغ (قاتل) و(قتال) و(قتيل). فالأول من الصّيغ يدلّ على من أوقع حدث القتل من دون تكرار. والثاني منها يدلّ على من أوقعه بتكرار. والثالث منها دلّ على من وقع عليه حدث القتل. فهذه المعاني أفضت إلى قيم خلافيّة، حدثت بسبب اختلاف الصّيغ^(٣٥).

(٣٤) ينظر اجتهادات لغوية / ١٤١.

(٣٥) ينظر المصدر السابق / ١٤١-١٤٢.

وخلص د. تمام من هذا كله إلى أنّ المعجم «الذي رآه اللغويون رصيماً من المفردات، هو في الحقيقة نظام ذو شبكات وعلاقات وثيقة، يقوم المعنى على أساس الاعتراف بها»^(٣٦). وبناء على ذلك، صار ترتيب الأنظمة اللغوية، خلفاً لدخول المعجم قسماً لها، مرتباً على النحو الآتي: النظام الصوتي، فالنظام الصرفي، فالنظام المعجمي، فالنظام النحوي، حتى يقوم بين هذه الأنظمة تكامل عضوي، بعدما «تكون الأنظمة الثلاثة السابقة قد هيأت للنحو، كل ما يحتاج إليه من وسائل لفظية، وتركت له العناية بالعلاقات، وبالقرائن الدالة على هذه العلاقات»^(٣٧)؛ معممًا هذا الحكم، من دون أن يعطي بياناً كافياً يكشف عن صور هذه العلاقة الجديدة عنده.

- ربط المعجم بالنحو:

سبق أن تبهنا على استجابة د. تمام حسن للنقد، وإطلاعه على النظرية التوليدية ونماذجها في مكّون المعجم، وهو ما جعله يعدّل من قرينته اللفظية (التضام) في نموذج المبنى والمعنى الذي اقترحه للغة العربية. وهذه القرينة في مفهومها عنده تقوم على وجود بُنيتين من بناء نحوي معين، تنتظمان في علاقة تفرز ثلاث صور من صور المجاورة إيجاباً أو سلباً، وهي: التلازم، والتنافي، والتوارد؛ الأولى تنشأ من اختصاص كلمة بأخرى، أو ممّا يلزم عنها، كتلازم الموصول وصلته، وحرف الجر ومجروره، وسواهما. أمّا الثانية فهي قرينة سلبية، وهي نقيض التلازم، وتعني امتناع ورود كلمة مع أخرى في جملة، كتنافي وجود الإضافة المحضة ومعناها في حال وجود (أل) التعريف؛ وكذا استبعاد الإضافة بقسميها في حال وجود التنوين. أمّا الثالث: التوارد فقد جعله في نمودجه منحى حيادياً، أي إنّه لا يلزم ولا

(٣٦) المصدر السابق / ٣٤٠.

(٣٧) مقالات في اللغة والأدب، ٩١ / ٢.

يتمتع إيراد كلمة مع أخرى، فهو من الوسائل الممكنة في الاختيار الفردي لبناء الكلام، ولذا ربطه بالأساليب والقيم الجمالية البلاغية، لكونه يقوم على اختيار المتكلم الحرّ للمفردة، التي يبدأ بها التركيب، أو يوردها مع مصاحبة لها في حقلها التركيبي أو المعجمي؛ فضلاً عن أسلوب التقديم والتأخير والوصل والفصل... إلخ. واستناداً إليه، لا تكون الصور التعبيرية ونظائرها من النحو في شيء، لأنها موصولة بالمعنى المفرد «والنحو لا يتناول المعاني المفردة، وإنما يتناول المعاني الوظيفية التي تستبين بها العلاقات السياقية»^(٣٨). ولاحقاً، كشف د. تمام عن شعوره تجاه موضوع التوارد في خضم تعديل فكرته حول المعجم، معرباً عن أن ما أثبتته للتوارد من معنى مفرد «لم يكن آخر العهد بالموضوع، لأن المؤلف لم يكن سعيداً برأيه بالتوارد، إذ كان يحسّ دائماً أنه منحه حكماً مؤقتاً، وأن الجانب الأسلوبي جنى على الجانب النحوي، فلم يشجع على إطالة النظر فيه أبعد من ارتباطه بالمفردات، ومن ثمّ انحيازه إلى المعجم لا إلى النحو»^(٣٩). ونتيجة لذلك، أصبحت أفكار (تشومسكي) المعنية بالكشف عن العلاقة بين المعجم والنحو، هي الملهمة له، ليجد ضالته المفقودة في التوارد، والمبددة لهواجسه فيه. وقد أبان عن هذا الأمر بنص سبق ذكره، إذ قال: «غير أن ما جاء بعد ذلك من اطلاع على تطوّر النظرية التوليدية، ومداومة التأمل في طبيعة المعجم، وما يشتمل عليه من حقول معانٍ وأصناف كلمات، أدّى في النهاية إلى تعديل هام لفهم فكرة التوارد لدى المؤلف»^(٤٠).

(٣٨) مقالات في اللغة والأدب، ١/ ١٣٦.

(٣٩) المصدر السابق نفسه.

(٤٠) المصدر السابق ١/ ١٣٧.

- قيود التوارد:

من نتائج التأثير بالتوليدية التحويلية في علاقة المعجم بالنحو، طرح د. تمام أفكاراً جديدة، وعرض مسائل ذات سياق نحوي معجمي، أقحمه في ضمن نموذج اللغة العربية معناها ومبناها، وفي ثبت مصطلحاته الخاصة به. إذ أوجد لنموذجه منفذاً من نحو ملقّ يجمع بين أصول التوليدية التفسيرية ومنهجها الصوري، وبين الوصفية التصنيفية ومنهجها الشكلي السياقي، مسوغاً ذلك التلفيق بدعوى أنّ النموذج التوليدي التحويلي «قد يمكن مع شيء من التعديل أن يطبق على اللغة العربية، فيتأتى للغة العربية أن يعاد وصفها لسانياً من خلاله»^(٤١). ومن أثر ذلك، ظهرت عنده فكرة (قيود التوارد) في مقابل (قيود الانتقاء) عند (تشومسكي). على أنّ التوارد - بدءاً كما عرفناه - كان فرعاً من قرينة التضام اللفظية تعذر في بدايته أن يكون له وظيفة بالنحو، لكنه صار بعد إجراء التعديل مقياساً للصحة والخطأ في بناء الجمل، بوصفها قيوداً نحوية معجمية. وعلى خطأ هذا الرأي سعى د. تمام إلى تنظيم العلاقة بين مكونات التركيب معجمياً من خلال البحث عن توصيف للعلاقة التي تجمع بين المفردات المتعاقبة في الجمل العربية. فقد ابتكر مفهومين متعلقين بخطة التنظير المعجمي الجديدة، الأول منهما اصطلاح عليه بـ(المناسبة أو الملائمة المعجمية). والثاني منهما اصطلاح عليه بـ(المفارقة المعجمية). وكلا المصطلحين يقوم على تفسير العلاقة النحوية بين كلمات متعاقبة في جملة معجمياً؛ فإذا صلح الاجتماع لكلمات الجملة سُميت العلاقة بالمناسبة المعجمية. وتسمى العلاقة بينهما بالمفارقة المعجمية، إذا لم يصلح الاجتماع وحدث التناقض في الكلام. وبعد، «فالمناسبة المعجمية منبع (الإفادة) (أي كون

(٤١) المصدر السابق، ١/ ٢٨٥.

الكلام مفيداً) والمفارقة المعجمية منبع (الإحالة) فيصبح الكلام معها غير مفيد على الحقيقة، إلا أنه يمكن صرفه على المجاز»^(٤٢).

ومن أثر المفارقة المعجمية في الكلام، أنّ الأشياء لا تتدحرج إلى فوق، ولا يختر السقف من تحت. وكذا أنّ جملاً من نحو: (فهم الحجر المسألة) و (كسر الخيط) و (دهنتُ الهواءَ بزيدي) هي جمل لا تُعقل على الحقيقة، لأنّ الفعل (فهم) يتطلّب فاعلاً عاقلاً، والخيط ليس ممّا يُكسر، والهواء غير قابل للدّهْن، وزيد ليس بدهان^(٤٣). وكان لفكرة المناسبة المعجمية أيضاً أثرها في د. تمام، إذ دعتّه إلى نقض ما ألزم به النحاة، من ضرورة أن يصحّحوا تعريفهم للإعراب بقولهم: (الإعرابُ فرعُ المعنى)، وضرورة تصويبه بـ(الإعراب فرع المعنى الوظيفي)، لكنّه هاهنا يوجّه ذلك التعريف بنحوٍ ايجابيٍّ، بناءً على فهمه الجديد معرباً عن ذلك قائلاً: «وربّما كان قول النحاة: إنّ (الإعراب فرع المعنى) مستنداً إلى اشتراط الإفادة للكلام، وقد رأينا أنّ الإفادة تُبنى على (المناسبة المعجمية)»^(٤٤). وما وجهه المؤلّف كان عين الصواب، لأنّ مفهوم الإفادة عند النحويين العرب مفهوم تركيبى، يتجلّى لذهنهم حتى في إطار التعريف الفردي لأقسام الكلام.

وتمضي قيود التّوارد في هذا المسار المعجمي، وعلى شرطه تتضح قيمة الكلام، بتعداد نسبة الصّواب والخطأ في الجمل. وسار د. تمام في مباشرته لهذا الموضوع على غرار منهج التّفليق بين نموذج ونموذج (تشومسكي). على أنّ هذه القيود قد نظر إليها موزعة على قسمين؛ القسم الأوّل تمثله قيود التّوارد على الأبواب. والثاني تمثله قيود التّوارد على

(٤٢) مقالات في اللغة والأدب، ١/ ١٣٧.

(٤٣) ينظر البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان، ١٥٦.

(٤٤) مقالات في اللغة والأدب، ١/ ١٣٧.

المعجم. وتختلف درجة الصّحة والخطأ، بناء على هذين القسمين. فإذا كان الانحراف في الجملة راجعاً إلى الأبواب، كاختلاف المتتابعات في أقسام الكلام، أو القواعد غير المقاميّة، مثل التلازم والتنافي، كان الخطأ شنيعاً جدّاً. أمّا إذا تلاءم المتعاقبان في الباب، واختلفا في نسبة التوارد وقيوده على الأبواب، فقد قلت فيه نسبة الانحراف مع بقاء الخطأ. ولكن إذا كان الخروج عن الصّواب راجعاً إلى قيود التوارد على المفردات المعجميّة، صار خطأً على جهة الحقيقة، غير أنّه قد يصح من جهة التأويل بالمجاز^(٤٥). وتبيّن المتابعات الآتية مضمون ما تقدّم^(٤٦):

- ١- ضرب زيدٌ خالدًا تعبير صحيح ومناسب.
- ٢- قد زيدٌ خالدًا خطأ فاحش وقع في الباب، للجمع بين المتنافيين من أقسام الكلام (قد والاسم).
- ٣- جلس زيدٌ خالدًا الخطأ أيسر فحشاً، لاتفاق الفاعلين في الفعلية، واختلافهما في لزوم الفعل مع وجود المفعول.
- ٤- أكل زيدٌ خالدًا التركيب صحيح نحويّاً، ولكنه مخالف لقيود التوارد المعجمية، ويصح على تأويله بالمجاز بمعنى: (غمطه حقّه).

- الشّروط المعجميّة:

لقد أسهم النّظر التركيبي للمعجم، في توجيه جملة من المسائل النّحويّة توجيهاً جديداً، فضلاً عن تحليلها على نحو خاص، سواء في نصوص نثرية من قرآن وكلام، أم في نصوص شعريّة، وبما يبين عن تكافل العلاقة وتكاملها بين النّحو والمعجم، ويكشف عن وظيفة المعجم

(٤٥) المصدر السابق، ١/ ٧٥.

(٤٦) ينظر المصدر السابق، ٢٨٤-٢٨٥.

وفاعليته في بناء الجملة بناء نحويًا ودلاليًا صحيحًا. وقد نظّم د. تمام هذه العلاقة على صورة شروط وضعت لتوارد طائفة من المسائل التركيبيّة، رأى أنها لا يخلو منها باب من أبواب النحو، وهي في أصلها شروط معجميّة. ومن بعض تلك الشروط التي كشف عنها بالتحليل^(٤٧):

- ١- يشترط للمفعول المطلق أن يشارك فعله في مادة اشتقاقه.
- ٢- لا يكون التوكيد لفظيًا إلا مع تكرار اللفظ.
- ٣- إذا أفاد الفعل مشاركة، أو تسوية، أو مخالفة، أو نحوها، وجب أن يكون فاعله مثنى، أو جمعاً أو معطوفاً عليه.
- ٤- لا يضاف اللفظ إلى ما في معناه.
- ٥- لا تكون الحال من مادة الفعل الذي نُصبت به إلا مع تخصيص الحال: نحو سعى ساعياً إلى حتفه.
- ٦- لا تأتي الحال من المضاف إليه، إلا بشرطين: أحدهما معجمي. والآخر نحوي.

- ٧- لا حذف إلا بدليل يدلّ على المحذوف.
- ٨- لا تُبنى النكرة على الضمّ في النداء، إلا مع القصد.
- ٩- يلزم الربط بإعادة اللفظ إذا خيف اللبس.
- ١٠- لا تدخل (أن) المصدرية على فعل لا مصدر له، كعسى، وليس، ونعم، وبئس.. إلخ.

- ١١- لا يأتي المطاوع إلا من فعل يمكن لمفعوله أن يتأبى على قبول الحدث، فلا يجوز (انقتل) أو (انضرب).
- ١٢- تعتمد المطابقة أحياناً على اختلاف الاعتبار، كما نقول: العربُ أمةٌ، فيؤنّث فعلها، وهي شعب فيذكر الفعل، فيقال: قال العربُ، وقالت العربُ.

(٤٧) البيان في روائع القرآن/١٥٦-١٥٧.

١٣ - المناسبة المعجمية ضرورية بين اللفظين، فلا يجوز أن يقال: (صعد إلى أسفل الجبل) ولا (اشترت الطمانينة بالحِطة) إلا على سبيل المجاز.

١٤ - على الرغم من وصف الفعل فقط بالتعدي واللزوم - حتى ليوحي ذلك بأنّ التعدي واللزوم نحويان فقط - تمتدّ الظاهرة على مشتقات المادة من الأوصاف، كوصف الفاعل، والمفعول، والمبالغة، وعلى المصدر أيضاً. فالظاهرة معجمية في أساسها.

وفي ضوء تلك النتائج التي جاءت من الربط بين المعجم والنحو، يحسن بنا أن نتناول أبرز موضوعين عامين عولجا في إطار التوارد المعجمي، وأبين عن أثرهما في التحليل النحوي، وهذان الموضوعان هما:

أولاً - التوسّع في ظاهرة الاشتقاق:

واحدة من أهم النتائج التي توصل إليها د. تمام حسان بعد انفتاح فكره على خطة التنظير المعجمي النحوي، التوسّع في ظاهرة الاشتقاق، بوصفه عنصراً معجمياً فحسب. والاشتقاق - في إجراءاته العام - يقوم على ربط كلمات بأخرى، لوجود الاشتراك القائم بينها في أصل الاشتقاق. وسبق لنا ذكر أنّ د. تمام رأى حروف المادة المفرّقة (مادة الاشتقاق)، هي - وحدها - التي تمثل أصل الاشتقاق، مخالفاً بذلك رأي النحاة البصريين والكوفيين، الذين أرجعوا المشتق - على خلاف بينهم - إلى المصدر أو الفعل^(٤٨)، وعلّل ذلك: أنّ كلاً من المصدر والفعل يرجعان إلى مادة واحدة، وهي أصل الاشتقاق. بذات أسهمت رؤية الاشتقاق الموسّعة، في أنّ تتحد مسائل الصّرف والنحو، وتنصهر في منهج تحليلي خاص، مستندة إلى التوجيه المعجمي. ومن أهم المسائل التي لقيت عناية في إطار هذا التوجه الجديد:

(٤٨) ينظر تفصيل الخلاف في كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، مسألة (٢٨)، ١/ ٢٣٥ وما بعدها.

١ - الفعل والمصدر بين الاشتقاق والجمود:

إنّ الفعل بصيغته يدلّ على الزمن، وبمادة اشتقاقه يدلّ على الحدث. والمصدر يمثل اسم الحدث، الذي هو أحد جانبي الفعل. وقد قسّم النحاة العرب الفعل إلى مشتقّ (متصرّف) وجامد. المشتقّ يُبنى منه المصدر تحقيقاً وتأويلاً. والجامد يخلو من مصدر تحقيقاً وتأويلاً، وتكون (أنّ) التي تسبق الجامد والاستقبال هي المخفّفة من الثقيلة. وذهب د. تمام إلى أنّ مجموع هذا المائز بين الفعلين المشتقّ والجامد يعود إلى أصل معجمي مرتبط بالمفردة من جهة اشتقاقها وجوداً وعدمًا، «وإذا كان الجمود والاشتقاق من قضايا المعجم، فذلك الذي ذكرنا يعدّ ضابطاً معجمياً من ضوابط التّوارد»^(٤٩).

٢ - التّعديّ واللّزوم:

عدّد د. تمام التّعديّ واللّزوم من لوازم مادة الاشتقاق المعجميّة، بوصفهما معنّين يعودان إلى طبيعة المعنى المعجمي الذي تدلّ عليه الكلمة المفردة؛ رافضاً - في أثناءه - موقف النحاة العرب عندما قصروا هذين المعنّين على بناء الفعل وحده^(*)، لكونهما يشملان - زيادة على بناء الفعل -

(٤٩) مقالات في اللّغة والأدب، ١/ ١٥٥.

(*) وقع في كلام د. تمام حسان الذي لخصه الباحث هنا غمزٌ بالنحاة حين نسب إليهم قَصْرَ معنّبي التعديّة واللّزوم على الفعل «لا يتجاوزونه بهذا الوصف إلّا مع استعمال عبارة «أو في ما معناه»...». وهو غمز مآله إلى أنّهم أولئك النحاة بالتقصير. وفي هذا المعجز نظر من وجهين:

١ - وقع في عبارة د. تمام من الاستدراك، إذ قال: «إلّا مع استعمال عبارة «أو في ما معناه» - ما يدفع عنهم غمزّه، ويُلحق بكلامه الاضطراب؛ لأنه نسب إليهم تالياً ما نفاه عنهم أولاً، فنفي عنهم الاستيعاب حين نصّ على أنّهم قصرُوا التعديّة واللّزوم على الفعل، ثم أثبتهم حين ذكر أنّهم لا يتجاوزون الفعل بهذا الوصف إلّا مع عبارة «أو في ما معناه». وهذه عبارة مجتملة يشيرون بها إلى ما يقوم مقام الفعل ويؤدّي مؤدّاه من اسم فعل ومصدر واسم مصدر ومشتقات.

اسم الفاعل، واسم المفعول، والمصدر، وصيغة المبالغة. وعليه «إذا كانت مادة الاشتقاق مشتركة بين هذه المعاني، كانت التعدية أو اللزوم لجميعها. وإذا كان الأمر كذلك، فأولى بالتعدّي واللزوم أن يكونا من صفات مادة الاشتقاق في عمومها، وأن يُعدّا من المعاني المعجميّة التي لا غنى عنها في التحليل النحوي..»^(٥٠).

٣- الفعل ومفعوله المطلق:

أرجع د. تمام العلاقة بين الفعل ومفعوله المطلق إلى اشتراكهما في أصل المادة واشتقاقهما منها، نحو (ضربته ضرباً). وهي علاقة معجميّة كما سلّم به سلفاً. أمّا إذا لم تكن بين الفعل ومفعوله علاقة قائمة على أساس الاشتقاق المشترك، فيلحظ عندها توفّر المعاني المعجميّة الأخرى، مثل معنى الملايسة القائم بين الفعل والحدث التي تبين علاقة الحال بالحدث نحو: (أقبل الرجل ضاحكاً)؛ أو معنى الغائية إذا كان الحدث مفعولاً لأجله، نحو: (ضربته تأديباً). وهكذا تتضح وظيفة المعنى المعجمي في تحديد العلاقة بين عناصر الجملة^(٥١).

= ٢- إذا أراد د. تمام من النحاة التصريح بذلك والتفصيل فيه، فتلك كتبهم المبسوطة تدلّ عليه. وممن صرح بذلك وفصل فيه في بعض ذلك أبو حيان الأندلسي (ت ٥٧٤٥هـ) الذي قال، وهو يفسر قول ابن مالك «اسم الفاعل يعمل عمل فعله مطلقاً»: «يعني أنه إن كان فعله لازماً كان اسم الفاعل لازماً، وإن كان متعدّياً إلى واحد كان اسم فاعله متعدّياً إلى واحد، وإن كان لاثنين كان اسم الفاعل متعدّياً إلى اثنين، وإن كان إلى ثلاثة تعدّى اسم الفاعل إلى ثلاثة». التذييل والتكميل ٣٠٩/١٠. وانظر فيه أيضاً: ٣١٨/١٠، و٦٣/١١.

ومن هنا كان من المناسب أن يلحظ الباحث ذلك، ويعقّب عليه بما هو مناسب.

[المجلة].

(٥٠) مقالات في اللغة والأدب، ١/١٣٩.

(٥١) ينظر المصدر السابق، ١/١٣٨-١٣٩.

٤ - الصيغ المشتركة:

تمثل ظاهرة الصيغ المشتركة بعضاً من مواطن الالتباس عند بيان معناها. وإذا ما أخذنا بحكم الصّرفيين في كون الصيغ نماذج تُحتذى لا كلمات مشتقة، فلن نظفر بعدد من معناها إلا بالمعنى الوظيفي، غير الجامع المانع، وغير الحاسم لوجه الدلالة في التحليل النحوي. مثال ذلك، أنّ صيغة مثل (فعال) كانت من الصيغ المشتركة بين المصادر والأسماء، ويقع اللبس في التفريق بينهما أحياناً، كاللبس الواقع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. فقد فسّرت كلمة (لباس) بالاسم وتعني الثوب. على أنّ د. تمام رجّح أن يكون معناه المصدر، ويقصد به (الملابسة)، مع أنّ سياق الآية لا يرجح تفسيره بالملابسة، فهو من قبيل المجاز، ونوع من المشاكلة^(٥٢). ونظير ذلك أيضاً صيغة (فَعِيل) نحو: صَهِيل، وبَخِيل، وسَرِير، فلا يمتاز المصدر عن الاسم منها، إلا بالرجوع إلى الاشتقاق الذي يعيّن الأوّل مصدراً، والثاني صفةً مشبّهةً، والثالث اسماً. والاشتقاق (وهو معجمي قبل أن يكون صرفياً) يقف عوناً للباحث عند التحليل النحوي الكافي^(٥٣).

ثانياً - بين الوظيفة والمعجم:

يوظّف د. تمام في هذه العلاقة عنصراً يعود إلى مبادئ النظرية التوليدية في بيان الضوابط المعجمية المعنوية، يعرف بـ (قيود الانتقاء) أو (قوانين الانتقاء)^(٥٤). وتعني هذه القيود أو القوانين ما يجب أن يراعيه المتكلم في

(٥٢) ينظر الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٤٣٥، وتفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ٧٦/٩.

(٥٣) ينظر مقالات في اللغة والأدب، ١/ ١٤٢-١٤٣.

(٥٤) ينظر جوانب من نظرية النحو، تشومسكي/ ١٤٠ وما بعدها.

اختيار مفردات الجملة الملائمة لها، لأن كل كلمة يختارها المتكلم تحمل في بنيتها وسماتها شروطاً لانتظامها مع الكلمة اللاحقة وتضامها معها. وهكذا حتى يكتمل البناء، ويتحقق الغرض من الكلام. وفي هذا الانتقاء جانبان: الأوّل نحوي/ وظيفي، كانتقاء الفعل الذي يحتم إسناده لفاعل؛ أو انتقاء المبتدأ الذي يشترط الخبر في سياقه. أمّا الثاني فهو معجمي، يلحظ التأويل الدلالي المقروء من المعجم. فضلاً عن صياغة قاعدة مفادها أنّ المتكلم كلما تقدّم في بناء الجملة بمقدار كلمة، قلت قدرته على الاختيار. وقد طرق د. تّمّام بهذه المفاهيم أبواب التراكيب العربيّة، كاشفاً عن العلاقة بين الوظيفة والمعجم في بعض المسائل التحوّية التي باشرها استناداً إلى ما تقدّم. ومن هذه المسائل:

١ - استعمال (كلّما):

تنطوي هذه الأداة على قيود وظيفيّة ومعجميّة بارزة في حال انتقائها؛ الوظيفيّة منها تقتضي وجود فعلين ماضيين في الغالب، وتمنع - في الوقت نفسه - ورود فعل الأمر في سياقها. أمّا القيود المعجميّة التي توجد لها (كلّما) فتظهر في إيراد فعلها (الموضوع لمعنى)، إذ يعمل على زيادة قيود الانتقاء، حتى تضيق مع تقدّم بناء الجملة نحو قولنا: (كلّما أنبت الفلاح شجرةً حصداً ثمارها)؛ وظيفياً، يلزم (كلّما) هنا وجود فعلين ماضيين في تركيبها قبل النطق بالفعلين، وتمنع أيضاً فعل الأمر من أن يكون طرفاً في فعلها. أمّا معجمياً فإنّ الفعل (أنبت) يستدعي قوانين معجميّة لاختيار الفاعل. وفي المعهود يكون الإنبات من عمل الفلاح، فإذا جاء بالفاعل (الفلاح)، كان ملزماً في العادة أن يكون المفعول ما يصح غرسه، من أمثلة الشجر أو الحبوب أو سواهما. وتباعاً، تحتم وجود نتيجة لذلك الإنبات

ممثلة بالحصاد المرجو منه. وإلزاماً يكون ما يحصد من الشجرة ثمارها. وهكذا، يمضي د. تمام على سمت هذا الاستدلال ليبين العلاقة المتينة بين الوظيفة والمعجم، بوصفها قيوداً على بناء الجمل^(٥٥).

٢- الظرف المتصرّف:

يتأرجح الظرف المتصرّف بين الاستعمال الوظيفي والاستعمال المعجمي. وقد قال عنه ابن مالك في الخلاصة: «وَمَا يُرَى ظَرْفًا وَغَيْرَ ظَرْفٍ..»^(٥٦). وذهب د. تمام إلى أنّ الظروف المتصرفه في أصلها مشتقة، أي لها مواد اشتقاق، ومعانٍ مفردة مستقلة، وبذلك تكون كلمات معجميّة. لكنها تحوّلت عن طريق (التقل) إلى ظروف لأداء وظيفة نحويّة. فجملة من نحو: (أحببتُ مقدّم الربيع) هي جملة ملتبسة، إذ لا يُعرَف أن الحب وقع على مقدّم الربيع أي: الإتيان نفسه، أو في مقدّم الربيع، أي وقت الإتيان. والتفريق في مثل هذا اللبس يكون تفريقاً بين المعجمي الذي يحدّد المشتق من وجه الكلمة، وهو الظرف المتصرّف، وبين الوظيفي الذي يدلّ على الظرف غير المتصرّف: غير المشتق^(٥٧).

٣- مجيء الحال من المضاف لا من المضاف إليه:

وهذا ضابط من ضوابط توارد المعجم يمكن الترخّص في شرطه بإحدى حالتين: الأولى نحويّة. والثانية معجميّة. إذ يصحّ الحال في قولنا: (سمعتُ مؤذّنَ العشاءِ داعياً إلى الصلاة). ولكنه يمتنع في مثل (سمعت مؤذّنَ المسجدِ مفتوحاً)، وضابطه النحوي الوظيفي هو صلاحية المضاف أن ينصب المضاف إليه، إذا ما نُون المضاف، نحو: (هذا مؤذّنُ العشاء).

(٥٥) ينظر مقالات في اللّغة والأدب، ١/ ١٤٥-١٤٦.

(٥٦) الخلاصة، ابن مالك / ١٠٨.

(٥٧) ينظر مقالات في اللّغة والأدب، ١/ ١٥٦-١٥٧.

ولكن لا يجوز القول: (هذا مؤذن المسجد). أما الحالة الثانية - وفيها الترخّص في الجانب المعجمي - فتكمن في صحة مجيء الحال من المضاف إليه، ولكن بشرط أن يكون المضاف بعضاً من المضاف إليه، نحو قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّنْقَلَبِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، فالحال (إخواناً) جاء من الضمير (هم) في (صدورهم)، وجاز ذلك لأنّ (صدور) أجزاء حقيقة مما يدل عليه الضمير (هم) ^(٥٨).

٤ - كلمة (نفس):

هذا اللفظ يمكن أن يدخل في تركيب يتردد بين المعنى الوظيفي والمعنى المعجمي. وإذا ما قلنا: (سلبتُ زيدا نفسه) فإنّ التحليل الوظيفي يوجهه إلى باب (التوكيد)، ويصبح السلب فيه بمعنى (الغضب)، ولكنّ التوجه المعجمي للفظ (نفسه) ممكن أن يعطي معنى آخر مختلفاً تماماً عمّا سبقه، وأعني به (سلب الروح) وتفسيره: (قتلت زيدا) ^(٥٩).

وهناك صور أخرى تماثل هذه العلاقة التي تقوم بين الوظيفة والمعجم، بحثها د. تمام حسان. من ذلك موضوعات: التّضمن، والنّقل، والترادف والفروق، والاستثناء، والفعل المتنقل وغير المتنقل، والنكرة والمعرفة وسواها ^(٦٠).

- إشكاليّتان: نظريّة ومنهجية

من خلال التأمّل في دراسة المعجم للدكتور تمام حسان، وتحديداً عندما عدّل من أفكاره فيه، بجعله نظاماً مستقلاً برأسه، ودخوله طرفاً تحليلياً في البناء النحوي؛ مقارنة مع موقفه النظري والمنهجي العامّين، لاحظت لنا

(٥٨) ينظر المصدر السابق، ١/ ١٤٩.

(٥٩) ينظر مقالات في اللغة والأدب، ١/ ١٥٦.

(٦٠) ينظر المصدر السابق، ١/ ١٣٥ وما بعدها.

إشكالية نظرية وأخرى منهجية تمخّصتا عن دراسته في هذا المجال
نوجزهما في الآتي:

- إنّ د. تمام حسان بقي مخلصاً لموقفه النظري والمنهجي في دراسته
للغة وتأملاته فيها، من كون اللغة موضوعاً وصفيّاً، يعتمد الجانب
التصنيفي، المترشح عن الشكل والوظيفة. وليس هناك معنى في اللغة إلا
المعنى الذي يهبه الشكل اللغوي للباحث، مستنداً إلى شروط سياقية. وإنّ
موقفه الوصفي التصنيفي كان حاسماً في رفض أي صورة من صور التفسير
في اللغة، أو الإجابة عن (لماذا): العلة الغائية ومتعلقاتها من التأويل
والتقدير، لكونه - بحسب زعمه - سلوكاً يلغي استقلال منهج اللغة،
ويضرب جميعاً بالحدس والتخمين، ولا يستند للحس. على أنّ الحدس
والتخمين من عمل الفلاسفة، وليس من عمل عالم اللغة، الذي يقوم واجبه
على الإجابة عن (كيف) فحسب^(٦١). وقد أفضى هذا الموقف النظري
والمنهجي إلى ظهور كتابه أو نموذجه (اللغة العربية معناها ومبناها) الذي
التزم بما فيه، ودافع عنه بضراوة. غير أنّ الوقوف على طبيعة العلاقة بين
المعجم والنحو في النظرية التوليدية، جعله - كما عرفنا - يعدّل بسببه من
أفكاره، ويقدم هذه الأبحاث التي شغلنا بها في هذا البحث. ولكن الإشكال
الذي يبرز من خلال تفكيره الجديد هذا يظهره السؤال الملحّ عن الكيفية
التي يمكن بها الجمع بين مبحث تعود أقسامه وتوجيهاته إلى أصول نظرية
تفسيرية، وبين منهج وصفي تصنيفي. فالمعجم في النظرية التوليدية يمثل
أحد مكونات العنصر التحويلي في الجهاز الواصف، أو النموذج الحاسوبي
الصوري، الذي يُبنى على أساس تفسير عمل الملكة الذهنية؛ وهدف

(٦١) ينظر اللغة بين المعيارية والوصفية / ٥٠، وينظر مناهج البحث في اللغة، ١٩٥.

التوليدية قائم على الكفاية التفسيرية، وعلى ما وراء التفسير أيضاً. يقول (تشومسكي): «.. أن نبحت عن مستوى من التفسير أعمق من الكفاية التفسيرية، لا نكتفي فيه بالسؤال عما هي خصائص اللغة، بل نتجاوز إلى السؤال عن لماذا هي على هذا النحو»^(٦٢). إذن المعجم هنا يعتمد التمثيل الدلالي، وإمكانات التأويل التي قد تمنح أكثر من وصف لبناء جملي واحد. المصادمة النظرية والمنهجية أن د. تمام ألحق المعجم في توجهه التوليدي التفسيري بنموذج وصفي تصنيفي، يعتمد المعطيات الحسية فحسب، ويقوم على الفصل بين النحو وعناصر التأويل التي يضمها المدخل المعجمي. ووقع هذا الإلحاق في نموذج (اللغة العربية معناها ومبناها) الممثل لمنهجه المعلن، ومن خلال قرينة (لفظية) هي قرينة التّضام، بفرع (التوارد) الذي عدّه سلفاً مسرحاً للدراسات الأسلوبية والبلاغية غير المنضبطة لتعلقها بالاختيار الفردي للكلمات. وعوداً على الإشكال الذي أوردناه بزيادة على ما سبق: هو أنى يتسنى التأليف بين منهج تفسيري وآخر تصنيفي؟ وهل هناك إطار نظري يسمح لمباشرة موضوع تأويلي بنظرية تفسيرية، بمنهج شكلي؟! حتى يصل بالدكتور تمام - استناداً إلى هذا التّفيق - أن يقبل بفكرة التأويل أو التقدير في بحث المعجم، وعدّها من صواب التحليل^(٦٣)، على الرّغم من رفضه السابق لها، جملة وتفصيلاً^(٦٤)، لأنّ منهجه الوصفي يضيق ذرعاً بالتأويل، ويرفض السّبل المؤدية إليه.

- واحدة من أفكاره التي عدّها د. تمام، ممّا له صلة بالمعجم، تحويل

(٦٢) اللسانيات التوليدية من التفسير إلى ما وراء التفسير، تشومسكي / ٥١.

(٦٣) ينظر مقالات في اللغة والأدب، ١/ ١٤٧.

(٦٤) ينظر اجتهادات لغوية / ٣٥.

المعجم إلى نظام قائم برأسه، في مقابل أنظمة اللغة التقليدية الثلاثة التي صارت نظاماً لتوفّر ثلاثة عناصر مجتمعة؛ وهي العلاقات العضوية، والقيم الخلاقية، وإمكانية الجدولة بين عناصره. لكنّه - وهو ينتظم هذا النسق الجديد - لم يبيّن كيف يمكن للمعجم أن يدخل في شروط تحقق الجدول بمحوريه: الرأسي أو محور التّقليب، والأفقي أو محور التّركيب. فضلاً عن بيان نوع العناصر التي يمكن لها الانتظام بجدول تصنيفي، حتى يصحّ له إدراجه في زمرة الأنظمة اللّغوية وترتيبها البنيويّ؟. ثمّ إنّ تحوّل المعجم إلى نظام يفترض فيه تكافله وتكامله مع الأنظمة الثلاثة: الصّوتية، والصّرفية، والنّحوية، لكنّ د. تمام ترك الأمر - أيضاً - خالياً من تفصيل الكيفية التي يتم بها التّكافل أو التّكامل بين المعجم وسائر أنظمة اللغة؛ وماذا سيطراً عليها من تغيير بناء على هذه النتائج الجديدة، أو بعبارة أكثر تحديداً: ماذا سيقدم النظام الصّرفي للنّظام المعجمي أو النّظام النّحوي بعد ذلك؟. وما الذي سيأخذه المعجم من الصّرف؟ وما العلاقة التي تنشأ بعد بينهما، وخاصة حينما صار موضوع الاشتقاق بحثاً معجمياً؟. وأخيراً، وليس آخراً، ما الذي سيعطيه المعجم للنّحو على نحو التّفصيل؟. هاتان الإشكالتان، وعلامات الاستفهام تحتاج - لزوماً - إلى حلّ، وإجابات تفصيلية، لأنّها تتعلق ببنية نموذج مقترح لوصف اللّغة العربيّة، قام على أسس نظريّة ومنهجية واضحة ومعلنة. وكنا نأمل أن يطيل الله في عمر د. تمام حسان (رحمه الله) لكي يجيب عنها ويضع حلّاً علمياً لها.

نتائج البحث:

- وقف د. تمام حسان موقفين متباينين من المعجم، مثلاً مرحلتين مختلفتين من نظره فيه:

الموقف الأوّل، كان يرى فيه متناً لغويّاً يعبر عن لائحة من المفردات

فحسب. ولذا اختص منهجه آنذاك بإجراءات فنيّة تختصّ بصناعة المعجم. وهو، وإن كان عنصراً من اللّغة، فليس بنظام، لافتقاره إلى شروط التّكافل المتوفّرة بالنّظام. أمّا علاقته بالنّحو فهي كانت مستبعدة تماماً في هذه المرحلة، لأنّ النّحو لا يُعنى بالمعنى المفرد، وإنّما يُعنى بالمعنى الوظيفي التي تستبين به العلاقات السّياقيّة.

أما الموقف الثاني فهو يمثّل تحوّلاً في رأيه السابق؛ فقد جاء نتيجة للتأمّل في الكتابات التّوليدية، ونظريتها حول العلاقة المتينة التي تربط النّحو بالمعجم، بوصفه أحد المكوّنات الرّئيسة للنموذج النّحوي الممثّل للملكة اللّغويّة. فآمن د. تّمّام على إثر ذلك بوظيفة المعجم في التّحليل النّحوي بما يسمّى بـ (قيود التّوارد) بعد أن عرف سماته وقراءته الدّلالية؛ وآمن كذلك بتناسق عناصر المعجم التي تمكّنه من أن يكون نظاماً رابعاً من أنظمة اللّغة، على الرّغم من افتقاره إلى البيان الكافي لعلاقة الجدولة فيه.

- أنتجت هذه الرّؤية الجديدة للمعجم تصادماً نظرياً ومنهجياً، مع اتجاه د. تّمّام ومنهجه في اللّغة، لأنّ مبحث المعجم في التّوليدية وضع لغايات تفسيرية تتجاوز حدود الظّاهرة المادّية المحسوسة، وهي بذلك تصطدم مع مبادئ الوصفية التّصنيفية التي يعتمدها د. تّمّام؛ أصلاً في تفكيره، والوصفية ترفض الخوض في مجالات التّفكير، لأنّها تسلب المنهج استقلاله بحسب زعمها.

- ومن آثار المشكل التّظري والمنهجي أيضاً أنّ د. تّمّام حسان أدرج المعجم في نموذج الوصفي التّصنيفي، الذي يعتمد الشكل لبيان المعنى أو الوظيفة، مع أنّ البحث المعجمي المنطوي على قيود التّوارد يتجاوز الشكل إلى التّأويل. يضاف إلى ذلك عدّه المعجم نظاماً مستقلاً برأسه، وجعله إياه

في رتبة سابقة للنظام النحوي، لكنه لم يضع مخططاً يبين طبيعة العلاقة التي تربط المعجم بسائر الأنظمة الثلاثة، تاركاً الأمر مجملاً من دون بيان كافٍ.

* * *

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- اجتهادات لغوية، د. تمام حسان، ط ١، عالم الكتب، القاهرة ٢٠٠٧ م.
- الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو، فقه اللغة، البلاغة، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية)، د. ميشال زكريا، ط ٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين التحويين: البصريين والكوفيين، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي (ت ٥٧٧ هـ)، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط ٤، مطبعة السعادة، القاهرة - مصر، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م.
- البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني، د. تمام حسان، ط ١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
- تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٣ م.
- جوانب من نظرية النحو، نعوم تشومسكي، ترجمة مرتضى جواد باقر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة البصرة، (د. ت).

- الخلاصة في النحو والتصريف، محمّد بن جمال الدّين بن مالك (ت ٦٧٢هـ) تحقيق سليمان العيوني، مكتبة دار المنهاج، الرياض، د. ت.
- شرح قطر النّدى وبلّ الصّدى، أبو محمّد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١)، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، ط ١، المكتبة العصريّة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- الكشّاف، جار الله أبو القاسم الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمّد معوّض، ط ١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
- اللّسانيات التّوليديّة، من التّفسير إلى ما وراء التّفسير، نعوم تشومسكي، ترجمة: محمّد الرحالي، ط ١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ٢٠١٣م.
- اللّسانيات واللّغة العربيّة، نماذج تركيبية ودلاليّة ج ١، د. عبد القادر الفاسي الفهري، دار الشؤون الثقافيّة العامّة (آفاق عربيّة)، بغداد، دار توبقال للنشر ١٩٨٢م.
- اللّغة العربيّة معناها ومبناها، د. تّمّام حسّان، ط ٥، عالم الكتب، القاهرة ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- اللّغة بين المعياريّة والوصفيّة، د. تّمّام حسّان، ط ٤، عالم الكتب، القاهرة ٢٠٠٠م.
- المعجم العربي، نماذج تحليتيّة جديدة، عبد القادر الفاسي الفهري، ط ٢، دار توبقال، الدار البيضاء - المغرب، ١٩٩٩م.
- مقالات في اللّغة والأدب، د. تّمّام حسّان، ط ١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- مناهج البحث في اللّغة، د. تّمّام حسّان، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٠م.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق عبد العال سالم مكرّم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

التعريف والنقد

تَغْيِيرُ مَعْنَى الْكَلِمَةِ بِتَغْيِيرِ لَفْظِهَا

الأستاذ الدكتور مكي الحسني (*)

في لغتنا العربية كلمات كثيرة يمكن أن يُنطَقَ بكلِّ منها على وجهين أو ثلاثة. ولكلِّ وجهٍ معنىٌّ مختلف عن معنى الوجه الآخر. ومن الملاحظ أن هذه الحقيقة تَغيب عن بعض الخطباء والمذيعين - فينطق الواحد منهم الكلمة باللفظ المغاير للمعنى الذي يريده، ولكن يلاحظ الغلط فيها بعضُ المستمعين، فتتخفص «أسهم المتحدث»... وقد جمعتُ في هذه الصفحة عددًا من هذا الصنف من الكلمات، عسى أن يُفيد منها بعضُ من يطلع عليها.

القسم الأول: أبرز ما علق بالذاكرة من الكلام المتداول

- الغيبة: الغياب، وهي من مصادر فعل «غاب» تقول: غاب يَغيب غَيْبًا وَغَيْبَةً وَغَيْبِيَّةً وَغَيْبًا: خلاف شَهِدَ وَحَضَرَ. ومما تَغَيَّرَ معناه بتغْيِيرِ لفظه: الغيبة: أن يُذكَرَ من وراء الإنسان عُيُوبُهُ التي يَسْتُرُهَا وَيَسُوؤُهُ ذِكْرُهَا. وفي الحديث: «الغيبية: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بما يَكْرَهُ». وهي من المُحَرَّمات في القرآن الكريم والسُّنَّةِ النبوية.
- الفَطُور: ما يُفْطِرُ عليه الصائم بعد غروب الشمس. أو ما يتناول من

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

الطعام في الصباح. والفُطور: تناول الصائم طعامه بعد غروب الشمس، وتناول الطعام الأول في الصباح.

الفُطور: جمع (الفُطر): طائفة من اللا زهريات خالية من الكلوروفيل.

• العشاء: طعام العشي.

يقال: تناولنا العشاء، وكذلك: تناولنا الغداء.

ولا يقال: تناولنا طعام العشاء، ولا يقال: تناولنا طعام الغداء.

العشاء: أول ظلام الليل، أو من صلاة المغرب إلى العتمة. والعشاءان:

المغرب والعشاء.

• مُخْلِص: اسم فاعل من أَخْلَصَهُ=خَلَّصَهُ. يقال: أخلصَ الله الدين: ترك

الرياء فيه، فهو مخلص. أخلص له النصيحة: مَحَضَّها له خالصة لا

يشوبها شيء. وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]. ولهذا الفعل معانٍ أخرى.

مُخْلِص: اسم مفعول من أَخْلَصَهُ: اختاره وميَّزَه عن غيره فهو مُخْلِص.

وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

• العداء: مصدر عدا عليه: عَدُوًّا وَعَدَاءً: ظلمه وتجاوز الحد.

العداء: مصدر عاداه معادةً وَعِدَاءً: خاصمه وكان عدوّه.

• السُّوء: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسان وكلُّ ما يَقْبَحُ، وهو اسم جامع للآفات.

السُّوء: مصدر سَاءَهُ (أي فَعَلُ ما يُكْرَهُ) ويستعمل مضافاً إليه ما يُراد ذمُّه.

يقال: هذا جليسٌ سَوءٌ ويقال: هذا رَجُلٌ سَوءٌ: هذا رجلٌ

قبيح سَيِّئ.

• القَيْدُ: حَبْلٌ وَنَحْوُهُ يُجْعَلُ فِي رِجْلِ الدَّابَّةِ وَغَيْرِهَا فَيَمْسِكُهَا،

يقال: قَيْدٌ من حديد. وله معانٍ أخرى.

القَيْدُ: القَدْرُ والمقدار، يقال: بينهما قَيْدٌ رُمح.

ويقال: لم يتزحزح عن رأيه قَيْدَ شَعْرَةٍ / أُنْمَلَةٌ!

ولا يقال: قَيْدَ شَعْرَةٍ بفتح القاف!!

• الفَرْحَة: المَسْرَّة والبشري.

الفَرْحَة: مؤنث الفَرِح: الشاعر بالسُرور والبهجة.

• الضِّياع: مصدر ضاع يَضِيع ضِياغًا: فُقِدَ وأُهْمِلَ.

الضِّياع: جمع الضَّيعة: الأرض المُعَلَّة، والضَّيعة: العمل النافع المُربح كالتجارة والصناعة وغيرهما من الحِرَف... وجمع «ضائع».

• الصَّغار: جمع صغير.

الصَّغار: مصدر صَغُر يَصْغُر صِغارًا: رضي بالذُّلِّ والضَّعة، فهو صاغر (ج) صَغْرَةٌ وصاغرون.

• الوُضوء: التَّوَضُّؤُ (مصدر تَوَضَّأ).

الوُضوء: الماء يُتَوَضَّأُ به، واسمٌ يقوم مقام التَّوَضُّؤِ. المُتَوَضَّأُ: المكان المخصص للوُضوء في المساجد. ومن الخطأ أن يقال عنه: المُؤَضَّأُ أو المُؤَضَّأ!

• العِبْرَة: الدَّمْعَة.

العِبْرَة: الإِتِّعَازُ والإِعتبار بما مضى.

• الفِناء: الساحة في الدار أو بجانبها.

الفِناء: مصدر فَنِيَ يَفْنِي فِناءً: بادَ وانتهى وجوده.

• المَدَّة: علامة تُجَعَلُ على الهمزة الممدودة هكذا ~.

المُدَّة: مقدار من الزمان يقع على القليل والكثير.

• البَعْثَة: هيئة تُرْسَلُ في عمل معيَّن مؤقت، منها بَعْثَة سياسية وبعثة دراسية...

البَعْثَة: مصدر بَعَثَه يَبْعِثُه بَعْثًا وبعْثَةً، نحو: إِنَّ بَعْثَكَ أَخَاكَ لِحَلِّ هَذِهِ المشكلة كان اختيارًا موفَّقًا.

- الجَلْسَة: مَرَّةُ الجَلوسِ.
- الجَلْسَة: اسم الهيئة من فعل جَلَسَ، يقال: جَلَسَ جَلْسَةً المَتَكَبِّرَ.
- البُرُّ: الخير، والفؤاد. مصدر فعل بَرَّ يَبْرُّ بَرًّا.
- البُرُّ: حَبُّ القمح، وابن بُرَّة: الحُبز.
- البُرُّ: ما انبسط من سطح الأرض ولم يُغَطِّه الماء.
- والبُرُّ: اسمٌ من أسماء الله تعالى.
- والبُرُّ بوالديه: المحسن إليهما.
- الحَمَلُ: مصدر حَمَلَ يَحْمِلُ، وله مَعَانٍ أُخرى.
- الحَمَلُ: ما يُحْمَلُ على الظَّهر ونحوه.
- الحَمَلُ: الصغير من الضأن.
- العَيْنُ: عضو الإبصار للإنسان وغيره من الحيوان.
- العَيْنُ: جمع الأَعْيُنِ والعَيْنَاءِ. والأَعْيُنُ: واسعُ العين بَيْنَ العين.
- السُّمُكُ: سُمُكُ الشَّيْءِ: غَلَطُهُ وثخانتُه.
- السُّمُكُ: السقف، والقامة من كل شيء. وفي التنزيل العزيز: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿ [النازعات: ٢٧-٢٨]. أي جعلها عالية البناء مستوية الأرجاء.
- وقال الفرزدق:
- إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
- المَهْرُ: الصغير من الخيل.
- المَهْرُ: صَدَاقُ المَرَأَةِ: ما يدفعه الزوج إلى زوجته بعقد الزواج.
- السَّفَرَةُ: جمع السَّافِرِ، ومن معانيه واحد الملائكة الذين يُحْصُونَ الأعمال.
- السَّفَرَةُ: المَرَّةُ مِنَ السَّفَرِ.
- السَّفَرَةُ: طعام يُصنع للمسافر. وأيضًا المائدة وما عليها من الطعام.

- **الطَّعْمُ**: ما تدركه حاسة الذوق من طعام أو شراب (كالحلاوة والمرارة و..).
- الطَّعْمُ**: ما يُلقى للسمك وغيره لاصطياده. ويطلق مجازاً على كل ما يُتوصل به إلى شيء، كالرشوة والهبة والهدية.
- **الغُرُورُ**: كلُّ ما غرَّ الإنسان من مالٍ أو جاهٍ أو شهوة، أو إنسان، أو شيطان. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَعَزَّكُم بِاللهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٤]. والغُرُورُ: ما يُتغَرَّعَرَّ به من الأدوية.
- الغُرُورُ**: مصدر غَرَّ فلاناً يَغُرُّه غَرًّا وغُرُورًا: خدعه وأطمعه بالباطل. انخداع المرء بنفسه وإعجابه بها ورضاه عنها. التكبر والاختيال.
- **السُّكْرُ**: ما يُسَدُّ به مجرى الماء (كالنهر ونحوه).
- السُّكْرُ**: غيبوية العقل واختلاطه من الشراب المُسَكِر.
- **السَّنَّة**: اثنا عشر شهرًا، وهي إما قمرية أو شمسية.
- السَّنَّة**: النَّعَاسُ: فُتُورٌ يتقدَّم النوم.
- **الحَبْرُ**: المِدادُ يكتب به. (ج) أحبار وحُبُور؛ والعالم.
- الحَبْرُ**: العالم. (ج) أحبار وحُبُور.

القسم الثاني: ما اخترته من كتاب قطرب^(١) من أصل (٣٢) كلمة

مئثة اللفظ، وكلُّ معنى

- **السَّلَام**: بالفتح، التحية بين الناس.

(١) المئثة في اللغة، لأبي علي محمد بن المستنير المعروف بقطرب (ت بعد ٢١٠هـ). تح. عدنان عمر الخطيب. الطبعة الأولى - ٢٠١٦م - دار الماجد ودار العصماء. وفي هذا الكتاب لكل معنى للكلمة شاهد شعري. وهناك كتاب أوسع من هذا بكثير: إذ يضم / ٢١٣١ / كلمة مئثة، عنوانه: إكمال الإعلام بثليث الكلام - تأليف: محمد بن عبد الله بن مالك الجباني (ت ٦٧٢هـ) مكتبة المدني للطبع والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م. جدة - المملكة العربية السعودية.

- السَّلام: بالكسر، الحجارة، واحدها سَلِمة.
- السُّلام: بالضم، عظام الأصابع بين كل مَفْصِلَيْن.
- الكَلَام: كلام الناس بينهم.
- الكِلام: الجراحات، واحدها كَلْمٌ.
- الكُلام: الأرض الصلبة، فيها الحصى والحجارة.
- حَلَمٌ: أن يَحْلُمَ في النوم.
- حَلِمٌ: من حَلِمِ الأديم وفساده.
- حَلْمٌ: من الحِلْمِ والاحتمال.
- الحَجْرُ: مُقَدَّم القميص.
- الحِجْرُ: العقل.
- حُجْرٌ: اسم رَجُلٍ.
- الشَّرْبُ: القوم يشربون، وهُمُ النَّدامى؛ ومصدر شَرِبَ!
- الشَّرْبُ: الماء بِعَيْنِهِ وَمَوْضِعُهُ.
- الشُّرب: مصدر شَرِبَ يَشْرَبُ شُرْبًا.
- الصَّرَّةُ: الجماعة من الناس. وأيضًا الصيحة. وفي التنزيل العزيز:
﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَعةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩].
- الصَّرَّةُ: الليلة الباردة.
- الصُّرَّةُ: الخِرقة يُصَرُّ فيها الشيء.
- السَّقْطُ: الثلج.
- السَّقْطُ: ما يسقط من النار، وهو أيضًا عَيْنُهَا. وقد يكون أيضًا من الرَّمْلِ الذي يتصل باللوى (أي بما استرقَّ من الرمل).
- قال امرؤ القيس:

قفا نَبَكٍ من ذكري حبيبٍ ومنزلٍ بسِقْطِ اللّوى بين الدّخولِ فحومَلِ

السَّقْطُ: الولدُ يسقط من بطن أمه مستبين الخلق لغير تمام.

• الأُمَّة: الشَّجَّة التي تبلغ أمَّ الرأس (أي الدماغ).

الإُمَّة: النِّعمة والخِصْب.

الأُمَّة: الجماعة من الناس.

• القِسْطُ: الجَوْرُ (الظُّلم).

القِسْطُ: العدل.

القِسْطُ: ما يُبَخَّر به؛ (عُودٌ هنديٌّ يُجَعَل في البَخُور والدواء).

• القِمَّة: ما يَقْتُمُّه الأسد، أي: ما يَطْلِبُه ليأكله.

القِمَّة: أعلى كلِّ شيءٍ.

القِمَّة: المَرْبَلَة.

• العَرَفُ: رِيحُ العُود.

العَرَفُ: الصبر عند المصيبة.

العَرَفُ: المعروف.

• الجِدُّ: أبو الأب وأبو الأم، وهو البَحْتُ أيضًا، وهو جلال الله تعالى وعَظَمَتُهُ.

وفي التنزيل العزيز: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدًّا رَبًّا مَّا اتَّخَذَ صَحْبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

الجِدُّ: نقيض الهزل، وهو الاجتهاد في الأمر. يقال: فلانٌ محسِنٌ جدًّا:

بلغ الغاية في الإحسان (المعجم الوسيط).

الجِدُّ: البئر القديمة. وجانب الشيء. جُدُّ النهر: ضِفَّتُهُ وشاطئه.

• الكَلَا: مَهْمُوزًا (الكَلَاء) ومَقْصُورًا (الكَلَا): النَّبْتُ.

الكَلَا: جمع كِلَاءة، وهي الحِفْظُ: كُونِي بخيرٍ في كِلَاءٍ وغِبْطَةٍ...

الكُلَى: جمع كُليَّة.

• الحَمَام: الطير المعروف.

الحِمَام: الموت.

الحُمَام: اسم رَجُل: (الحُصَيْن بن الحُمَام في شعر الخنساء).

* * *

جهود التعريب في التعليم العالي

جامعة دمشق نموذجاً

الأستاذة الدكتورة لبانة مشوح^(*)

من المعروف أن جامعة دمشق كانت رائدة في تعريب التعليم الجامعي، لكن ما قد يجهله البعض أنه عندما تأسست كلية طب الشام، وهي نواة جامعة دمشق، عام ١٩٠٣ في عهد السلطان عبد الحميد، كان التدريس فيها آنذاك باللغة التركية. إلا أن المصطلحات الطبية التي كانت مستخدمة في مناهج كلية الطب في اسطنبول كانت في معظمها مستقاةً من اللغة العربية، استناداً إلى ما ذكره السيد كمال الدين إحسان أوغلو المدير العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي في كتابه «المؤسسات الصحية العثمانية الحديثة في سورية - المستشفيات وكلية طب الشام». ولاحقاً، أصبحت مناهج كلية طب الشام تدرّس كاملة باللغة العربية. وهكذا بقيت إلى يومنا هذا، لتصبح جامعة دمشق منذ ذلك الحين رائدة تعريب التعليم الجامعي بدون منازع.

وبما أن العربية كانت اللغة التي تُدرّس فيها العلوم الطبية، كان لا بد من تأليف كتبٍ ومراجعٍ طبيةٍ جامعيةٍ باللغة العربية، لتغطي كافة مقررات المنهاج

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

ورد البحث إلى مجلة المجمع بتاريخ ٢٩/٦/٢٠١٨م.

الدراسي. وبطبيعة الحال، لم يكن تأليف هذه الكتب والمراجع تأليفاً بالمعنى الدقيق للكلمة بقدر ما كان نقلاً وترجمة لكتب ومراجع أجنبية تخصصية. ومن اللافت أن حركة التأليف العلمي واكبتها عناية فائقة بسلامة اللغة وجمال الأسلوب. فأتت اللغة فيها عربيةً جزلة، والأسلوب سلساً، والشرح دقيقاً، والمقاصد واضحة. ومن مؤلفات الطب في الثلاثينات ما سطره جهابذة من أمثال مرشد خاطر وحسني سبوح اللذين كانت كتابتهما الطيبة أقرب إلى الأدب الرفيع بجمال أسلوبها وعذوبة لغتها. ثم جاء جيل إبراهيم حقي ومحمد هيثم الخياط ومروان المحاسني الرئيس الحالي لمجمع اللغة العربية بدمشق. وكان الإنجاز الأعظم آنذاك في مجال تعريب العلوم والتعليم العالي هو «المعجم الطبي الموحد» الذي قام على وضعه أساتذة كبار من أمثال حسني سبوح ومحمد هيثم الخياط ومروان المحاسني، إضافة إلى ثلثة من العلماء المجمعين من مصر والعراق من أمثال محمد الجليلي ومحمد أحمد سليمان. وقد أتى هذا المعجم الذي طبع ونشر للمرة الأولى عام ١٩٧٣ ثم تلتها طبعات ثلاث على التوالي (١٩٧٨ و ١٩٨٣ و ١٩٩٦)، أتى ثمرة جهود حثيثة وعمل دؤوب، تعبيراً عن إيمان راسخ بأن العربية لغة حية، قادرة على مواكبة كل العصور وكل الغايات، وأن توحيد المصطلحات الطبية سبيل أكيد لتوطين العلم وترسيخ المفاهيم.. ولا يزال المعجم الطبي الموحد المرجع الأول الذي يُرَكَن إليه ويُلتزم بما جاء فيه في علوم الطب والبيولوجيا.

كذلك نجد مؤلفات علمية في الكيمياء ترجع إلى تلك الفترة، كتبها بلغة عربية رفيعة أساتذة أجلاء من أمثال الدكتور جمال الفرّا. ونجد أيضاً في الهندسة كتباً ومراجع جامعية بمستوى علمي ولغوي رفيع كمؤلفات الدكتور عبد الرزاق قدورة، وسواه ممن كانت لهم مساهمات عظيمة في تعريب المصطلحات العلمية والتشبيث بتعريب التعليم العالي. وما مؤلفاتهم

إلا دليل قاطع على أن اللغة العربية لغة علم بقدر ما هي لغة أدب وخطابة وبلاغة، وأنا قادرين على مواكبة التطور السريع للحركة العلمية العالمية إذا اجتهدنا كما اجتهد سلفنا الصالح.

وسرعان ما توسعت جامعة دمشق في عملية التعريب ليصبح تدريس القانون باللغة العربية، وبالتالي كان لا بد من تأليف كتب في القانون بمختلف فروعها، وهي أكثر من أن تحصى في هذه العجالة. فهناك كتب ألّفت بالقانون الإداري الذي ولد بمفهومه المعاصر في فرنسا بعد قيام الثورة الفرنسية، وفي قوانين التجارة البحرية المستلهم جُلّها من القوانين الفرنسية، وفي القانون التجاري، ومن أهم الكتب المؤلفة فيه في جامعة دمشق: الوسيط في الحقوق التجارية لرزق الله أنطاكي ونهاد السباعي عام ١٩٦٣، و«أصول المحاكمات في المواد المدنية والتجارية» من منشورات جامعة دمشق عام ١٩٨٩. وكذلك القانون الدستوري، وفيه ألّف الدكتور كمال غالي كتاب «القانون الدستوري والنظم السياسية» من مطبوعات جامعة دمشق عام ١٩٨٩. وهناك عددٌ من المؤلفات المرجعية القيمة لأساتذة جامعة دمشق في القانون الدولي العام والقانون الدولي الخاص، ومن أهم مصادرها الرسمية الاتفاقيات الدولية أو المعاهدات، ومن أهم مصادرها غير الرسمية أحكام المحاكم بصدد قضايا ذات صلةً بالقانون الدولي الخاص، ومن أهم منشورات جامعة دمشق في هذا الميدان كتاب الدكتور فؤاد ديب «القانون الدولي الخاص الجنسية»، وكتاب الدكتور محمد عزيز شكري، الذي كان عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق، «مدخل إلى القانون الدولي العام». كذلك كانت المؤلفات العربية التي نشرتها جامعة دمشق كثيرة في موضوعات القانون المدني ككتاب هاشم القاسم «محاضرات في القانون المدني» و«المدخل إلى علم القانون». وهناك كتب في قانون العقوبات والعلوم الجزائية المستمدة من القوانين الفرنسية ككتاب

«المفصل في شرح قانون العقوبات» للدكتور عبد الوهاب حومد الذي أصبح فيما بعد عضواً في مجمع اللغة العربية، وكتاب عضو المجمع الدكتور عبود السراج «قانون العقوبات» من منشورات جامعة دمشق أيضاً. ولدينا في التشريعات الاجتماعية مؤلفات جامعية هامة منها كتاب «التشريعات الاجتماعية، قانون العمل» لمؤلفه الدكتور فاروق الباشا، وقد صدر عن جامعة دمشق عام ١٩٨٠.

ومع توسع الجامعة وازدياد فروعها العلمية، نشطت حركة التأليف في مختلف فروع العلوم وحقول المعرفة؛ فاغتنت المكتبة العربية بمؤلفات في الطب والهندسة بشتى فروعها الزراعية والمدنية والمعمارية والميكانيكية والكهربائية. أُلِّفت كتب في العلوم الأساسية الرياضية والفيزيائية، وكتب في الكيمياء والاقتصاد. واليوم ما زالت حركة الكتابة العلمية نشطة فهناك عشرات المؤلفات سنوياً تصدرها جامعة دمشق في الطب والهندسة والعلوم البيئية والإدارة والتنمية المستدامة وغيرها...

ومما ساعد الجامعة على المضي قدماً في مسألة تعريب العلوم وتعليمها وجود البيئة التشريعية الداعمة، فقد أتت النصوص القانونية لتنظم عملية تأليف الكتب والمراجع الجامعية وتعريب العلوم كلها بلا استثناء. فقانون المطبوعات الصادر عام ٢٠٠١ نظم آلية طباعة الكتب الجامعية وإصدارها وإخراجها، كما نظم الشروط المقيدة لها وحدد الحوافز المترتبة على التأليف. وأتى قانون تنظيم الجامعات لينص صراحة في عام ٢٠٠٦ على أن اللغة العربية هي لغة التعليم، وليقدم للأستاذ الجامعي الإطار العلمي والحافز الأكاديمي على التأليف، وكان بالتالي خطوة متقدمة على طريق تعريب العلوم. إذ إن تأليف الكتب والمراجع الجامعية وما يترتب على ذلك من نقل العلوم وتعريب المصطلحات وترجمة كتب ذات قيمة

علمية رفيعة يمكن أن تعد مرجعاً علمياً قيماً في الاختصاص الدقيق، غدت شرطاً لازماً من شروط الترقية الأكاديمية، إضافة إلى نشر عدد من البحوث العلمية الأصيلة في مجالات علمية محكمة. هذا وقد شجع القانون على التأليف العلمي، إذ رصد للمؤلف مكافأة «مجزية» بحسب المعايير المحلية، وسمح بتغيير الكتاب الجامعي أو تعديله مرة كل أربعة أعوام.

وبحسب إحصاءات مديرية الكتب والمطبوعات في جامعة دمشق، بعد صدور قانون المطبوعات، أي اعتباراً من عام ٢٠٠١ حتى عام ٢٠١٠، قامت جامعة دمشق بطباعة ونشر نحو مئتين وثمانية وثلاثين كتاباً تخصصياً في العلوم الطبية والهندسية وحدها، منها ستة وسبعون كتاباً جامعياً في العلوم الطبية، ومئة وستة وستون كتاباً في شتى فروع العلوم الهندسية. كلها ألّفت باللغة العربية بالاستعانة بكتب ومراجع أجنبية، تطبيقاً لسياسة تعريب التعليم العالي. من هذه الكتب ما يدرّس في كلية الطب، وهي كتب في الطفيليات الطبية، وأمراض جهاز الهضم والأوعية الدموية وجراحاتها وأمراض الغدد الصم والاستقلاب، وعلم الوراثة، والتشخيص الشعاعي والتصوير الطبقي، والمعالجة الشعاعية للأورام، وعلم الأدوية السريري، وعلم المناعة والمناعة المرضية، وعلم الجنين الطبي، وعلم الخلية، وعلم النسج الخاص والعام، وعلم الوراثة، والتشريح المرضي العام، وتشريح الرأس والعنق والجهاز العصبي المركزي وأعضاء الحواس، والجراحة بأنواعها، والطب الوقائي، والأمراض الخمجية.... وقد اعتُمدت فيها المصطلحات الطبية كما وردت في المعجم الطبي الموحد.

ومنها ما يدرّس في كلية طب الأسنان ككتاب فن رسم الأسنان ونحتها، والتعويضات المتحركة الجزئية، وعلم الأحياء الدقيقة، وفيزيولوجيا الفم والأسنان، ومداواة الأسنان الترميمية، والتعويضات المتحركة الكاملة

والتعويضات المتحركة الفكيّة، والتعويضات الوجهية الفكية، وعلم الخلية والتكاثر، والمرشد العملي في علم النسيج العام....

وفي كلية الصيدلة، ألفت كتب من مثل علم تأثير الأدوية، وعلم الخلية، وعلم النبات، والكيمياء التحليلية، والبيولوجيا النباتية، وعلم العقاقير التطبيقية وكيمياء العقاقير، والمراقبة الدوائية والكيمياء الدوائية...

أما كلية الهندسة المدنية، فقد ألفت فيها منذ عام ٢٠٠١ حتى عام ٢٠١٠ نحو سبعة وثلاثين كتاباً جامعياً منها كتاب ميكانيك الإنشاءات، وتحليل المنشآت غير المقررة، ونظريات التخطيط، ومقاومة المواد، والمرجع في أسس تحلية المياه المالحة، والحساب الإنشائي للمقاطع والعناصر الخرسانية المسلحة، وتقنيات الري، وتصميم عناصر المنشآت المعدنية، والجوائز الصفائية المعدنية والتحليل اللدن، ومعالجة النفايات الصلبة، والمرجع في الجدران الاستنادية وخزانات السوائل البيتونية، والتطبيقات الهندسية لعلم السكون ومبادئ علم التحريك، وميكانيك السوائل، والجريان ذو السطح الحر، وهندسة الأساسات والمنشآت المطمورة، والري والصرف.

وأما في كلية الهندسة الميكانيكية، فقد ألفت منذ عام ٢٠٠١ أربعون كتاباً جامعياً عرّبت فيها مفاهيم السلامة المهنية، وعلوم إلكترونيات القدرة الكهربائية، والاحتمال والإحصاء، والترموديناميك، والدلائل والمثبتات، والإلكترونيات الصناعية، وتصميم الآلات وخطوط الإنتاج، وعلم المواد وهندستها، والآلات الحرارية، ومحاكاة الدارات الإلكترونية...

وفي كلية الهندسة المعلوماتية، ألفت لمناهجها كتب عدة منها الاتصالات الرقمية، والإشارات والنظم، وخوارزميات البحث الذكية، والذكاء الصناعي...

وهنا لا بد من التنويه بالتعاون الوثيق القائم بين جامعة دمشق والجمعية

العلمية السورية للمعلوماتية التي ترأس لجنة الترجمة والتأليف والنشر فيها تباعاً كل من نائب رئيس جامعة دمشق للشؤون العلمية آنذاك الدكتور المجمعى موفق دعبول، ورئيس جامعة دمشق آنذاك الدكتور وائل معلا. وقد أخذت هذه اللجنة على عاتقها رفد المكتبة العربية المعلوماتية بالمراجع العلمية القيمة، ودعم العملية التعليمية في كليات الهندسة المعلوماتية في القطر، وهي كليات حديثة نسبياً. وعُنت بدعم العملية التعليمية في كليات الهندسة الكهربائية بتزويدها بالمراجع العلمية الحديثة. وقد عمدت لجنة الترجمة والتأليف والنشر في الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية إلى ترجمة أمهات الكتب العالمية الصادرة في هذا الحقل، خاصة تلك التي طُبعت عدة مرات والتي تدرّس في أرقى الجامعات في العالم. لقد وضعت اللجنة نصب عينها تحقيق هدف محدد ألا وهو توفير ترجمة مرجع علمي هام لكل مقرر تخصصي من مقررات الخطة الدراسية في كليات الهندسة المعلوماتية وأقسام هندسة الحواسيب. ولم يكن هذا بالأمر السهل، لسرعة تطور هذا الحقل العلمي. ولقد أصدرت لجنة الترجمة في الجمعية بين عامي ٢٠٠٥-٢٠١٠ ترجمات لستة كتب مرجعية عالمية هي:

مفاهيم نظام التشغيل، واتصالات المعطيات والحواسيب، والتعمية التطبيقية، والذكاء الصناعي - رؤية جديدة، وهندسة البرمجيات، وأسس لغات البرمجة. وقد أفاد المترجمون أيما فائدة من الجهد الكبير الذي بُذل في صناعة مُعجَم المصطلحات الهندسية المعلوماتية الصادر عن الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية.

وحرصاً على دقة الترجمة وسلامة اللغة، عُهد بشأن التدقيق العلمي لخبراء معلوماتيين يتقنون اللغتين المصدر والهدف إتقاناً تاماً، كما عهد بالتدقيق اللغوي لمختصين يَشْهَد لهم علمهم الغزير باللغة العربية وقواعدها

وأساليبها أمثال الدكتور مكّي الحسني والأستاذ مروان البواب وكلاهما عضو في مجمع اللغة العربية بدمشق.

ومن جهة أخرى، يضطلع مركز التأليف والترجمة والتعريب والنشر بدمشق الذي يتبع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدور كبير في عملية تعريب العلوم بالاستعانة بعدد كبير من أساتذة جامعة دمشق. ولقد أصدر المركز عدداً من الكتب المترجمة التي تعد مراجع علمية أساسية تدعم العملية التعليمية في الجامعات العربية، ككتاب بحوث العمليات، والاقتصاد الهندسي، وأسس تحلية المياه، وعلم الأدوية السريري، والكلمات المسافرة، وغيرها.

وقام مكتب تنسيق التعريب في الرباط بتكليف عدد من أساتذة جامعة دمشق بإعداد معجم مصطلحات الهندسة المدنية.

ومن الجدير ذكره أن الكتب العلمية التي تصدرها جامعة دمشق تحتوي قوائم مصطلحية كاملة مع مقابلاتها الأجنبية باللغة التي أخذت عنها، وهذا الأمر يعدّ إسهاماً جدياً في الجهود التي تبذل لتعريب المصطلح.

برغم وفرة الكتب العلمية المترجمة، يظلّ ما تحقق دون مستوى الحاجة والطموح؛ إذ مما يُعاب على بعض هذه الكتب الجامعية أحياناً سُقم لغتها وركاكة أسلوبها، وهذا مردّه إلى التسرع في الإنجاز، أو إلى ضعف في مقدرة المؤلّف أو المترجم اللغوية وهذا الأمر حداً بالجامعة إلى اشتراط الحصول على موافقة المدقق اللغوي، وهو من أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها، قبل الشروع بطباعة الكتاب.

ومن جهة أخرى، أولت جامعة دمشق مسألة إعداد المترجم والترجمان اهتماماً كبيراً، وهو ما حداً بها إلى إحداث قسم للترجمة في نظام التعليم

المفتوح، فضلاً عن دبلومي التأهيل والتخصص في الترجمة والتعريب في كل من قسمي اللغة الفرنسية والإنجليزية.

ولأن جامعة دمشق رائدة في ميادين التعريب، وإدراكاً منها لأهمية الترجمة في نقل المعارف والتواصل العلمي والتقني والتفاعل الحضاري بين الأمم، ونظراً للحاجة الماسة لترجمة أكفاء مؤهلين وفق المعايير الدولية، بما يتطلبه ذلك من دقة الأداء وأمانة النقل وسرعة الإنجاز، وحرصاً منها على تأهيل مترجمين قادرين على الحفاظ على مكانة اللغة العربية وحمايتها من التشويه، عمدت إلى إحداث المعهد العالي للترجمة والترجمة الفورية الذي بُدئ التدريس الفعلي فيه في مطلع العام الدراسي ٢٠٠٦-٢٠٠٧. وقد خرّج حتى اليوم دفعاتٍ متتالية من المترجمين الثنائيي اللغة من حملة شهادة الماجستير في الاختصاصات الثلاثة: الترجمة والترجمة الفورية والترجمة السمعية بصرية.

ومن أهداف المعهد - إضافة للنهوض بواقع الترجمة من وإلى اللغة العربية وتخريج أطرٍ مؤهلة وفقاً للمعايير الدولية اعتماد طرائق تعليمية حديثة - المساهمة في تأهيل الطلاب الأجانب الراغبين في تطوير معرفتهم باللغة العربية ببعديها الثقافي والحضاري، والارتقاء بالبحث العلمي في مجالات الترجمة والتعريب والمصطلح وطرائق تعليم الترجمة الفورية بفروعها كافة.

ويقبل المعهد خريجين من كافة الاختصاصات لأن الترجمة التخصصية تحتاج إلى معرفة عميقة بالعلم الذي يترجم فيه بما تمكّن المترجم من إدراك دلالات المصطلحات ومقاصد النص أو الخطاب. ويعتمد المعهد آليات قبول صارمة، فيشترط على المتقدمين بطلبات انتساب اجتياز امتحان تحريري في اللغة العربية واللغة الأجنبية الأولى، الإنجليزية أو الفرنسية. ويعتزم مستقبلاً، وهو ما نص عليه مشروع لائحته الداخلية الجديدة، اختبار المتقدمين أيضاً

باللغة الأجنبية الثانية. ومن يجتاز هذا الاختبار الأول يحق له التقدم إلى المقابلات الشفهية التي تجري أمام لجان من الأساتذة المختصين والمترجمين المشهود لهم بالكفاية. ومعايير الانتقاء تفرضها رؤيتنا للترجمة على أنها ليست مجرد مهنة تمارس مورداً للرزق ووسيلة للتكسب بقدر ما هي عامل إغناء لغوي وفكري، وإسهام حقيقي في نقل المعرفة، وأداة انفتاح وثاقف. وعليه فإن على المترجم أن يمارس دوراً بناءً على الصعيدين اللغوي والمعرفي، لا أن يكون معول هدم للغة وتشويش للفكر. وهذا تحديداً ما أملى على المعهد مناهجه وأساليبه، التي تهدف إلى تطوير كفاءات المترجم في لغتي المصدر والهدف على حدٍ سواء، والحرص على تأهيل مترجمين غيورين على لغتهم العربية، أميين عليها، قادرين عند الحاجة على إغنائها بمصطلحات تؤدي المعنى الدقيق، لا تخرج عن القياس ولا يَمَجُّها الذوق السليم.

وأخيراً وليس آخراً، تسهم جامعة دمشق بخبرة أسانذتها في عملية تأهيل المترجم العربي في العديد من الجامعات والمعاهد العربية كجامعة الإسكندرية والمعهد العربي للترجمة في الجزائر، وهي مكان لالتقاء الباحثين في علم الترجمة يتبادلون في رحابها الخبرة والمشورة ويتداولون في منهجيات الترجمة وأدواتها ومشكلاتها، وفي إشكاليات تعريب المصطلح العلمي وتوحيده، ودور الترجمة في نقل المعرفة وتعليم اللغات وسواها من الموضوعات الهامة.

وبعد، هذه لمحة موجزة عن مكانة الترجمة والتعريب في جامعة دمشق، وما هي إلا نموذج من منظومة متكاملة للتعليم العالي في سورية، آمنت بأهمية اللغة الأم في توطين المعرفة، وقدرة لغتنا العربية بقوالبها وأوزانها وخصائصها الاشتقاقية والتوليدية على مواكبة العلوم، واحتواء مستجداته، والنهوض بأعبائه.

المحاضرات والمدارسات (*)

(*) المدارس: هي المقابل العربي لكلمة (seminar) الأجنبية، وتعني بحثاً يقدمه أحد أعضاء المجمع، للتذاكر به ومناقشته في مجلس المجمع.

المدرسة الشعرية الشامية في عصر سيف الدولة الحمداني

الأستاذ الدكتور عيسى علي العاكوب (*)

- في آفاق المسألة.
- الحياة الأدبية في بلاط سيف الدولة.
- المدرسة الشعرية الشامية: القصد العام والخصائص.
- أعلام المدرسة الشعرية الشامية في ذلك العصر.
- المحصل المهم الأخير.

في آفاق المسألة:

تَظَلُّ الفَعَالِيَّةُ الفَنِّيَّةُ نَشَاطًا انْفِعَالِيًّا إِيْجَابِيًّا، تُؤَسِّسُ لَه جُمْلَةٌ عَوَامِلَ تَتَوَزَّعُ بَيْنَ الذَّاتِ وَالْمَوْضُوعِ وَالْحَيَاةِ الْعَامَّةِ، الَّتِي هِيَ نَفْسُهَا مُتَّبِعُ عَوَامِلَ كَثِيرَةٍ. وَيَرَى النَّاقدُ وَالْمُنظِّرُ الفَرَنْسِيُّ (هِيُولِيْتِ تِينْ) (١٨٢٨-١٨٦٣م) أَنَّ ثَمَّةَ عَوَامِلَ أَسَاسِيَّةً تَفْعَلُ فِعْلَهَا فِي الفَعَالِيَّةِ الفَنِّيَّةِ الأَدْبِيَّةِ خَاصَّةً، هِيَ: البِيئَةُ وَالجِنْسُ وَاللَّحْظَةُ، أَوْ القُوَّةُ الثَّقَافِيَّةُ الدَّافِعَةُ الَّتِي أُسَمَّاها فِي الإنكليزية Moment^(١).

(*) ألقى عضو مجمع اللغة العربية بدمشق الدكتور عيسى العاكوب هذه المحاضرة بتاريخ ٢٠١٨/١/٣١ في قاعة محاضرات المجمع.

(١) يُنظَرُ ذَلِكَ مُفَصَّلًا فِي: مُحَمَّدٌ غَنِيْمِي هَالَال، الأَدبُ المِقَارَن، ط٥، دار العودة ودار الثقافة، بيروت ١٩٦٢م.

وفيما أتى به (تين) غير قليل من الحقيقة. ويستفيد منه المؤرخ الأدبي والناقد في فحص المنتجات الأدبية لشعب من الشعوب، في عصر من العصور. والملاحظ تماماً أن العرب، مثل كثير من الأمم، أنتجوا أدباً له مكانه بين آداب الأمم، في أعصر حياتهم المتعاقبة. ولأنهم عنصرو بشرى متحرك في الجغرافية، ومتوافر له بيئات مختلفة، ومجاورة بلاده لأعراق بشرية في غاية التباين، ولعوامل أحر خاصة بهم، كان لأدبهم أن يتميز بخصائص تضاعف انتماءه إلى الصورة المثلى، أو المثال الأفلاطوني، للأدب جملةً. ولا ينصرف اهتمامنا في هذه المحاضرة إلى الحديث عن الأدب العربي في أنواعه المختلفة وأقاليمه الموزعة، بل سنركز الكلام على الشعر العربي في إقليم عربي واحد هو الشام، في امتداده المتعالم في العهود العربية والإسلامية الأولى، وفي عصر واحد هو عصر سيف الدولة الحمداني في حلب (٣٣٣-٣٥٦هـ).

ويقول ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) في شأن التحديد المكاني للشام: «وأما حدّها فمن الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية. وأما عرضها فمن جبلي طبي من نحو القبلة، إلى بحر الروم وما بشامة ذلك من البلاد. وبها من أمهات المدن: منبج وحلب وحمّة وحمص ودمشق والبيت المقدس والمعرة. وفي الساحل: أنطاكية وطرابلس وعكا وصور وعسقلان، وغير ذلك... ويعد في الشام أيضاً الثغور، وهي: المصيصة وطرسوس وأذنة وأنطاكية، وجميع العواصم من مرعش والحديث وبغراس والبلقاء، وغير ذلك»^(٢).

ومنذ جاهلية العرب كانت الشام مأمماً لشعراء كبار، كالتابغة الديباني وحسان بن ثابت، اللذين كانا يفدان عليها من الحجاز. ولا بد من أن يشير ذلك

(٢) معجم البلدان، مادة «شام».

إلى بيئة عربية تحتضن الشعر، وتقيم لأعلامه وزناً كبيراً، وتنتج هي الشعر؛ ذلك لأنه قد «أقامت في الشام قبل الإسلام قبائل عربية عدّة من عدنان وقحطان تعرف أنسابهم، كالضجاعة السليجيين وتنوخ وبهراء وكلب بن وبرة وعاملة وبليّ وخولان والقين بن جسر. وهم غير أولئك العرب السابقين ممن استقروا قبلهم في الحواضر، فنسبت أنسابهم لتقدم إقامتهم في الحواضر. وفي المصادر المختلفة عددٌ من الأخبار والأشعار المتعلقة بأبناء القبائل المتأخرة الإقامة في الشام، ممن كانوا مع السليجيين والغسانيين»^(٣).

وحين استظلت الشام بظل شجرة الإسلام، كان لها تقديرٌ خاصٌّ، جاء نصّاً في الحديث الشريف، وآثار الأصحاب الكرام.

وفي الحديث الشريف أن النبي مُحمّداً، عليه الصلاة والسلام، قال: «الشام صفة الله من بلاده، وإليه يجتبي صفوته من عباده. يا أهل اليمن، عليكم بالشام فإن صفة الله من الأرض الشام. ألا من أبي فإن الله تعالى قد تكفل لي بالشام»^(٤).

ويبدو أنه نشأ منذ وقت مبكر في تاريخ الثقافة العربية رأي عام يذهب إلى استحسان الشام، وتفضيلها على كثير من الأصقاع. فقد روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: «قسم الخيرة عشرة أعشار، فجعل تسعة أعشار في الشام، وعشر في سائر الأرض. وقسم الشر عشرة أعشار، فجعل عشر بالشام، وتسعة أعشار في سائر الأرض»^(٥).

والروايات في تقدير إسلامي العهد الأول الشام أرضاً وسكناً

(٣) يُنظر في هذا: الحركة الأدبية في بلاد الشام، مجموعة مُحَرَّرين، الجزء الأول، دمشق

٢٠٠٨م، ضمن فعاليات «دمشق عاصمة الثقافة العربية»، ص ٧٢-٧٣.

(٤) استشهد به ياقوت الحموي في معجم البلدان، مادة «شام».

(٥) المصدر السابق.

مُستفيضة، ويمكنُ التَّعْوِيلُ عَلَيْهَا فِي الظَّفَرِ بِتَصَوُّرٍ عَامٍّ فِي شَأْنِ هَذِهِ الْبِلَادِ الْمُبَارَكَةِ، يُعْلِي مِنْ شَأْنِهَا، وَيُصَوِّرُ نَسْبِيًّا مَكَانَتَهَا فِي الْقُلُوبِ.

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُغْفَلَ أَمْرُ أَنَّ الشَّامَ كَانَتْ فِي الْإِسْلَامِ مُهَاجِرَ عَرَبِ الْجَزِيرَةِ الْأَوَّلِ وَالْأَكْبَرِ وَالْأَقْرَبِ، وَأَنَّهَا غَدَتْ عَاصِمَةَ الْإِسْلَامِ بَعْدَ سَنَةِ أَرْبَعِينَ هِجْرِيَّةً. وَإِذَا كَانَتْ الْإِمَارَاتُ وَالذُّوُلُ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ بِيِّنَاتٍ رَاعِيَةً لِلْأَدَبِ شِعْرًا وَنَثْرًا، كَانَ صَحِيحًا تَمَامًا أَنَّ الشَّامَ كَانَتْ مَغْرَسَ الْفَحْوَلَةِ الشَّعْرِيَّةِ عِنْدَ الْعَرَبِ. وَدَلِيلُ ذَلِكَ، الَّذِي لَا يُدْحَضُ، أَنَّ ابْنَ سَلَامِ الْجُمَحِيِّ (ت ٢٣١هـ)، الَّذِي صَنَّفَ أَوَّلَ كِتَابٍ جَامِعٍ فِي التَّقْوِيمِ الْجَمَالِيِّ الْفَنِيِّ لِلشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ، وَجَعَلَ شُعْرَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ عَشْرَ طَبَقَاتٍ، وَشُعْرَاءَ الْإِسْلَامِ عَشْرَ طَبَقَاتٍ، جَعَلَ شُعْرَاءَ الطَّبَقَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأُولَى أَرْبَعَةَ شُعْرَاءَ كِبَارٍ، هُمْ جَمِيعًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ اسْتِطْنَانًا*): الْأَخْطَلُ غِيَاثُ بَنِ غُوْثٍ (ت ٩٠هـ)، وَجَرِيرُ بَنِ عَطِيَّةٍ (ت ١١٠هـ)، وَالْفَرَزْدَقُ هَمَامُ بَنِ غَالِبٍ (ت ١١٠هـ)، وَالرَّاعِي النُّمَيْرِيُّ (ت ٩٠هـ).

وَتَمَّةٌ مَا هُوَ لَافَتْ لِلنَّظَرِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ شُعْرَاءِ الشَّامِ فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى لِلْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ ظَلُّوا يُنْسَبُونَ إِلَى قَبَائِلِهِمْ؛ فَالْأَخْطَلُ تَغْلَبِيُّ، وَجَرِيرُ وَالْفَرَزْدَقُ تَمِيمِيَّانِ، وَالرَّاعِي نُمَيْرِيٌّ. وَحَتَّى فِي الْقَرْنِ الثَّلَاثِ اسْتَمَرَّ هَذَا التَّقْلِيدُ، فَابُو تَمَامٍ وَالبُحْتَرِيُّ طَائِيَّانِ. وَمَا هَذَا بِغَرِيبٍ؛ فَإِنَّ الطَّبَاعَ الْعَامَّ لِلدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ (٤٠-١٣٢هـ) أَنَّهَا دَوْلَةٌ عَرَبِيَّةٌ الْيَدِ وَالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، حَتَّى إِنَّ الْجَاخِظَ يَقُولُ: «دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ أَعْجَمِيَّةٌ خُرَاسَانِيَّةٌ، وَدَوْلَةُ بَنِي مَرْوَانَ عَرَبِيَّةٌ أَعْرَابِيَّةٌ»^(٦).

(*) لعلَّ في وصف تردّد جرير والفرزدق على عاصمة الأمويين دمشق، على كثرته، بالاستيطان - نظرًا؛ لأن ذلك يقتضي من الاستقرار والإقامة الدائمة ما لم يكن متحققًا على التحقيق. [المجلة].

(٦) اقتبسهُ عيسى العاكوب، في: «تأثيرُ الحِكمِ الفارسيَّةِ في الأدبِ العربيِّ في العُصرِ العَبَّاسِيِّ الْأَوَّلِ»، دار طلاس في دمشق، ص ٢٣.

ونحنُ نشيرُ إلى هذا ابتغاءَ التأسيسِ لفكرةِ المتانةِ اللغويةِ والقوةِ الإبداعيةِ عند شعراءِ الشامِ في الأعصرِ اللاحقة. ولعلّه يكونُ ممكناً القولُ: إنَّ البيئةَ الشاميةَ تمتلكُ فيما يتّصلُ بالإنتاجِ الفنيِّ على الجملةِ عنصريْنِ مهمَّينِ: الحضارةَ والبداءةَ. وكلا العنصرينِ يفعلُ فعله في الإنتاجِ الفنيِّ، بل يعملُ تواءمُ الضدَّينِ على ميلادِ إنتاجٍ فنيٍّ وأدبيٍّ متميِّز. ونحسبُ أنَّ وعيَ هذا الأمرِ حدَثَ مُبكراً في كلِّ مدينةٍ أحاطتْ بها الباديةُ. ولعلَّ من ذلك مثلاً ما حدَثَ به ابنُ هشامٍ في سيرته حيثُ يذكرُ «أنَّ الطُّفيلَ الدُّوسيَّ قدِمَ مَكَّةَ ورسولُ الله بها، فحدَرَه رجالٌ من فُريشٍ من سَماعِ النَّبيِّ حتَّى لا يتأثَّرَ بقوله. قال الطُّفيلُ: فما زالوا بي حتَّى أجمَعْتُ ألا أسمعَ منه شيئاً. ثمَّ قلتُ في نفسي: وا تكُلَّ أمِّي! والله إنِّي رَجُلٌ لبيِّتِ شاعِرٍ، ما يخفى عليَّ الحَسَنُ من القبيحِ، فما يَمْنَعُني من أن أسمعَ من هذا الرَّجُلِ ما يقولُ؟- فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته»^(٧).

وفي مرويَّاتٍ كهذه ما يدلُّ على إمكانيَّةِ تفاعلِ حَضريِّ بدويٍّ في مجالِ الفكرِ والفنِّ، ومُسابقةِ إلى الإتقانِ اللغويِّ، والتَّجديدِ الفكريِّ والفنيِّ. وقد يُحدِثُ التَّواءمُ الحَضريِّ البدويُّ ضرباً من التَّشاطرِ باتِّجاهِ تعزيزِ السَّماتِ الخاصَّةِ للحضارةِ والبداءةِ معاً، ولعلنا نظفُّرُ بما ينصُرُ هذا في مثلِ قولِ القطاميِّ عُميرِ بنِ شَيْم (ت ١٣٠هـ):

فَمَنْ تَكُنِ الحَضارَةُ أَعْجَبَتْهُ فَأَيُّ رِجالِ باديَةٍ تَرانا
وَمَنْ رَبَطَ الجِحاِشَ فَإِنَّ فينا قَناً سُلْباً وأَفراساً حِساناً^(٨)

وفي مُتناوَلِ المتأمِّلِ أن يقولَ بشيءٍ من الجُزأةِ التأمليَّةِ: إنَّ الشَّامَ بَعَدَ الإسلامَ خاصَّةً عَدَّتْ «حِجازَ العَرَبِ»؛ فالأُمويُّونَ - حُكَّامُ الدَّولةِ العربيَّةِ

(٧) اقتبسهُ أحمد أمين، في: «فجر الإسلام»، ص ٥٦.

(٨) يُنظَرُ: السابق، ص ٩.

الجديدة - حجازيون قرشيون، وهؤلاء لم يأتوا وحدهم إلى الشام بل سبقهم وصحبهم حجازيون قرشيون وغير قرشيين وعرب يمانيون وعدنانيون كثيرون، ولا يمكن هذا إلا أن يُفيد اللغة العربية وفصاحتها وإبداعها الأدبي شعراً ونثراً. هذا إضافة إلى أمر آخر مهم هو أن المَدَن الشاميّة لا تجد مثلها في إقليم عربيّ آخر، عدداً وامتداداً حضارياً وتنوعاً بشرياً. ثم إن الخصب في بلاد الشام وكثرة الأنهار ومجاورة البحر، عوامل من شأنها مع ما أُشير إليه قبل من عوامل أن تجعل الشام في قرون الإسلام الأولى دياراً يؤمها وينزل فيها أهل الفصاحة والفحولة الشعريّة. هي الشام إذن أرض «التنع»، كما سماها هرقل حين هزم الروم، وجاءه الخبر، وبلغه أن المسلمين قد بلغوا قسرين، فخرج منهزماً يريد القسطنطينيّة، فقال - وقد صعد على نَشْرٍ وأشرف على أرض سورية: «سلام عليك يا سورية سلام مُودّع لا يرجو أن يرجع إليك أبداً!». ثم قال: ويحك أرضاً، ما أنفعك أرضاً، ما أنفعك لعدوك، لكثرة ما فيك من العشب والخصب!»^(٩).

وعلى هذا النحو، يمكن القول: إن طوفان العرب في فجر الإسلام وما بعد انداح في الشام إلى حواضر كثيرة عريقة، وأرياف خصيبة تدفع شظف العيش وتيسر الإقامة والاستقرار، حتى قال حسان بن ثابت القادم من المدينة إلى الشام يَصوِّرُ بلاداً قريبة من دمشق:

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجِوَاءُ إِلَى عَذْرَاءٍ مَنزِلُهَا خَلَاءُ
وكانت لا يزال بها أنيسٌ خِلالَ مُرُوجِهَا نَعْمٌ وَشَاءُ

وحتى في القرنين الثاني والثالث الهجريين واصلت الشام الريادة في متانة اللغة وأسر النسيج الشعري، والإفادة من عناصر الارتقاء الفني في

(٩) معجم البلدان، مادة «سورية».

إنتاج شعرٍ مُثيرٍ للإعجاب، باعِثٍ على إثارة الحسِّ الجماليِّ. حتَّى إننا نجدُ شاعراً شامياً حليلاً كبيراً يُبدع شعراً بتقنياتٍ لافتةٍ للنظر، أفاد فيها من تقنياتٍ فنيَّةٍ ذاتِ مصدرٍ غيرِ عربيِّ. فالشاعرُ الشاميُّ من قنَّسرين، كلثومُ بنُ عمرو العتَّابيِّ (ت ٢٠٨هـ) كان «مُلمِّماً بالفارسيَّةِ إلى الدَّرَجَةِ التي تَسْمَحُ له بِمُراجَعَةِ النُّصوصِ والمصنِّفاتِ الفارسيَّةِ في لغتها الأصيليَّة. ويؤخِّذُ من رواية طيفور أن إعجاب العتَّابيِّ بمعاني الفُرسِ وتعلُّقه بها، جعله يشدُّ الرِّحالَ إلى مَرَوْ ثلاثَ مرَّاتٍ؛ ليُدوِّنَ كُتُبَ العَجَم. وحينَ سُئِلَ عن ذلك قال: «وهلِّ المعاني إلَّا في كُتُبِ العِجَم. والبلاغةُ: اللُّغةُ لنا، والمعاني لهم»^(١٠).

وفي القرنِ الثالثِ الهجريِّ، كان شاعرانِ شاميانِ كبيرانِ قد حملا لواءَ الفصاحةِ اللُّغويَّةِ والمتانةِ الشَّعريَّةِ، وأريدُ هنا أبا تمامِ الحَوْرانيِّ الشَّاميِّ، والبحرِّيَّ المنبجِّيَّ الحلبيِّ. ولَسْتُ أفهمُ المنزلةَ التي حظيَ بها هذانِ الشَّاعرانِ في بَعْدادِ العلومِ العربيَّةِ والشَّعْرِ العربيِّ والإمارةِ البياتيَّةِ إلَّا اعترافاً بِفَضْلِ الشَّامِ: فَصاحَةٌ ولَسْنَا وفُؤةٌ إبداعيةٌ. وكانا مُقدِّمينَ عندَ العَرَبِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ.

الحياة الأدبية في بلاط سيف الدولة:

ليسَ من شأننا في هذه المُحاضرة أن نُورِّخَ للحياةِ الأدبيَّةِ في الشَّامِ في عَصْرِ سيفِ الدَّولة، أبي الحَسَنِ عَلِيِّ بنِ عَبْدِاللهِ بنِ حَمْدَانَ التَّغْلبيِّ الرَّبَعيِّ، الذي مَلَكَ واسِطاً وما جاورها، ثمَّ اتَّجَهَ إلى الشَّامِ فامتلكها، وعاد إلى حَلَبِ فملكها وجعلها قاعدةً مُلكه سنة ٣٣٣هـ. بل نرْمي فقط إلى تقديمِ الإماعةِ سريعةً إلى البيئةِ التي هيَّأها سيفُ الدَّولةِ للشُّعْر والشُّعراء.

وإذا كانتِ الحياةُ الأدبيَّةُ في أيِّ عَصْرِ ومَصْرٍ تتأثَّرُ بقوَّةِ بحياةِ الأدباءِ الخاصَّةِ والعامَّةِ في هذا العَصْرِ والمَصْر، فإنَّ ممَّا يُوَضِّحُ شيئاً ممَّا نحنُ إزاءه

(١٠) تأثيرُ الحِكمِ الفارسيَّةِ، ص ٣٦٢.

أن أنقلَ وَصْفاً سَرِيعاً لِحالِ عاصِمةِ سيفِ الدّولةِ، حَلَبَ، وَحالِ الأُلُقِ والإشراقِ والرّعايةِ التي لَقِيها الفَنانُونَ والمُبدعونَ في ظلِّ هذا الحاكمِ العربيِّ، الذي حاز رِياسَتِي السَّيْفِ والقَلَمِ، وتبنّى فلسفةً عجيبةً تجمَعُ بينَ بناءِ الأوطانِ ورعايةِ الإنسانِ، وأنشأ جيشاً نَصَفُهُ مِن شُعراءِ البوادي، ونَصَفُهُ الآخَرُ مِن أُمراءِ الحواضرِ. وفي هذا المَعنى ينقلُ المرحومُ الأستاذُ سامي الكيّالي عن شخصٍ قد يكون ألمانياً، اسمُه (غوستاف شليمبرجر)، قوله في شأنِ الحياةِ الفَنِيّةِ والأدبيّةِ في حَلَبَ في بلاطِ سيفِ الدّولةِ:

«شَغَلَ سَيْفُ الدّولةِ أذهانَ المؤرّخينَ والكتّابِ والشُّعراءِ في القرنِ العاشِرِ [الميلاديّ]، فما إن تقرأ لِشاعِرٍ مِن شُعراءِ العربِ، أو اليونانِ، حتّى يستهويك الوَصفُ والحديثُ عن هذا العَدُوِّ الجَدّابِ، الذي حاربَ الإمبراطوريّةَ البيزنطيّةَ بِفُرسانٍ كان نَصَفُهُم مِن شُعراءِ البوادي، وكان نَصَفُهُم الآخَرُ مِن أُمراءِ الحواضرِ... وقد أقسمَ مؤرّخُ بيزنطيّ زار حَلَبَ في عَصْرِ سَيْفِ الدّولةِ أنّ قُصورَ الخُلفاءِ في بغداد، وقُصورَ مُلوكِ الرّومِ في القسطنطينيّةِ، كانت أقلَّ بهاءً مِن قُصورِ سَيْفِ الدّولةِ.. وإنّ الفنونَ على تباينِ أنواعِها كانت مُضطهدةً في عاصِمةِ المسيحيّةِ، ولكنها كانت تَنعَمُ بِتسامُحٍ كبيرٍ في عاصِمةِ الدّولةِ الحَمَدانيّةِ. وقد كان المُصوِّرونَ والمثالونَ مِنَ الرّومِ يَخْرجونَ مِن ديارِهِم على كُرهِهِم؛ لأنّ قيصرَ قد أرادَهُم على هذا التّشريدِ. فكانت حَلَبُ تستقبلُ جميعَ هؤلاءِ، وكان سَيْفُ الدّولةِ يُكرِمُهُم، ثمّ يستفيدُ منهم، ويمتحنُ عبقرِيّاتهم، ثمّ يستغلّها استغلالاً حَسَناً، ويُقبِسُ مِن تحاسينِها وتزاويقِها ما يزيدُ في تحاسينِ حَضارةِ بلاده»^(١١).

كان بلاطُ سيفِ الدّولةِ في حَلَبَ، ومدينَةُ حَلَبَ على الجُملةِ، موثلاً يَفِدُ

(١١) سامي الكيّالي: سيفُ الدّولةِ وعَصْرِ الحَمَدانيّينَ، دار المعارفِ في القاهرة، بغير تاريخ،

عليه أصحابُ الفنونِ المتفوقونَ من أصقاعِ عالمِ ذلكِ الزمانِ، ليجدوا ثمةَ الأمانِ والتشجيعِ والعيشَ الكريمَ. وفي ظلالِ كهذهِ تنفجرُ ينابيعُ الإبداعِ في الشعرِ والكتابةِ الفنيّةِ والخطابةِ وعلومِ اللّغةِ والفلسفةِ والموسيقا والرّسمِ والتّصويرِ. فقد كان كلُّ ما في عاصمةِ سيفِ الدّولةِ في عَصْرِهِ يُثِرُ الهَمَمَ، ويدفَعُ إلى التّخليقِ، ويحرِّكُ النفوسَ ويهزُّ الطّباعَ. ونخالُ أنّ الأستاذَ سامي الكيّالي لم يجانبِ الحقيقةَ حينَ قال:

«إنَّ سَيْفَ الدّولةِ يَخْتَلِفُ عن غيره من أمراءِ الإسلامِ، بل يمتازُ عنهم بمفاخرِ كثيرة: بِفُروسِيّتهِ، بتدوّقهِ الرّفيعِ للأدبِ، بروحِهِ الكبيرةِ التي كانت تَحْلُمُ بالسيطرةِ وتأسيسِ مملكةٍ عربيّةٍ متراميةِ الأطرافِ، بإيقادهِ نيرانِ الفتحِ في صُدورِ فتيانِ العَرَبِ، بغزواتِهِ وحُرُوبِهِ التي صدّتْ عاديّاتِ الرّومِ عن بلادِ الشّامِ وأطرافِ العِراقِ غيرَ مرّةٍ، وبمُغامراتِهِ وحُبِّهِ، وبكرَمِهِ وعطاياهِ التي كان ينفِخُ بها جيوبَ الشّعراءِ، فيَهزُّ قرائِحَهُمْ هزًّا مُثمراً، ثمَّ بهذهِ المجالِسِ الأدبيّةِ التي كان يرأسُها..»^(١٢).

ولا تزيّدُ إذا أنا قُلْتُ: إنّ أفذاذَ الرّجالِ يصنعونَ تواريخَ فدّةٍ. وقد هيأَ الخالقُ العظيمُ لسيفِ الدّولةِ أن يصنَعَ للعَرَبِ في عَصْرِهِ تاريخاً فذاً، وأن يُهيئَ لتاريخِ أدبيٍّ خاصٍّ لجملةِ القرنِ الرّابعِ الهجريِّ (العاشِرِ الميلاديِّ). ذلك أن في طليعةِ العوامِلِ التي دَفَعَتِ الثّعاليّ إلى إعدادِ رائعتِهِ «يتيمةِ الدّهرِ في محاسنِ أهلِ العَصْرِ» ما أدركَهُ من قيمةِ الإنتاجِ الأدبيِّ في بلاطِ سيفِ الدّولةِ، هذا الإنتاجِ الذي جعلَ الثّعاليّ مجالَ بحثِهِ والتّاريخِ له القِسْمَ الأوّلَ من كتابهِ، الذي خلَعَ عليه هذا العنوانُ: «القِسْمُ الأوّلُ في محاسنِ أشعارِ آلِ حَمْدانِ، وشُعرائِهِمْ، وغيرِهِمْ من أهلِ الشّامِ، وما يجاورُها من مِصرَ والموصلِ..»^(١٣).

(١٢) المصدر السابق، ص ٢٨.

(١٣) الثّعاليّ، يتيمةُ الدّهرِ في محاسنِ أهلِ العَصْرِ، بتحقيقِ المرحومِ محمّد مُحيي الدّين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، الطّبعة الثّانية ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م، ج١، ص ١١.

المدرسة الشعرية الشامية: القصد العام والخصيات:

* القصد العام:

في اللغة: المدرسة: اسمُ مكانِ الدَّرْسِ. وأَصْلُ اللَّفْظِ «مَدْرَس» على زِنَةِ «مَفْعَل»، مِنْ دَرَسَ، بِمَعْنَى: أَدَامَ الْقِرَاءَةَ. وَزِيدَتْ عَلَيْهِ التَّاءُ عِلَامَةً عَلَى الْأَسْمِيَّةِ، فَصَارَ: مَدْرَسَةٌ.

وفي الاصطلاح العام صارت الكلمة تعني أحياناً: المدرسة الفكرية، أو المذهب العقلي المسمى في الإنكليزية school. وهذه قد تكون فكرية أو فنية، أو أدبية. ويعني ذلك - على الجملة - مجموعة من المبدعين في فن من الفنون يتنظمهم قصد فكري واحد.

ونعني بـ «المدرسة الشعرية الشامية في عصر سيف الدولة» هنا: مجموعة الشعراء الذين عاشوا في بلاد الشام من أهل هذه البلاد، ومن الذين جاؤوا إليها من العراق وفارس وتأثروا بطريقة شعرائها في إبداع الشعر، وقدموا فيها شيئاً من أشعارهم، وراقهم السكّان والبلد والفن في ذلك العصر. وأطلقنا على هؤلاء «المدرسة الشعرية الشامية»؛ لإيماننا بوجود خصائص فكرية وفنية جامعة نسبياً بين هؤلاء.

ولأنّ أبا منصور عبدالمملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩هـ) عالمٌ محققٌ مدققٌ خبيرٌ بالعربية وعلومها وأدبها، اجتمعت كلمة كثيرين قديماً وحديثاً على تحقّقه بهذه الصفات، رأيتُ أن أعوّل على كتابه «يتيمة الدهر» في استنباط خصيات هذه المدرسة الشعرية.

* خصيات ظاهرة لهذه المدرسة:

قدّم الثعالبي مجموعة من الخصيات المميزة لأشعار شعراء المدرسة الشامية في الأعصر السابقة لعصره، وفي عصره هو. ونسّمى فيما يأتي أظهر هذه الخصيات:

أولاً- التفوق والسبق:

يَلْحَظُ الثَّعَالِبِيُّ النَّسَابُورِيُّ تَفَوُّقَ شِعْرِ الشَّامِيِّينَ عَلَى شِعْرِ عَرَبِ الْعِرَاقِ وَمَا يَجَاوِرُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ إِذْ يَقُولُ: «لَمْ يَزَلْ شُعْرَاءُ الشَّامِ وَمَا يِقَارِبُهَا أَشْعَرَ مِنْ شُعْرَاءِ عَرَبِ الْعِرَاقِ وَمَا يُجَاوِرُهَا، فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ»^(١٤).

وَالْقِرَاءَةُ الْمَتَانِيَةُ لِهَذِهِ الْمَقَالَةِ تَهْدِي إِلَى اسْتِنَاجَاتٍ مُهِمَّةٍ. مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الثَّعَالِبِيَّ، وَهُوَ الْعَرَبِيُّ الْمُقِيمُ فِي نَيْسَابُورَ، حَاضِرَةَ خُرَاسَانَ، يَرْبُطُ بَيْنَ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ وَعُرُوبَةِ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ. فَإِنَّهُ فِي شَأْنِ الشَّامِ قَالَ: «شُعْرَاءُ الشَّامِ»، وَلَمْ يَقُلْ: شُعْرَاءُ عَرَبِ الشَّامِ؛ فَكَأَنَّ شُعْرَاءَ الشَّامِ عَرَبٌ خُلِصٌ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ مَنْ هُوَ غَيْرُ عَرَبِيٍّ. أَمَّا فِي شَأْنِ الْعِرَاقِ فَقَالَ: «شُعْرَاءُ عَرَبِ الْعِرَاقِ..»، وَكَأَنَّهُ يُلْمِحُ إِلَى عُرُوبَةِ الْأَشْخَاصِ، وَعُرُوبَةِ الشُّعْرِ، وَيَجْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِعْيَارَ قِيَمَةٍ. وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّهُ يَعْتَمِدُ عِيَارَ الْعِرَاقِ وَالْإِمْتِدَادِ التَّارِيخِيِّ. فَثَمَّةٌ فِي الشَّامِ تَقْلِيدُ شِعْرِيٍّ قَدِيمِ الْعَهْدِ وَمَتَّصِلٌ، فَضَاوُهُ الزَّمَانِيُّ الْجَاهِلِيَّةُ وَالْإِسْلَامُ. وَلَعَلَّ مِثْلَ هَذَا الْفَضَاءِ غَيْرُ مَتَوَفَّرٍ فِي الْعِرَاقِ، بِمَعْنَى مِنَ الْمَعْنَى. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْعِرَاقَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ هَيِّنُ الْأَمْرِ فِي مَجَالِ الشُّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ، بَلْ لَعَلَّهُ يُرِيدُ خِصَائِصَ فَنِيَّةٍ فِي الشُّعْرِ الشَّامِيِّ لَيْسَتْ مَتَوَفَّرَةً بِالْقَدْرِ نَفْسِهِ فِي أَشْعَارِ الْبِيئَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُخْرَى، وَمِنْهَا الْعِرَاقُ.

وَيُبَيِّنُ الثَّعَالِبِيُّ أَسْبَابَ تَبْرِيْزِ الْقَوْمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ فِي الشُّعْرِ، جَاعِلًا إِيَّاهَا ثَلَاثَةً:

١- قُرْبُهُمْ مِنْ خَطِّ الْعَرَبِ وَلَا سِيَّمًا أَهْلَ الْحِجَازِ، وَبُعْدُهُمْ عَنِ بِلَادِ الْعَجَمِ، وَسَلَامَةُ أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْفَسَادِ الْعَارِضِ لِأَلْسِنَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ لِمُجَاوِرَةِ الْفُرْسِ وَالنَّبَطِ وَمُدَاخِلَتِهِمْ إِيَّاهُمْ. وَيَصِحُّ هَذَا عَلَى شُعْرَاءِ الشَّامِ قَدِيمًا وَفِي عَصْرِ الثَّعَالِبِيِّ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ وَأَوَائِلِ الْخَامِسِ.

ولا يجد المتأمل صعوبة في استنتاج أن الثعالب في تقويمه الشعر العربي يعول في المقام الأول على فصاحة اللغة ونقائها، وعلى الملكة اللسانية المتأصلة لدى شعراء المدرسة الشامية. ولعل الحساسية اللغوية القوية عند هذا الناقد ترجع إلى نشأته في بلاد العجم واستيطانه إياها، ومعاصرته هناك متشاعرين كثيرين ينطبق عليهم مؤدى الحديث الشريف: «المؤمنون إخوة تكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». ولا ضير في أن نقول هنا: إنه أدري من غيره بتأثير الصفاء اللغوي في قوة المنجز الشعري. ولعله ينتصر هنا بقوة للخصائص العربية الأصلية في الشعر. وربما يكون العامل الذي دعه إلى تقديم شعراء الشام في عصره على غيرهم لحظه قدرًا صالحاً من هذه الخصائص في شعرهم.

٢- جمعهم بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة:

لا ضير، فيما أحسب، في أن يُشار إلى أن المتنجح الشعري بضاعة تُساق يقيناً إلى السوق التي تروج فيها، وتتأثر خصائصها بالصفات المنشودة لهذه البضاعة في هذه السوق. وأنت لا تعدم آثار ذلك في أشعار بعض الوافدين على الشام من شعراء الحجاز مثلاً. ولنا في مدح النابغة وحسان بن ثابت للغساسنة الشاميين قبل الإسلام ما يظهر أن الشاعرين كانا في تلك المدح يتهيآن لتقديم مديح مؤثر يقبله الذوق الشامي المستجيب بقوة للأشعار الجامعة بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة. تجد ذلك مثلاً في تضاعيف مدح النابغة الذبياني الحجازي في الغساسنة، في مثل قوله:

رِفاق النعال، طيب حُجراتهم يُحيون بالريحان يوم السباب

وفي مثل قول حسان الحجازي أيضاً يمدحهم:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

يُغَشُونَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبَلِ
يَسْتَقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ بَرْدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
وفي تناولنا، إزاء ما نحن فيه، أن نقول: إنَّ أشعارَ الشَّامِيِّينَ منذ وقتِ مُبَكَّرٍ
وُثْبَةٌ تَطَوَّرَ جَامِعٌ بَيْنَ خِصَائِصٍ أَصِيلَةٍ أَثِيلَةٍ، وَنَمَاءٍ أُنِيقٍ جَدَّابٍ لِهَذِهِ الْخِصَائِصِ.
٣- إفادتهم من رُعاةِ عَرَبٍ، مَشْغُوفِينَ بِالْأَدَبِ، ذَوِي مَجْدٍ وَكَرَمٍ وَجَمْعٍ
بَيْنَ رِيَّاسَتِي السَّيْفِ وَالْقَلَمِ، مُحِبِّينَ لِلشَّعْرِ، مُحْسِنِينَ لِتَمْيِيزِ جَيْدِهِ مِنْ رَدِيئِهِ،
مُثَبِّينَ عَلَى الْجَيْدِ مِنْهُ.

وفي القراءة العميقة لما قصد إليه الثعالبي هنا، في مقدور المتأمل أن
يستنبط أنَّ الرَّجُلَ يَتَحَدَّثُ عَنْ بِيئَةٍ أَدَبِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ، غَيْرِ مَوْجُودَةٍ فِي عَصْرِهَا فِي
مَكَانٍ آخَرَ. وَيُسَمِّي الثَّعَالِبِيُّ هَذِهِ الْبِيئَةَ: الْحَاضَةَ عَلَى انْبِعَاثِ الْقَرَائِحِ فِي
الْإِجَادَةِ. وَاللَّافِتُ أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ هَذَيْنِ الْعَامِلَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ مَعًا، فَيَقُولُ:
«وَلَمَّا جَمَعَ شُعْرَاءُ الْعَصْرِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ بَيْنَ فَصَاحَةِ الْبَدَاوَةِ وَحِلَاوَةِ
الْحَضَارَةِ، وَرَزَقُوا مُلُوكًا وَأَمْرَاءَ مِنْ آلِ حَمْدَانَ وَبَنِي وَرَقَاءَ هُمْ بَقِيَّةُ الْعَرَبِ،
وَالْمَشْغُوفُونَ بِالْأَدَبِ، وَالْمَشْهُورُونَ بِالْمَجْدِ وَالْكَرَمِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ أَدْوَاتِ
السَّيْفِ وَالْقَلَمِ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا أَدِيبٌ جَوَادٌ، يُحِبُّ الشَّعْرَ وَيَتَّقِدُهُ، وَيُثَبِّبُ عَلَى
الْجَيْدِ مِنْهُ، فَيُجْزَلُ وَيُفْضَلُ - انْبَعَثَتْ قَرَائِحُهُمْ فِي الْإِجَادَةِ، فَقَادُوا مَحَاسِنَ
الْكَلَامِ بِاللَّيْنِ زِمَامًا، وَأَحْسَنُوا وَأَبْدَعُوا مَا شَاءُوا»^(١٥).

ويتحدَّثُ الثَّعَالِبِيُّ هُنَا عَنْ فُضَاءٍ سِيَاسِيٍّ وَاجْتِمَاعِيٍّ وَفَنِّيٍّ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ
فِيهِ قَوْلُ الْقَائِلِ:

هَيْهَاتَ أَنْ يَأْتِيَ الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلٌ
فَالظَّاهِرُ تَمَامًا مِمَّا قَالَهُ صَاحِبُ الْيَتِيمَةِ أَنَّنَا فِي بَلَاطِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ أَمَامَ

منظومة متكاملة من المُثيرات للإبداع الشعري والتجديد فيه إلى الغاية التي قلَّ أن تجد بعدها غاية. وإخال أن فرط التحرز من المبالغات، يدفع في كثير من الأحيان إلى التضحية بالحقائق، وعمط الحقوق والحُظوظ؛ وهي طبيعة ضررها أشد من نفعها. وأقصد هنا إلى القول: إن ما ذكره الثعالبي عن الرعاية الأدبية في بلاط سيف الدولة، والدفع باتجاه نهضة إبداعية في مجال الشعر والأدب، ينبغي أن يلقى قدراً من الاهتمام لدى مؤرخي الأدب وناقديه والباحثين في الجمالية الشعرية خاصة. ولعل مما يؤكد ما نحن إزاءه قول الثعالبي: «وكان أبو بكر الخوارزمي في ريعان عمره، وعنفوان أمره، قد دَوَّخ بلاد الشام، وحصل من حضرة سيف الدولة بحلب في مجمع الرواة والشعراء، ومطرح الغرباء الفضلاء، فأقام ما أقام بها مع أبي عبد الله بن خالويه، وأبي الحسن الشمشاطي، وغيرهما من أئمة الأدباء، وأبي الطيب المتنبّي، وأبي العباس التّامي، وغيرهما من فحول الشعراء، بين علم يدرسه، وأدب يقتبسه، ومحاسن ألفاظ يستفيدها، وشوارد أشعار يصيدها. وانقلب عنها وهو أحد أفراد الدهر، وأمراء النظم والنثر. وكان يقول: ما فتق قلبي، وشحد فهمي، وصقل ذهني، وأرهف حدّ لساني، وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية، التي علقت بحفظي، وامتزجت بأجزاء نفسي، وغضن الشباب رطيب، ورداء الحداثة قشيب. وما كان أكثر ما يُشدني ويكتبني مما يضمن به على غيري من تلك الغرر التي تجري مجرى السحر، والملح التي يقطر منها الطرف، وأنا أكتبها في أماكنها من أبواب هذا القسم الأول، بمشيئة الله تعالى»^(١٦).

وفي مُستطاعنا أن نتبين هنا عناصر مدرسة شعرية من الطراز الرفيع؛ فثمة

في بلاط سيف الدولة «مجمع الرواة والشعراء، ومطرح الغرباء الفضلاء»، الذي أساتذته أئمة الأدب في زمانهم، من مثل ابن خالويه، وأبي الحسن الشمشاطي، وغيرهما من أئمة الأدباء؛ وفحول الشعراء من مثل أبي الطيب المتنبّي وأبي العباس التّامي وغيرهما من مُفلقِي الشعراء. وما يُدرَسُ في هذا المجمع في غاية النّفاسة في بابه؛ وهو علمٌ وأدبٌ ومحاسنُ ألفاظٍ وشواردُ أشعار. ونحسبُ أنّ العلمَ الذي يتحدّثُ عنه الخوارزمي هو علمُ العربيّة نحواً وصرفاً ومثناً. أمّا محاسنُ الألفاظِ وشواردُ الأشعارِ فمادّةٌ للرواية، أبرزُ خصائصها الرّقة والدمائة والصفاء والصّحة والإصابة في المفردات، والأشعارُ الأخاذة التي تتناهبها الحوافِظُ وتعلّقُ بالأرواحِ وتطيرُ في الآفاق.

أمّا ما يُسمّى في عصرنا المُخرجاتِ التّعليميّة، فنموزجُه هذا الخوارزمي من بلادِ خراسانِ الشّرقية. وكان قد وفّدَ على البلاطِ الحمدانيّ شابّاً غصّ الإهاب، وانقلَبَ عنه، وهو «أحدُ أفرادِ الدّهْرِ، وأمراءِ النّظم والنثر»، كما يقولُ صاحبُ اليتيمة. أمّا عناصرُ القوّةِ الشّعريّةِ والتّبريزِ في ميدانِ القريض، التي ظفّرَ بها من هذه المدرسةِ الشّعريّةِ الشّاميّة، فنعيدُ قولَه في شأنها: «ما فتقَ قلبي، وشحدَ فهمي، وصقلَ ذهني، وأرهفَ حدَّ لساني، وبلّغَ هذا المبلّغَ بي، إلا تلكَ الطّرائفُ الشّاميّة، واللّطائفُ الحلبيّةُ التي علقتُ بحفْظي وامتزجتُ بأجزاءِ نفسي».

ومن تلاميذِ هذه المدرسةِ الشّعريّةِ الشّاميّة، من غيرِ الشّاميين، القاضي أبو الحسنِ عليّ بن عبد العزيز الجرجانيّ، مؤلّفُ الكتابِ التّقديّ التّفيس «الوساطة بين المتنبّي وخصومه». وفي شأنِ هذه التّلمذةِ وتأثيرها في الإبداعِ الشّعريّ يقولُ الثّعاليّ: «وممن خرّجتهُ تلكَ البلادُ، وأخرجتهُ، وكلامه مقبولٌ محبوبٌ: القاضي أبو الحسنِ عليّ بن عبد العزيز الجرجانيّ؛

فإنه جنى ثمارها، واستصحب أنوارها، حتى ارتقى إلى المحلّ العليّ،
وتطبع بطبع البُحْثريّ»^(١٧).

ثانياً- الجزالةُ والعذوبةُ، والفصاحةُ والسلاسةُ:

إنه بمعنى من المعاني تعني الجزالةُ والعذوبةُ عَيْنَ الفصاحةِ والسلاسةِ،
وهما صفتان في اللغةِ والأسلوبِ تنفيانِ عنهما أقداءُ الركاكةِ والرطانةِ
والسوقيةِ، وتُشيرانِ إلى آثارٍ من الرقةِ والحلاوةِ، وسهولةِ الإدراكِ، والعُلوِّقِ
بالقلبِ، والجزّيِّ على اللسانِ. وتعدُّ الأشعارُ الموصوفةُ بهاتينِ الصفتينِ من
قبيلِ «البدائعِ واللطائفِ».

وابتغاءُ تأكيدِ تعيّنِ هذه الصفاتِ في أشعارِ شعراءِ المدرسةِ الشاميّةِ في
عصرِ سيفِ الدولةِ، نسوقُ هذه الروايةَ التي ذكرها الثعالبيُّ في اليتيمة:
«وأخبرني جماعةٌ من أصحابِ أبي القاسمِ إسماعيلَ بنِ عبّادٍ أنّه كان
يُعجّبُ بطريقتهم المثلّي، التي هي طريقةُ البُحْثريِّ في الجزالةِ والعذوبةِ،
والفصاحةِ والسلاسةِ، ويحرصُ على الجديدِ من أشعارهم، ويستملي الطارئينَ
عليه من تلك البلادِ ما يحفظونه من تلك البدائعِ واللطائفِ، حتى كسّرَ دفترًا
ضحّمَ الحُجْمَ عليها^(*)، وكان لا يفارقُ مجلسه، ولا يملأُ أحدٌ منه عينه غيرُه.
وصار ما جمعه فيه على طرَفِ لسانه، وفي سنِّ قلمه، فطوراً يحاضرُ به في
مُخاطباته ومُحاوراته، وتارةً يحلُّه، أو يورده كما هو في رسائله»^(١٨).

وصدقُ الأحداثِ واضحٌ هنا، فالثعالبيُّ ينقلُ عن جماعةٍ، ويأتي
بتفاصيلٍ ودقائقٍ تهبُّ الروايةُ صدقاً على صدق. وفي هذه الروايةِ أشياءُ أُخرُ

(١٧) المصدر السابق ١/ ١٥.

(*) أي جعله على عدّة أبواب.

(١٨) المصدر نفسه ١/ ١٣.

مُهَمَّةٌ؛ مِنْهَا أَنْ بَطَلَهَا الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ، الَّذِي كَانَ أُمَّةً فِي رِعَايَةِ الشَّعْرِ وَحِفْظِهِ وَتَسْقُطِ أَخْبَارِهِ، وَالْمُكَافَأَةِ عَلَى الْجَيِّدِ الْمُمْتَازِ مِنْهُ. وَمِنْهَا أَنَّ الصَّاحِبَ كَانَ مُعْجَبًا بِطَرِيقَةِ الشَّامِيِّينَ الْمُثَلَى، وَهِيَ طَرِيقَةُ الْبُحْثِيِّ فِي الْجَزَالَةِ وَالْعُدُوبَةِ، وَالْفَصَاحَةِ وَالسَّلَاسَةِ، وَأَنَّهُ كَانَ مُتَابِعًا جَيِّدًا لِلْجَدِيدِ مِنْ أَشْعَارِهِمْ، مُسْتَمْلِيًا الطَّارِئِينَ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ مَا يَسْتَضْهِرُونَهُ مِنْ بَدَائِعِ الشَّامِيِّينَ وَلَطَائِفِهِمْ، وَأَنَّهُ اسْتَعْمَلَ الْمَادَّةَ الشَّعْرِيَّةَ الْوَافِدَةَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّيَارِ الشَّامِيَّةِ فِي مُخَاطَبَاتِهِ وَمَحَاوِرَاتِهِ، وَفِي رِسَائِلِهِ.

وغيرُ خَافِ الْبِتَّةِ هُنَا أَنَّنَا أَمَامَ مَدْرَسَةِ شَعْرِيَّةٍ شَامِيَّةٍ، لَهَا أَسَاتِذَةٌ وَمُقَرَّرَاتٌ دَرْسِيَّةٌ، وَمَبَادِيءٌ وَأَصُولٌ فَنِيَّةٌ مُرَاعَاةٌ، يَحْمِلُ عَلَى الْإِنْقِيَادِ لَهَا ذَوْقُ شَعْرِيٍّ وَاضِحِ الْمَعَالِمِ، بَيْنَ الْقَسَمَاتِ، مُتَنَاقِلٌ مُتَعَالِمٌ بَيْنَ الْمُتَتَجِّينَ لِلشَّعْرِ فِي هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ. وَلَعَلَّنَا نَقُولُ حَقًّا حِينَ نَذْهَبُ إِلَى الْقَوْلِ: إِنَّهُ لَا يَبْرَعُ فِي هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ إِلَّا ذُو بَأْسٍ شَدِيدٍ فِي حَلْبَةِ الْقَرِيضِ، شَاعِرٌ حَادُّ الْجَنَانِ، طَيِّعُ اللِّسَانِ، يَأْتِي إِلَى سُوقِ الشَّعْرِ بِمَا تَتَنَاهَبُهُ أَحْدَاقُ الْقُلُوبِ، وَيَفْغَمُ (*) مَشَامَ الْمُتَمَتِّعِينَ مِنْهُ أَطْيَابِ الطِّيُوبِ. وَكَيْفَ لَا يَسْتَجِيبُ أُمُّ الْبِلَاطِ الْحَمْدَانِيَّ فِي حَلْبِ لِمَطَالِبِ الدَّوْقِ الْفَنِيِّ الْمُنَشُودِ فِي الشَّامِ عَامَّةً وَفِي بِلَاطِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ خَاصَّةً، وَحَضْرَتُهُ كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ الْيَتِيمَةِ: «مَقْصِدُ الْوَفُودِ، وَمَطْلَعُ الْجُودِ، وَقِبْلَةُ الْأَمَالِ، وَمَحَطُّ الرَّحَالِ، وَمَوْسِمُ الْأَدْبَاءِ، وَحَلْبَةُ الشَّعْرَاءِ. وَيَقَالُ: إِنَّهُ «لَمْ يَجْتَمِعْ قَطُّ بِيَابِ أَحَدٍ مِنَ الْمُلُوكِ، بَعْدَ الْخُلَفَاءِ، مَا اجْتَمَعَ بِيَابِهِ مِنْ شُيُوخِ الشَّعْرِ، وَنُجُومِ الدَّهْرِ. وَإِنَّمَا السُّلْطَانُ سُوقٌ يُجْلَبُ إِلَيْهَا مَا يَنْفَقُ لَدَيْهَا» (١٩).

أَمَّا مَظَاهِرُ هَذِهِ الْجَزَالَةِ وَالْعُدُوبَةِ، وَالْفَصَاحَةِ وَالسَّلَاسَةِ، فَقَدْ مَثَّلَ لَهَا

(*) فَعَمَهُ الطِّيْبُ: سَدَّ حَيَاشِيَمَهُ.

(١٩) المصدر السابق ١/ ١٥-١٦.

أصحابُ الصَّاحِبِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبَّادٍ، فِي رِوَايَةِ الثَّعَالِبِيِّ، بِمِثْلِ قَوْلِ الْقَائِلِ:
 سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْمَعَاهِدِ إِنَّهَا شَرِيعَةٌ وَرُذِي، أَوْ مَهَبٌ شَمَالِي
 لِيَالِي لَمْ نَحْذَرْ حُزُونَ قَطِيعَةٍ وَلَمْ نَمْسِ إِلَّا فِي سُهولٍ وَصَالٍ
 فَقَدْ صِرْتُ أَرْضِي مِنْ سَوَاكِنِ أَرْضِهَا بِخُلْبِ بَرْقٍ، أَوْ بِطَيْفِ خِيَالٍ
 وَقَوْلِ الْآخَرِ:

إِذَا دَنَّتِ الْمَنَازِلُ زَادَ شَوْقِي وَلَا سِيَمَا إِذَا بَدَتِ الْخِيَامُ
 فَلَمَحُ الْعَيْنِ دُونَ الْحَيِّ شَهْرٌ وَرَجَعُ الطَّرْفِ دُونَ السَّيْرِ عَامٌ
 وَقَوْلِ الْآخَرِ:

فَسَقَى اللَّهُ بَلْدَةً أَنْتَ فِيهَا كَدُمُوعِي عِنْدَ اعْتِرَاضِ الْفِرَاقِ
 وَأَرَانِيكَ، فَالصَّبَا قَدْ تَرَقَّتْ يَا بُرُوحِي إِلَى أَعَالِي التَّرَاقِي (٢٠)

ثالثاً- استيفاءُ البراعةِ، وكمالُ الصَّناعةِ، وَرَوْنُقُ الطَّلَاوَةِ:

لِأَنَّ كُلَّ شَاعِرٍ ابْنُ بَيْتِهِ وَعَصْرِهِ، وَمَا يَسْتَحْسِنُهُ وَيَرُوقُهُ دَرَجَةٌ مَا مِنْ
 دَرَجَاتٍ طَبِيعَةٍ مَا يَسْتَحْسِنُهُ أَهْلُ زَمَانِهِ، نَجْدُ الثَّعَالِبِيِّ، الْمَوْرِّخُ الْأَدَبِيُّ وَالنَّاقِدُ
 الْمَتَمِّيزُ لِأَدَبِ ذَلِكَ الْعَصْرِ، يُقِيمُ وَزناً كَبِيراً لِتَعْبِيرِ شُعْرَاءِ عَصْرِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ
 عَنِ الْحَسَاسِيَّةِ الْجَمَالِيَّةِ لِعَصْرِهِمْ وَبَيْتِهِمْ. بَلْ يَبْدُو الْأَمْرُ كَأَنَّ الرَّجُلَ يَرْبِطُ
 رَبْطاً قَوِيّاً بَيْنَ الذَّوْقِ الْفَنِّيِّ الْعَامِّ فِي عَصْرِ وَمِصْرٍ، وَبَيْنَ الذَّوْقِ الشُّعْرِيِّ الَّذِي
 يُصَوِّرُهُ عَلَى نَحْوِ مَا شُعْرَاءُ هَذَيْنِ الْعَصْرِ وَالْمِصْرِ، وَيَتَحَدَّثُ عَنْ تَأْثِيرِ
 الْمُشَارَكَةِ فِي الذَّوْقِ بَيْنَ الشَّاعِرِ وَمُعَاصِرِيهِ وَمُوَاطِنِيهِ، وَعَنْ اتِّجَاهِ عَامٍّ فِي
 الذَّوْقِ الشُّعْرِيِّ الْعَرَبِيِّ نَحْوَ الرَّقَّةِ وَالدمَاثَةِ وَاللُّطْفِ، مَعَ تَقَدُّمِ الزَّمَنِ. يَقُولُ
 صَاحِبُ الْيَتِيمَةِ فِي هَذَا الشَّانِ:

«ولمّا كان الشُّعْرُ عُمْدَةَ الأَدَبِ، وَعِلْمَ العَرَبِ الذي اختصّت به عن سائر الأمم، وبلسانهم جاء كتابُ الله المُنزَّلُ، عَلَي التَّبِيِّ مِنْهُم المُرْسَلِ، صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلِّمْ، كَانَتْ أشْعَارُ الإسلاميين أرقَّ من أشعارِ الجاهليين، وأشعارُ المُحدّثين ألطفَ من أشعارِ المتقدمين، وأشعارُ المولّدين أبداعَ من أشعارِ المُحدّثين، وكانت أشعارُ العَصْرِيِّينَ أجمعَ لنوادرِ المحاسن، وأنظَمَ لِلطائِفِ البدائع، من أشعارِ سائرِ المذكورين؛ لِانتهائها إلى أبعادِ غاياتِ الحُسن، وبلوغها أَقصى نِهايَاتِ الجودَةِ والظُّرفِ، تكادُ تخرُجُ من بابِ الإعجابِ إلى الإعجاز، وَمِنْ حَدِّ الشُّعْرِ إلى السُّحْرِ. فكأنَّ الزَّمانَ ادَّخَرَ لَنَا مِنْ نَتَائِجِ خِوِاطِرِهِمْ، وَثَمَرَاتِ قِرَائِحِهِمْ، وَأَبْكَارِ أَفْكَارِهِمْ، أَنَمَّ الألفاظِ والمعاني استيفاءً لأقسامِ البراعة، وأوفرها نصيباً من كمالِ الصَّنعة، ورونقِ الطَّلَاوةِ.

وكذلك قد ساد النبيُّ مُحَمَّدٌ كُلاًّ الأنامِ، وكان آخرَ مُرْسَلٍ^(٢١) وربما يكونُ مُفيداً أن أوضِحَ قليلاً الدلالاتِ التَّقديّةِ لمُصطلحاتِ: البراعة والصَّنعة والطَّلَاوة، التي عُدَّتْ في مَقالةِ الثعالبيِّ هذه خاصّياتِ لِشِعْرِ القرنِ الرَّابِعِ الهجريِّ، ولِشِعْرِ عَصْرِ سَيْفِ الدَّولةِ خاصّةً:

- أمّا البراعةُ في اللُّغة فهي من قولهم: بَرَعَ الرَّجُلُ، إذا فاقَ أصحابه في العِلْمِ وغيره، فهو «بارعٌ». وتعني في المصطلحِ التَّقديّ في ذلك العَصْرِ: التَّفوّقُ في المؤدّي المنجَزِ مِنَ الشُّعْرِ. وقد عبّرَ عن ذلك الثعالبيُّ نفسه حينَ قال في شأنِ تجويدِ شعراءِ عَصْرِهِ، الذينَ أسماهم «العَصْرِيِّينَ»: «وكانتْ أشعارُ العَصْرِيِّينَ أجمعَ لنوادرِ المحاسن، وأنظَمَ لِلطائِفِ البدائعِ من أشعارِ سائرِ المذكورين [السابقين]؛ لِانتهائها إلى أبعادِ غاياتِ الحُسن، وبلوغها أَقصى نِهايَاتِ الجودَةِ والظُّرفِ، تكادُ تخرُجُ من بابِ الإعجابِ إلى الإعجاز، وَمِنْ حَدِّ الشُّعْرِ إلى السُّحْرِ..».

- وأما الصنعة فهي في اللغة عمل الصانع. وحين تعمل «الصنعة» في إنتاج الشعر يعني ذلك التخليق والأداء. وتعني «الصنعة» في الشعر - في المال الأخير - قُصديَّة وإعمالاً لأدواتٍ فكريَّة وفنيَّة، في مادة لغويَّة. والشاعر عند اليونانيين «صانع»، جعلت الإنكليزيةً مُقابلهُ فيها لفظَ maker. وكمالُ الصنعة هنا معناه إتقانُ الأداءِ واستيفاءُ العناصرِ والمكوّناتِ.

- وأما «الطلاوة»، بضمّ الطاءِ وفَتْحِها، فهي في اللغة الحُسْنُ والجَمالُ الظاهرُ. وتنطوي في الاصطلاحِ التّقدّيِّ القديمِ على جُملةٍ معانٍ، مِنْ مِثْلِ: الحُسْنِ والبَهجةِ والقَبولِ والسَّحرِ. وكُلُّ هذه صفاتٌ متينةٌ الارتباطِ بالحسائيَّةِ الجماليَّةِ. وتعبيرُ «رونقِ الطلاوة» يَعني ألقَ الجَمالِ الشُّعريِّ، الذي يهجمُ على الحواسِّ قَبْلَ العقولِ، ويحرِّكُ النفوسَ، ويهزُّ الطِّباعَ.

ويبدو أنّ الثَّعالبيِّ، المذهبَ بأشعارِ شعراءِ المدرسةِ الشَّاميَّةِ، لا يَعدُّ مَنْ يؤيِّدُهُ في شأنِ سَبقِ الشَّاميينِ إلى خاصِّياتٍ تُعلي من شأنِ شِعْرِهِمْ، وتَضْمَنُ ثناءَ المدقِّقينَ على صنعتِهِمْ. فهذا مثلاً المرحومُ الدُّكتورُ زكيُّ مُباركٍ يقولُ:

«وأهلُ الشَّامِ في الأدبِ القديمِ تَعَلَّبُ عليهم رِقَّةُ الطَّبَعِ؛ ولهم شَغَفٌ بِصُورِ الجَمالِ؛ ونزعتُهُم الغزليَّةُ فيها لِينٌ يندرُ مثلهُ في مِصرَ والعِراقِ. وهذا الذي استَوْحِيناهُ ممَّا قرأنا لِشُعراءِ الشَّامِ في المعاني الحِسيَّةِ والوجدانيَّةِ» (٢٢).

أعلامُ المدرسةِ الشُّعريَّةِ الشَّاميَّةِ في ذلك العَصْرِ:

اللافتُ في الحياةِ الأدبيَّةِ في عَصْرِ سَيْفِ الدَّولةِ أنّ رعايتهِ الشُّعْرَ فَعَلَتْ فِعْلَها في إتاحةِ فضاءٍ فَنِّي يجذبُ إليه شُعراءَ كباراً مِنَ الدِّيارِ الشَّاميَّةِ وَمِن عِراقِي العَرَبِ والعِجَمِ وَمِن خُراسانَ وما وراءَ النُّهرِ: أي إنَّه نشأ في بلاطِ سَيْفِ

(٢٢) استشهد به سامي الكيالي في: «سيفُ الدَّولةِ وعَصْرُ الحَمْدانيِّينَ»، ص ١٧٩.

الدولة ما يُشبهه أن يكون «اتحاداً» للشعراء العرب في ذلك العصر. ولا يُشكُّ في أن من يفدون على هذا البلاط من الشعراء هم من الطراز المبدع المتقن، وأن الأشعار التي تُقدّم ثمة من الطراز المهذب المحكك المهيأ لقبول الأنظار الفاحصة الناقدة؛ من الأمير الحمداني نفسه، ومن بطانته من علماء العربية وشعرائها الكبار. ويخال المتأمل أنه وجدت في بلاط سيف الدولة في حلب «بيئة شعرية» محرّضة جداً على التنافس في الإجادة والإتقان وبلوغ الغايات، من الضرب الذي يقلُّ أن نجد مثله في مكان آخر في التاريخ الأدبي العربي. وأعرض في هذه المندوحة رواية تُصور جيداً بعض ما أريد أن يعرفه جمهورنا الكريم. يقول الثعالبي: «وكان كلُّ من أبي محمد، عبد الله بن محمد الفياض الكاتب، وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي، قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت، كقول أبي الطيب المتبي:

خَلِيلِي، إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ	فَلِمَ مِنْهُمْ الدَّعْوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ
فَلَا تَعْجَبَا، إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ	وَلَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدٌ
لَهُ مِنْ كَرِيمِ الطَّبَعِ فِي الْحَرْبِ مُتَّضٍ	وَمِنْ عَادَةِ الْإِحْسَانِ وَالصَّفْحِ غَامِدٌ
وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ دُونَ مَحَلِّهِ	تَيَقَّنْتُ أَنَّ الدَّهْرَ لِلنَّاسِ نَاقِدٌ» (٢٣)

وكقول السري بن أحمد الموصلي [الرفاء]:

أَعَزُّمُتْكَ الشَّهَابُ أَمْ التَّهَارُ؟	أَرَا حُتَّكَ السَّحَابُ أَمْ الْبِحَارُ؟
خُلِقْتَ مَنِيَّةً وَمُنَى، فَأَضَحَتْ	تَمُورُ بِكَ الْبَسِيطَةُ، أَوْ تُمَارُ
تُحَلِّي الدِّينَ أَوْ تَحْمِي حِمَاهُ	فَأَنْتَ عَلَيْهِ سُورٌ أَوْ سِوَارُ
سُيُوفُكَ مِنْ شَكَاةِ الثَّغْرِ بُرَّةٌ	وَلَكِنْ لِلْعَدَا فِيهَا بَوَارُ

وَكَفَّاكَ الْغَمَامُ الْجَوْنَ يَسْرِي وفي أحشائه ماءً و نارُ
يَمِينُ مِنْ سَجَّيْتِهَا الْمَنَايَا وَيُسْرَى مِنْ عَطِيَّتِهَا الْيَسَارُ
وَذَكَرَ الثَّعَالِبِيُّ مِنْ اخْتِيَارَاتِ هَذَيْنِ الْأَدِيبَيْنِ مِنْ مِدْحِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ نَمَازِجَ
شِعْرِيَّةٍ لِأَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ، وَأَبِي الْعَبَّاسِ التَّامِيِّ، وَأَبِي الْفَرَجِ الْبَغَّاءِ مِنْ
شُعْرَاءِ الْمَدْرَسَةِ الشَّامِيَّةِ، وَلِأَبِي نَضْرٍ بْنِ نُبَاتَةَ، وَهُوَ مِنْ شُعْرَاءِ الْعِرَاقِ.

ويبدو من هذه الرواية، ومن التأريخ الواقعي الذي قدّمه الثعالبي في اليتيمة
لهذه الحالة الإبداعية الشعرية، أننا إزاء إطار علمي ثقافي مُتْرَعٍ بِأَعْمَالِ الْقِرَائِحِ
الشَّعْرِيَّةِ، مُشْبَعٍ بِرُوحِ النُّقْدِ وَالتَّفْضِيلِ بَيْنَ نَفَائِسِ الْأَثَارِ الشَّعْرِيَّةِ. وَشَيْءٌ عَادِيٌّ
تَمَاماً أَنْ يَكُونَ نِتَاجُ ذَلِكَ كُلِّهِ فَنَّا شِعْرِيًّا عَبَّرَ عَنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ أَبِي بَكْرٍ
الْخَوَارِزَمِيِّ الَّذِي أَثْبَتَاهُ قَبْلُ: «مَا فَتَّقَ قَلْبِي، وَشَحَذَ فَهْمِي، وَصَقَلَ ذَهْنِي،
وَأَرْهَفَ حَدَّ لِسَانِي، وَبَلَغَ هَذَا الْمَبْلَغَ بِي، إِلَّا تِلْكَ الطَّرَائِفُ الشَّامِيَّةُ، وَاللِّطَائِفُ
الْحَلِيبِيَّةُ، الَّتِي عَلِقَتْ بِحِفْظِي، وَامْتَزَجَتْ بِأَجْزَاءِ نَفْسِي» (٢٤).

ولعلّ في هذا الذي قدّمنا ما يُنبئ عن مُستوياتِ الإِجَادَةِ وَالتَّبْرِيكِ لَدَى
جُمْهُورِ شُعْرَاءِ الْمَدْرَسَةِ الشَّامِيَّةِ، وَبَعْضُ هَؤُلَاءِ طَبْعاً لَيْسُوا مِنَ الْبِلَادِ
الشَّامِيَّةِ، وَانْتَقَالُ الشُّعْرَاءِ أَمْرٌ مَعْرُوفٌ مِنْذُ الْقَدِيمِ.

وَمِنْ شُعْرَاءِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ سَيْفُ الدَّوْلَةِ نَفْسِهِ، الَّذِي يُعْجَبُ صَاحِبُ
الْيَتِيمَةِ بِقَوْلِهِ فِي وَصْفِ قَوْسِ الْغَمَامِ:

وَسَاقٍ صَبِيحٍ، لِلصَّبُوحِ دَعْوَتُهُ فِقَامٌ، وَفِي أَجْفَانِهِ سِنَّةُ الْغُمُضِ
يَطُوفُ بِكَاسَاتِ الْعُقَارِ كَأَنْجُمٍ فَمِنْ بَيْنِ مُنْقَضِ عَلَيْنَا وَمُنْقَضِ
وَقَدْ نَشَرَتْ أَيْدِي الْجَنُوبِ مَطَارِفًا عَلَى الْجَوِّ دُكْنًا، وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ
يُطَرِّزُهَا قَوْسُ الْغَمَامِ بِأَصْفَرٍ عَلَى أَحْمَرٍ فِي أَخْضَرٍ تَحْتَ مُبْيَضٍ

كَأذْيَالِ خَوْدٍ، أَقْبَلْتُ فِي غَلَائِلِ مُصَبَّغَةٍ، وَالْبَعْضُ أَقْصَرَ مِنْ بَعْضٍ
يقول الثعالبي: «وهذا من التشبيهات الملوكية التي لا يكاد يحضر مثلها
السوقة» (٢٥).

فإذا صحّت نسبة هذه الأبيات إلى الأمير الحمداني الكبير، فإنها تصلح
نموذجاً دالاً على الإبداع الذي وجّه الإبداع، ورعاه، وهياً له جملة أسباب
الازدهار والنماء. وقد ذكّر له صاحب اليتيمة جملة مقطّعات شعرية، جلّها
من النمط الجيد. ومن ذلك هذه الأبيات:

أَقْبَلُهُ عَلَى جَزَعٍ كَشْرِبِ الطَّائِرِ الفَزَعِ
رَأَى مَاءً، فَأَطْمَعُهُ وَخَافَ عَوَاقِبَ الطَّمَعِ
وَصَادَفَ فُرْصَةً فَدَنَا وَلَمْ يَلْتَذَّ بِالْجُرْعِ

ويذكر صاحب اليتيمة أسماء كثيرة لمن جعلهم من شعراء المدرسة
الشامية، ونكتفي لضيّق المقام بذكر الأعلام منهم. ولعل في الطليعة من هذه
القائمة أبا الطيّب المتنبّي، الذي قصّر الثعالبي عليه باباً كاملاً من الجزء
الأول من اليتيمة، عنّه (*) هكذا: «الباب الخامس في ذكر أبي الطيّب المتنبّي
وما له، وما عليه». وامتدّ حديثه عنه على أكثر من مئة صفحة من صفحات
اليتيمة. ومن شعراء المدرسة الشامية الأعلام، عدّ الثعالبي أيضاً أبا فراس
الحارث بن سعيد، الذي خصّه بـ «الباب الثالث» من الجزء الثالث. وجعل
الباب الرابع «في ملح شعر آل حمدان أمراء الشام، وقضاتهم، وكتّابهم»،
وذكر في هذه المندوحة ثمانية عشر شاعراً. وعدّ الثعالبي من أعلام
المدرسة الشعرية الشامية في هذا العصر أسماء لامعة في ديوان الشعر

(٢٥) المصدر نفسه ١/ ٣١.

(*) عنّه: لغة في عنونه.

العربي، من مثل: أبي العباس أحمد بن محمد النامي، وأبي الحسين الناشئ الأصغر، وأبي القاسم الزاهي. وخصّ أبا الفرج عبد الواحد الببغاء بـ «الباب السابع». وذكر أسماء آخر من شعراء الشام أدخل حديثه عنهم في «الباب التاسع» الذي جعل عنوانه: «ملح أهل الشام ومصر والمغرب، وطرف أشعارهم ونواديرهم»، وجعل منهم الشاعر كشاجماً.

المحصل المهم الأخير:

قدمت «المدرسة الشعرية الشامية في عصر سيف الدولة» نموذجاً يكاد يكون فذاً في تاريخ الشعر العربي في الصورة وفي المضمون. فكان أن اتسم الغرس الشامي في الشعر بالمتانة وشدّة الأثر وفصاحة الأداء، وصفاء البداوة مع حلاوة الحضارة، واستخراج الجواهر الشعرية من معادنها. وقد توفرت الشام على امتداد الأعصر على عوامل باعثة على فن شعري هو عنوان دقيق للمنطقة وأهلها. فالشام حجاز الإسلام، وأهلها هم أهل الحجاز، وقد جمعوا إلى الفصاحة الحجازية القرشية ألق الحياة الشامية، ورقة الشاميين ودمائة طباعهم، وذوقهم الحضري المترف، وأصالتهم في الفن والإبداع.

وقد توفرت للشام في عصر سيف الدولة عنصراً عربياً يقيم وزناً كبيراً للفروسية والبطولة وبناء الدولة، ويحتفي إلى درجة التقديس بأرباب الأحلام والأقلام والمبدعين في كل فن من الفنون وعلم من العلوم. وتبعاً لهذا كله، ولعوامل آخر كثيرة، كانت الشام في ذلك العصر قبلة كل من أحس أن يد العناية الإلهية سطرت في كتاب روجه آية من آيات الجمال الخالد، الذي يعلمه من يعلم لمن لا يعلم. وكانت بلادنا في ذلك العصر تدرّس أسفار البطولة، وتخرج الشعراء الذين كان كل منهم شمساً تزدان بها سماء الحياة الثقافية العربية. والحمد لله في البدء وفي الختام.

أبناءُ جمعيةٍ وثقافية

الاحتفاء بيوم اللغة الأم ويوم اللغة العربية

كلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني^(*)

أيها الحفل الكريم:

يسرّنا حضوركم استجابةً لدعوةٍ مجمعنا، لشاركوا في الاحتفال السنوي بمناسبةيتين هامتين أحببنا أن نجمعهما في يوم واحد: عيدُ العربية، بصفتها لغتنا الأم الحاملة لتراثنا، والمهيكلية لمجتمعاتنا، والضامنة لفهمنا عناصرَ العالم الذي نعيش فيه، وهو عيدٌ نقيمه عادةً في الواحد والعشرين من شهر شباط، وقد أرفقناه بيوم اللغة العربية، وهو في الأول من آذار، بعد أن أصبحت العربيةُ اللغةَ السادسة بين اللغات العالمية التي يمكن اعتمادها في المجالات الدولية.

وما زال مجمعنا يثابر على الإخلاص لمنطلقه الأصلي، وهو دفع الأذى عن حياض اللغة العربية، وهي مهمة تتركز في مواجهة التيارات الحداثيّة التي تسعى لاستثمار تلك مجتمعاتنا في اقتناص الفرص للإفادة من السيل المعرفي الذي تطرحه الحركة العلمية العالمية، وهو يؤدي إلى إغراق اللغات الأخرى بسيل من المصطلحات تنتجها المراكز العلمية، مرافقةً لكشوفات علمية وطروحات فكرية قلبت نظرنا إلى عالمنا.

وليست خدمة اللغة العربية محصورةً في دراسة أساليبها، أو تسهيل إعرابها،

(*) رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق.

أو التفاخرِ بإبراز تلك الثروة اللغوية التي ورثناها عمّن حملوا شعلة الحضارة العربية الإسلامية إلى أقاصي المسكونة، وقدّموا فيها منطلقات فكرية استمرّ انتشارها حتى القرن العاشر الميلادي، وكانت أساساً راسخاً للحضارة الأوربية.

بل إن هدفنا الأسمى هو جعلها قادرةً على السير مع تطوّر العلوم، في عالم قارب على جعل اللغة الإنكليزية المرجعية الأولى، حين تودّ المجتمعات الوصول إلى فهمٍ دقيق لنواظم الكون الذي نعيش فيه، وبخاصة حين تودّ النفوذ إلى توضيح ما يحيط بها من تغيّرات ومؤثرات لعلها تستطيع درء أخطارها.

ونحن منذ دخولنا في الألفية الثالثة، وانطلاق أمواج ما يُسمّى ما بعد الحداثة، تلك الأمواج التي تحمّل الكثير من التشكيك في حداثة غربية فرضت نفسها على عالمنا، معتبرةً أن العالم الغربي وحده هو مركز العالم بأسره، مستندةً بذلك إلى إنجازاتها في عوالم التّقانة، مُزديرةً الثقافات التي لم تستطع مشاركتها في مجالات تدفق السيل المعرفي المتسارع في عالمنا نرى أن إبراز موقع لغتنا في المسار الثقافي العالمي، عن طريق بيان حيويتها، وانفتاحها على أرقى المجالات الفكرية الإنسانية، والتعمّق في دراسة تطورها التاريخي، بالإصرار على سبر أغوارها وخبر بواطنها، تبقى هي المنطلقات التي تُعيد إلى لغتنا نجاعتها في مواجهة التحديات، وتُعيد إليها مكانتها في وجدان أبنائها، على الرغم مما يتعرضون له من مُغريات تشدّهم إلى تغرّب طوعي يُبعدهم عن انتمائهم الثقافي العريق.

أيها السيدات والسادة:

إن اللغات البشرية ليست سوى منظوماتٍ تقوم بمعالجة المعلومات لتجعل منها المعرفة، وهي التي تستقرّ في الأدمغة رصيلاً إنسانياً يُسمّى الثقافة. وهذا ما يجعل من اللغة تلك الأداة المتكاملة القادرة على تكوين أبنية رمزية ثقافية

عميقة الجذور، تنتهي إلى رواسبٍ أعراقية مجتمعية راسخة، تُتيح للناطق بها فرصة التعبير عن فكره ومكنونه، بما يعطي له طابعاً يميّزه من غيره ويرسم مُهيكلات شخصيته.

وأما ما يخصّ دعاة التغريب، الذين نراهم يزوّقون خطابهم بألفاظٍ أجنبية مُدّعين بذلك انفتاحهم على ثقافاتٍ أوسع من ثقافتهم، فقد أثبت الكثير منهم عدم وجود فهمٍ دقيقٍ لهذه الألفاظ لديهم، وهذا ما يجعلها ناشزةً في خطابهم.

إنه مسلكٌ يُبعد العربيّ عن التفكير عربيّاً، دون أن يُدخله إلى الفكر الأجنبي، وهو تصرفٌ قد لا يكون إرادياً، بل هو نتيجةٌ واضحة لما نشهده من اختراقٍ ثقافي حضاري تمارسه الحداثة المُعولمة الغازية، التي لم نأخذ منها سوى قشورها، إذ إننا لم نستفد من هذا الاختراق لننُفدَ إلى لبّ الثقافة الغربية، نأخذ منه الأسس التي نبني عليها تطوّر مجتمعاتنا. ولا شكّ بأن مفهوم مابعد الحداثة هو تأكيدٌ لإخفاق الحداثة الغربية في هدفها الإنساني الأصلي، إذ إنها أخلفت هيمنةً ظالمة، واعتمدت الاستعمار للسيطرة على الشعوب، واتخذت الحروب وسائل لتحقيق مصالحها، بعد أن أنتجت الفاشية التي انتهت بالخراب والدمار. ولذا فإن مابعد الحداثة هو عصرُ التنوّع والاختلاف، بل هو عصرُ التشظّي.

ولا شكّ بأن استعمال الألفاظ الأجنبية في خطاب شبابنا لا يمكن أن يُعتبر تعريباً كما يدّعي بعض المتفدّلين، مُستندين إلى عمل التراجمة الأوّل حين أدخلوا علوم الإغريق إلى اللغة العربية في العهد الأموي، وقبلوا دخول ألفاظٍ كالفلسفة والدينار والسفسطة والأرتميقا وغيرها، ويصف الجاحظ ذلك قائلاً «في البيان والتبيين»: «جازت هذه الألفاظ في صناعة

الكلام حين عجزت الأسماء الوضعية عن اتساع المعاني». أو كما يقول الجوهري في «الصحاح»: تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها: نقول عربته وأعربته. وهو يُبرز بذلك المحافظة على هيكلية الألفاظ حين تعريبها. وحقيقة الأمر أن لغتنا لا تحتاج إلى التمسك بإبقاء اللفظة الأجنبية على أصوات أحرفها الأصلية، في حين أنها قادرة على الوصول إلى استنباط المقابلات الحضارية المطلوبة، بالاعتماد على ثروتها اللفظية في مجالات الوضع والاشتقاق، والقياس والمجاز والتوليد، بما يؤكد مقدرتها على إنشاء مصطلحاتٍ حديثة، ويثبت جدارتها لاستعمالها دون التفريط في خصوصياتها.

إن مسارَ مجمعنا في توطين العلوم، عن طريق صناعة المعجمات العلمية اللازمة للعلوم الحديثة التي تُدرّس في جامعاتنا، هو خطوةٌ أساسية في تطوير لغتنا لإخراجها من حوزة عولمةٍ مُجحفة تعمل على تجريدها من مُميزاتها. وأهم ما نريد الوصول إليه هو أن تكون الألفاظ بحجم دلالاتها، حاملةً للإشعاع الحضاري المناسب، وهو الذي يربطها بإمكانات العطاء الإبداعي، بما يرتقي بلغتنا إلى مستوى إنجازات الآخرين.

وإننا بذلك نحافظ على مخزونها التاريخي والفكري، خصوصاً على بُعدها الإنساني، لأنه أساسٌ لوحدة الناطقين بها، إذ إن الحفاظ على اللغة هو الحفاظ على الوجود حضوراً ومصيراً.

ولا شك أن توثيق العلاقة الحياتية بين لغتنا وبين مقومات مجتمعنا، في مواجهة ما يطرأ على عالمنا من تعيرات متسارعة، هو مهمّة غرضها أن يحول دون ظهور أجيالٍ لا انتماء لها ولا هوية، بعد أن يُسيطر التغريب على مناهج التفكير وقواعد التعبير عنه.

وأما التزامنا بوجوب تطويرها فهو يقف في وجه من يريدون الحد من قدراتها على ربط الناطقين بها بالبناء الاجتماعي الثقافي والفني المتجدد، ولذا لن نقبل بالموافق التي تؤدي إلى تحييطها بتجميد منطلقاتها الأصلية، بما ينتهي إلى تقييد تطابقها مع الروافد المعرفية المتتالية، ويجعلها تدخل في عداد اللغات المُصَبَّرة في مخازنها، بعد استعمال المعاول الفعالة لاستئصالها.

إنها مؤثرات يحملها ما نراه من تلوث لغوي في المجتمعات وفي وسائل الإعلام، ووسائل الاتصال الحديثة، فهي تدعي لنفسها حرّية لا تملكها، تُسخرها للتعبير عن خصائص جماعية مزعومة، يمكن اختزالها بالقول: إنها هوياتٌ حديثةٌ جديدةٌ مُصطنعة.

وحقيقة الأمر أن جميع ما يطرأ على الأفراد من تحولات وتجارب لا قدرة لها على تبديل شعورهم بحقيقة هويتهم، التي تبقى إحساساً داخلياً، يُطمئن الإنسان على أنه هو نفسه في الزمان والمكان، محتفظاً بانسجامه مع ذاته، وذلك لأن الهوية لها وجهان كما يقول (آلان تورين) Alain Touraine في كتابه «نقد الحداثة»: فهي من جهة ذاتٌ بُعدٍ فرديّ، ومن جهةٍ أخرى هي تعبيرٌ عن الانتماء إلى خصائصٍ جماعيةٍ.

أيها السيدات والسادة:

لا بد من التساؤل عما يمكن أن نُخطّط له للحؤول دون خضوع لغتنا لعزلة مفروضة تدريجية ينتهي إليها أبنائنا في مثل تلك المسارات، بعد أن تعرّضوا لتلك المؤثرات، فهل نقبل الوقوف عند حدود حماها المحاصر بكل أسلحة التكنولوجيا الدائمة التجدد؟

وهل يكفي ما نقوم به من تسهيل لتوطين العلوم فيها، عن طريق سباقٍ دائمٍ مع مراكز البحوث العالمية، في مسعانا لوضع المقابلات العربية

لمصطلحاتهم، ونبقى مستسلمين لواقع يُبرز تأخراً دائماً في محاولتنا لاقتفاء التسارع العلمي؟

لا شك بأن مجتمعاتنا تعيش استلاباً فكرياً يتجاوز السيطرة على مقدراتها، محمولاً على تصرف فئاتٍ حداثية المسالك، قد بهرّتها بعض ظواهر التفرد الحداثي بما جعلها فاقدةً للكثير من النواظم المجتمعية.

إنه استلاب يتجلى في المظاهر السلوكية، إلا أنه سائرٌ بتدرّج متسارع نحو السيطرة على الفكر والهوية، وصولاً إلى مناهج الفكر وقواعد التعبير عنه.

وإن هذا الاستلاب الظاهري يرافقه اقتراضٌ لغوي في الحياة اليومية يتجاوز حدود الضرورات ليجعل من لغة التعامل اليومي خليطاً ممجوجاً يغلب عليه التفاخر بالعجمة.

كيف لا نستنكر تلك الظواهر، المُخلّة بصفاء اتمائنا إلى لغة تنامي فيها الفكر ليصل إلى أعلى مراتب الفلسفة والعلوم، وحلّق فيها الخيال، كما حملت أحلام الأجيال، حتى وصلت إلى عالمية طويلة الأمد في عدد كبير من العلوم؟! إنه استلاب يجعل السائرين في منطلقاته يترمون في أحضان لغة لا يعرفون من موازينها إلا القليل، ويبقون واقفين على أعتابها مُغتربين بيريقي علمي هو نتاج الفكر الإنساني وليس نتاج اللغة الأجنبية، وهذا ما نلاحظه بوجه خاص حين التطرّق إلى الموضوعات المرتبطة باستعمال التقانات الحديثة التي استقرت في لب حياة مجتمعنا.

لذا نحن نرى أنه مادما نعيش اللغة العربية، ونفخرُ بالانتماء بواسطتها إلى حضارةٍ تجاوزت مع مختلف متطلبات العقل البشري، باعتمادها لغةً متكاملةً يحترم نحوها نواظم الفكر الإنساني وضوابطها العقلية، لا بدّ لنا من حُطّةٍ توصلنا إلى لغةٍ كاملة العلاقة بمقومات الحضارة الحديثة.

فقد أضافت المسارات العلمية الحداثيّة مجالاتٍ تقنيّةً واسعة جعلت منها مستنداً لتسريع التقدم العلمي، ولإغناء حياة المجتمعات بتسهيل التواصل والاتصال، حتى جعلت المجموعات البشرية المختلفة تشعر أن عالمها أصبح قريةً صغيرةً مفتوحة على كل ما يجري في أركانها. ولا شك بأن مجالاتِ التقانة السريعة التوسّع قد نقلتنا من عجائب الكهرباء إلى عجائب المواصلات، والآليات والطيران في الأفلاك وعلى رأسها منطلقات الذكاء الاصطناعي.

إن لغتنا لن يُعجزها متابعَةٌ مسارٍ تلك التقانات، فهي قادرةٌ على استيعاب مصطلحاتها مهما يكن سيرها سريعاً، حتى تبقى مصطلحاتها جاهزةً ومألوفةً من قبل العاملين في هذا المجال، ثمّكنهم من متابعة مجريات الإبداع في عالم التقانة.

ولا يظنُّ أحدٌ أن مثلَ هذا المسلك يُخرج العربية من فلكها الواسع الذي مازال يجول فيه العقل والفكر والخيال، بل إن تطوّر العلوم الأساسية، في سعيها الهادف إلى كشف الدقائق المرتبطة بطاقتها البحثية، قد جعلها تعتمد وسائل تنفيذيةً تُسهّل الوصول إلى تطبيقاتها، بعد النفوذ إلى مسارات الفكر الرياضي لتفهّم تفاعلاتٍ وعلاقاتٍ لا قدرة للبصر على النفاذ إليها. وهذا ما يدعونا إلى إدخال أساسيات التقانة وأدق تفاصيلها إلى لغتنا، لإخراجها من غُربتها في مسار طويل سلكناه في وضع المصطلحات الخاصة بالعلوم الدقيقة.

وبذلك نتدارك أيّ قطيعةٍ معرفيةٍ بين حاضرٍ مجتمعاتنا في مسارها نحو مستقبل مشرق، وبين ماضيها العريق المتميز بمساهماته في بناء العلوم الحديثة، ونقدّم للأجيال الناشئة ما يستطيعون ضمّه إلى مخزونهم الثقافي، فلا يبقى ما يلزمهم إلى اقتراضٍ مشوّهٍ للغتهم.

والسلام عليكم

كلمة الأستاذ الدكتور موفق دعبول^(*)

السيد الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية:

السادة أعضاء المجمع:

السادة الحضور:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

أشكر لكم حضوركم للمشاركة في هذا الاحتفال بيوم لغة الأم ويوم اللغة العربية. يهدف هذا الاحتفال، كما يهدف غيره من الاحتفالات الأخرى بمناسبات مختلفة، إلى تأكيد أهمية المعاني والقيم والأهداف التي جاءت المناسبة من أجلها.

أيها الحضور الكرام:

في الحادي والعشرين من شهر شباط عام ألف وتسعمئة واثنين وخمسين تظاهر آلاف الطلبة البنغاليين (من بنغلادش) مطالبين بحق التعليم باللغة البنغالية (لغة الأم لهم) وعدم إجبارهم على التعلم باللغة الأوردية لغة باكستان، فأطلقت قوى الأمن الباكستانية النار على المتظاهرين وقتلت أعداداً كبيرة منهم.

وبعد استقلال بنغلاديش عن باكستان أعلنت الحكومة البنغالية الحادي

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

والعشرين من شهر شباط كل عام عيداً لشهداء اللغة الأم. وقدمت بنغلاديش اقتراحاً في عام ١٩٧٩ لمنظمة اليونسكو تطلب فيه اعتبار الحادي والعشرين من شهر شباط عيداً للغة الأم. وافقت اليونسكو على الاقتراح، وكان أول احتفال بهذا العيد عام ٢٠٠٠.

وإضافة إلى ذلك كانت منظمة اليونسكو قد حددت العام ٢٠٠٨ عاماً دولياً للغات بعد أن لاحظت أن ٥٠٪ من اللغات في العالم، والبالغ عددها سبعة آلاف لغة، معرضة للزوال، وأشارت إلى أن ٣٠٠ لغة انقرضت في القرن العشرين.

ومن اللافت للانتباه أن يرد في تقرير لليونسكو أن اللغة العربية هي واحدة من اللغات المرشحة للاندثار، كما جاء في تقرير اليونسكو. ولعل اليونسكو في دعواها هذه قد لاحظت بعض المؤشرات والسلبيات في لغة التواصل بين أبناء العربية دون أن تضع في حساباتها العوامل الحقيقية لبقاء لغة أو اندثارها.

لقد اكتفت اليونسكو بالوقوف عند ظاهر اللغة، من حيث إنها أصوات للتعبير عن الحاجات. لقد غفلت عن تاريخ العربية وغناها وقدرتها، كما غفلت عن الصلة القوية بين العربية وأبنائها والناطقين بها. لاحظ هذه الصلة عالم إسباني يحمل جائزة نوبل، إذ بين ببحوثه ودراساته أن أربع لغات في العالم مرشحة لبقاء دون سواها... واللغة العربية واحدة منها. وأرى من المناسب أن أذكر هنا الدور الكبير للقرآن الكريم في حفظ اللغة العربية..

فمن الجانب القومي نذكر مثلاً ما تَبَّه عليه المؤرخ نقولا زيادة حيث قال: «علينا أن نتقن لغتنا، وإتقان هذه اللغة يقضي بأن يُقبَل كل واحد منا

على القرآن الكريم فيفهمه فهماً صحيحاً. أما المسلم فله عن ذلك أجره عند ربه. وأما الباقون فلهم على ذلك أجرهم عند نفوسهم وعند أبنائهم، الذين يُربونهم عندئذ تربية عربية خالصة».

وما تبّه إليه الشاعر القروي رشيد سليم الخوري إذ يقول: «علّموا القرآن والحديث ونهج البلاغة في مدارسكم وجامعاتكم لكي تبقى العربية الفصيحة دائرة على ألسنة العرب».

وأما على المستوى العالمي، فإن المسلمين في أنحاء العالم يهتمون باللغة العربية، لغة القرآن الكريم.

تُرى لماذا الاهتمام بلغة الأم؟..

تتعرض اللغات من جرّاء العولمة لتهديد متزايد وللانقار الكلي، وذلك لحساب اللغات المسيطرة على شبكات الاتصال كاللغة الإنكليزية. وإلى جانب انقراض اللغات وسيطرة عدد قليل من اللغات، إن الثقافات كذلك تتعرض للانقراض لتسود ثقافة الغالب، ومما لا شك فيه أن اللغات تعدّ من المقومات الجوهرية للهوية، وركيزة أساسية في الاتصال والاندماج الاجتماعيين والتعليم والتنمية، وهذا يؤدي إلى القضاء على الأنماط الفريدة في التفكير والتعبير، وإلى بتر الصلة بين واقع الشعوب وماضيها، كما يؤدي إلى غياب التنوع والتعدد، مما يؤدي إلى سيادة نمط لغوي ثقافي واحد... وتتجه الحياة على الأرض لتكون كثيفة: إن التجربة التركية في الاستغناء عن الحرف العربي واستبدال الحرف اللاتيني به، أدت إلى صعوبات بالغة في اتصال حاضر الأتراك بماضيهم.

لنتصور أن التعددية غابت عن تنوع الطعام الذي نتناوله، وعن الثياب التي نلبسها، وعن التنوع العمراني الذي يبهرنا وعن طرائقنا في الحديث

والتواصل مع الآخر... لنغدو بعد ذلك نسخاً مكررة... إن هذا لعمري يحتاج إلى إعادة صياغة سكان هذه المعمورة، ليكونوا نسخاً مكررة بدلاً من التعددية في هيئات وصفات من يعمر الأرض هذه الأيام.

إن التحول من اللغة الأم إلى لغة أخرى هو اعتداء صارخ على تاريخ الأمة وعلى تراثها.. هي حكم بالإعدام على ذاكرة الأمة، وهل يمكن لأمة أن تكون دون ذاكرة؟

إن الاهتمام باللغة الأم، لا يعني أبداً إهمال لغة الأم، إننا نجد في غالب البلدان أقليات قومية، تحرص على لغتها الأصلية. فالأم الشركسية مثلاً تحرص على تعليم أبنائها اللغة الشركسية، فهي لغة أمهم.. أما اللغة الأم في العالم العربي فهي اللغة العربية. هي إذن اللغة الموحدة على مستوى الأمة، فهي اللغة الرسمية ولغة التدريس ولغة التعامل.

وقد أشرت قبل قليل إلى أثر العولمة الاقتصادي والثقافي والسياسي واللغوي الذي يؤدي إلى جعل العالم في قبضة دول عظمى قليلة. ولكن دول العالم جميعها، وبخاصة دول العالم الفقيرة والمتخلفة، تَبَهَّت للمخاطر التي تنتظرها، وبدأت تتخذ الإجراءات المناسبة لحماية ذاتها. ونورد مثلاً على ذلك حال اللغة العربية في الشبكة.

أولاً: فيما يخص عدد مستعملي اللغة العربية على الشبكة، لقد بيّنت الإحصاءات وفقاً لموقع (Internetworldstates) أن اللغة العربية بتاريخ ٣١ كانون الأول ٢٠١٧ هي رابع لغة من حيث عدد المستعملين تسبقها اللغات الإنكليزية والصينية والإسبانية. ونسبة مستعملي اللغة العربية ٩,٤٪ من العدد الكلي لمستعملي الشبكة.

ثانياً: أما ما يتعلق بالمحتوى العربي فإن نسبة المواقع التي تكتب

بالعربية من بين مجموعة المواقع هي سبعة بالألف، وبذلك يحتل المحتوى العربي المرتبة السادسة عشرة بين اللغات العالمية.

يبدو للوهلة الأولى أن التعددية في مجتمع واحد تؤدي إلى تمزق المجتمع وتشردمه، وإلى انكفاء أهل كل ثقافة عن الثقافة الأخرى. ولكننا نرى أن التنوع والتعدد إغناء للأحياء وزينة للحياة، بل هو ضرورة من ضرورات الحياة. إنها معيار ارتقاء الإنسان عندما يقبل الآخر فيتعايش معه. وفي تاريخنا شواهد لا حصر لها على ظواهر التعددية. نرى مثلاً كيف أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد عقد، عندما دخل القدس في ١٥هـ- ٦٣٦م، ما يسمى العهد العمرى الذي أكد فيه حرية التدين وحق الاختيار الديني ونهج التعددية. لقد قام الفاتحون بتجميع التُّفَايات والقاذورات التي وضعها الرومان في مواطن العبادة، ثم حملوها في أرديتهم، فأعادوا بذلك الطهر والقداسة لأماكن العبادة.

وتنبه العديد من دول العالم على خطر العولمة على لغاتهم، لقد قال (هوشي مينه) الزعيم الفيتنامي: «لا انتصار لنا على العدو إلا بالعودة إلى ثقافتنا القومية ولغتنا الأم..». والتفت إلى أبناء قومه يقول لهم: «حافظوا على صفاء لغتكم كما تحافظون على صفاء عيونكم، حذار من أن تستعملوا كلمة أجنبية في مكانٍ يمكنكم أن تستعملوا فيه لغة فيتنامية».

وسئل (كونفوشيوس) ذات مرة عما سيصنع بادئ ذي بدء إذا ما كُلف أمر البلاد، فأجاب: «إصلاح اللغة بالتأكيد»، ثم سئل: «لماذا؟» فانبرى قائلاً: «إذا لم تكن اللغة سليمة، فما يقال ليس هو المقصود، وإذا كان ما يقال ليس هو المقصود، فما يستحق الإنجاز لن يُنجز، وإذا لم يُنجز ما يستحق إنجازَه، فإن الأخلاق والفنون يحلُّ بهما الانحطاط، وإذا ما انحطت

الأخلاق والفتون فالعدالة سوف تنحرف، وإذا ما انحرفت العدالة، فسوف يقف الناس مضطربين لا حول لهم. وعلى هذا، يجب التخلي عن الاعتبار في القول، وهذا أمر يتفوق في أهميته على كل أمر».

ولقد أوضح الأستاذ التونسي الدكتور عبد السلام المسدي ذلك إذ قال: «إن وضع اللغة العربية في هذه المرحلة التاريخية وضع حرج جداً. فهناك حملة واسعة، تصاحب حملة (العولمة) الثقافية تتقصد النيل من كل الثقافات الإنسانية ذات الجذور الحضارية المتأصلة. وفي مقدمتها الثقافة العربية. تتوسل هذه الحملات العدائية دائماً بالعامل اللغوي. وكثيراً ما تتعلل بأن العربية الفصحى لغة مفارقة للواقع الحقيقي، فتحاول أن تثبت في الوهم بأن لغة الواقع هي التي يجب أن تصبح اللغة الرسمية، وهذا معناه تحويلها إلى لغة تربوية، ثم إلى لغة إبداعية حتى يكتب بها الفكر، ومن هنا تتسلل المعاول الناسفة. أما المدى البعيد المنشود، فهو أن تلقى العربية نفس المصير الذي صادفته اللغة اللاتينية».

ويقول المسدي أيضاً: «الحقائق التاريخية الجديدة جَمْعٌ ينسلك في واحد، ليس للعرب منها خياران، إنما هو خيار فريد. أن يُقَوُّوا جبهتهم الحضارية الداخلية التي هي جبهة الهوية بنهضة فكرية قوامها العقل الصارم، وساعدها المتين حرية الرأي والتعبير، والتواصل القائم على النقد المسؤول، ويُقَوُّوا جبهتهم الثقافية أيضاً، بأن يقودوا الوظيفة الفاعلة الجبارة التي تؤديها اللغة القوية، ولن يؤديها بديل آخر من البدائل على وجه القطع والإطلاق».

يوم اللغة العربية:

إضافةً إلى اليوم العالمي للغة العربية الذي قرره الجمعية العامة للأمم المتحدة، وإلى يوم لغة الأم الذي قرره اليونسكو، أصدرت الجامعة العربية

قراراً دعت فيه إلى الاحتفال باللغة العربية في الأول من آذار من كل عام. جاء هذا القرار بعد أن لاحظت الجامعة العربية الأخطار التي تهدد لغتنا العربية وثقافتنا العربية، وبعد أن تعالت صيحات المفكرين والمثقفين العرب. واستجابةً لتوصيات المؤتمرات العربية ومجامع اللغة العربية وغيرها.. ولندكُز على سبيل المثال ما قاله عبد العزيز الرفاعي في دورة مجمع اللغة العربية في القاهرة شباط ١٩٩٢: «نحن العرب، ماذا بقي لنا كي نتماسك ولا نضمحل أو نتلاشى، ونذهب خيراً من الأخبار، ونذوب كما ذابت من قبلنا أممٌ فقدت شخصيتها السياسية؟ لم يبق لنا إلا اللغة، فقد تكالب علينا الغزو الثقافي من كل جانب، يعمل دائماً ليل نهار لكي يقوِّض ارتباطنا بلغتنا، لغة القرآن، ويحوّلها إلى أمشاج يسهل ابتلاعها، وتكييفها على النحو الذي يريد، وهو يدرك تماماً أنه إذا ما قوِّض اللغة، فإنه يقوِّض الدعامة الأساسية في كياننا، ويسهل عليه بعد ذلك أن يقوِّض بعدها كل الدعومات الأخرى لنتهار، واحدة تلو الأخرى، وبذلك لن تقوم لنا قائمة ولا تجمعنا رابطة».

وجاء في الخطة الشاملة للثقافة العربية:

إن تحليل الشكل اللغوي كشف عن عددٍ من المصاعب تواجهها اللغة العربية في هذا العصر، وكلها تتصل أساساً ببطء النمو الفكري والاجتماعي العام الذي تعاني منه الأمة العربية، فقد ظلّ ارتباط الثقافة باللغة العربية قائماً وثيقاً في التاريخ كله، وخاصةً بعد الإسلام. وقد توافق نُضج الثقافة العربية وعطاؤها مع ازدهار هذه اللغة وتفتُّحها، في عملية تبادلية من التأثير والتأثير. فلما انكمش ذلك العطاء، في القرون الأخيرة، انكمشت معه اللغة عن التطور والمشاركة في حياة العصر، حتى أصبحت في وطنها العربي تقترن

أحياناً بالتخلف الثقافي والفكري، في حين ارتبط الحراك الاجتماعي مكانةً ودوراً باللغات الأجنبية، واستعمال هذه اللغات في التعليم العالي أحياناً، وفي الإدارة، والسياسة، والعلوم، والتقنية في عددٍ من البلدان.

أيها الحضور الكرام:

لا يكون للاحتفال بهذا اليوم أو ذاك أيُّ معنى ما لم نسلط الضوء على حال موضوع الاحتفال نراقب الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية.. هل تقدمنا إلى الأمام أم ازداد الأمر سوءاً؟

من أجل ذلك سأطرح هنا بعض الحقائق تساعدنا على رسم الخُطأ نحو المستقبل.

أولاً) من الصعب جداً أن ننظر إلى حال اللغة العربية دون النظر إلى الجوانب الأخرى الحضارية والعلمية والاقتصادية وغيرها.

ولقد أوضح ابن خلدون في مقدمته «أن المغلوب يتبع الغالب يقلده في كل شأن من شؤونه».

وأشار ابن حزم إلى هذا الأمر فقال: «إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم.. فإنما يقي لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها، ونشاط أهلها، وأما من تَلَفَتْ دولتهم، وغلب عليهم عدوهم، فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم، وهذا موجود بالمشاهدة، ومعلوم بالعقل ضرورة».

وقال الدكتور قسطنطين زريق مرة: «إن المشكلة ليست في تخلف اللغة بل في أصحابها». وقال مصطفى صادق الرافعي: «ما ذلَّت لغةُ شعبٍ إلا ذلَّ، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار».

ثانياً) إن الاعتداء على اللغة العربية، ليس من خارج العرب، بل من

العرب أنفسهم أيضاً..

إنه مما لا شك فيه أن الدول التي استعمرت أجزاءً من العالم العربي عملت على إحلال لغتها بدلاً من اللغة العربية. لقد سعى الاستعمار الفرنسي للجزائر، على سبيل المثال، لأن يمحوا اللغة العربية من الوجود وكاد يفلح في ذلك، لولا الشعور الديني للجزائريين أو بعض الجزائريين.. لقد كانوا يحافظون على اللغة العربية بعيداً عن رقابة المستعمرين الفرنسيين، وذلك عن طريق حفظ القرآن الكريم.

قد لا نستغرب كثيراً صنع الدول المستعمرة، ولكن الأمر المذهل هو ما يفعله بعض العرب بلغتهم.. أليس غريباً أن يدعو أحد أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهو عبد العزيز فهمي، إلى العدول عن الحروف العربية إلى حروف لاتينية، ويدعو إلى الاستغناء عن ضبط الحروف والكلمات بالشكل؟

أليس ما كان يقوله سلامة موسى حول اللغة العربية الفصحى: «إن اقتراح الخط اللاتيني هو وثبة للمستقبل، وإن الذين يتعلقون بالعربية الفصحى جهلةٌ وحمقى»، أمراً يحمل في طياته الرغبة في قطع العلاقة بين حاضرنا وماضينا، وفي الإساءة إلى وجودنا؟!!

ثالثاً) إلى جانب أولئك الذين يهددون حصون اللغة العربية، هناك من انبرى للدفاع عنها والذود عن حياضها. فهي هو المفكر العربي ساطع الحصري يؤكد أن اللغة العربية هي لغة متطورة حية، قابلة للنمو والازدياد، بل والمقاومة لكل الأخطار التي تهددها من أعدائها الأجانب ومن أعدائها من الأبناء العاقين. فهو يقول: «ليس لدينا أدنى شك بأن اللغة العربية ستتجاوز كل مشاكلها وتتغلب عليها الواحدة بعد الأخرى، لتصبح لغة العلم كما هي لغة الأدب ولغة الشارع، كما هي لغة الكتب والمحاضرات المجمعية والعلمية».

ويقول المستشرق الفرنسي (ماسينيون): «لِيَصْمُدِ العرب؛ لأن العالم بأمسِّ الحاجة إليهم وَلِيَحْتَرَمُوا عربيتهم، هذه الآلة اللغوية الصافية، التي تصلح لنقل اكتشافات الفكر في الأقطار والأمصار كافة، وَلِيَحَافِظُوا على أصالتها، فلا تنقلبَ مَسْخاً مقلداً لِللغات الأوربية، أو تتخثرَ في حدودٍ ضيقة، شأن العبرانية الجديدة التي تخثرت في الصهيونية المتطرفة».

رابعاً) ينصرف الكثير من المشتغلين باللغة العربية إلى التركيز على الجوانب السلبية فيتحدثون عن ظاهرة التلوث اللغوي، وعن تفشي العامية، وعن ميل الشباب، في وسائل التواصل الاجتماعي وغيره، إلى الحديث بلغة أجنبية، أو استعمال كلمات أجنبية.. وغير ذلك، ولكنَّ يحسُن بنا أن نتأمل في الجوانب الإيجابية.

أ- تسعى مجامع اللغة العربية لصنع معاجم في مختلف العلوم للمصطلحات الأجنبية العلمية فتضع مقابلاتٍ عربية لها. فهذا هو مجمع اللغة العربية بدمشق قد فرغ من وضع بعض هذه المعاجم، وهو يتابع عمله في صناعة معاجم أخرى.. وكذلك يقوم مجمع القاهرة ببذل جهود في هذا الشأن..

ب- إن إصرار سورية على أن يكون التدريس باللغة العربية في جميع مراحل التعليم، ويشمل ذلك التعليم الجامعي، كان له كبير الأثر في إبقاء اللغة العربية حية في جوانب الحياة المختلفة. وتحاول الآن بعض الجامعات في العالم العربي الاقتداء بالتجربة السورية.

ج- عملت وسائل الإعلام المختلفة، وخاصة تلك التي تُصر على نقاء العربية، وعلى الابتعاد عن اللهجات المحلية؛ عملت على

اقتراب العاميات بعضها من بعض، ويصب ذلك في مصلحة العربية السليمة.

د- يؤدي المجتمع المدني، من خلال جمعيات أهلية، دوراً هاماً في حماية اللغة العربية لدى المواطنين.

ولقد قامت بعض الدول العربية بتشكيل لجان لتمكين اللغة العربية، وهذه لجنة التمكين في سورية مثلاً تبذل جهوداً كبيرة في معالجة التلوث اللغوي.

خامساً) لا بد من القول: إن ما تقدمه مجامع اللغة العربية وبعض الجامعات وغيرها من الأنشطة لا تكفي لمعالجة اللغة العربية، وغيرها من مظاهر التخلف العلمي والثقافي.. إن المعالجة الفعالة تبدأ في الأسرة والمدرسة والبيئة وأماكن العمل. إنها مشكلة إعداد المواطن الصالح المحب لوطنه ومواطنيه، مشكلة تحفيز الإبداع واستعمال العقل وإعادة النظر في علاقة المواطن بالآخر.

وقبل أن أختتم كلمتي أتوجه إليكم وإلى أبناء أمتنا العربية، وخاصة شبابنا أمتنا وشبابها لأقول: إنها أمانة في أعناقكم أن تدافعوا عن لغة في العالم، أن تحسبوا تعلمها، وأن تحاربوا كل تلوث يحرص البعض على إصابتها به كما يحرص على الحط من قيمتها؛ إنكم إذ تدافعون عن لغتكم فإنما تدافعون عن وجودكم وعن مستقبل الأجيال من بعدكم. لا تنهائونوا في التمكين لها، وتمتعوا بجمالها وسحرها، فالعبارة العربية كما يقول أحد المستشرقين: كالعود إذا نقرت أحد أوتاره رنت لديك جميع الأوتار. وقال آخر: اللغة العربية تفوق سائر اللغات رونقاً، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها.

ولقد قال أحد الباحثين ما يلي: أوليس من أعجب العجب أن لغة العرب، وهي معجزة البشر، في سعة مفرداتها، وضبط قواعدها، وحسن اشتقاقها،

وغزارة أدبها، وأنها ولدت مع الدهر، فلم يدرك طفولتها التاريخ، ولم يعرفها الناس إلا كاملة، قد هجرها أبناؤها في بلادها، وصاروا جاهلين بها، وأن لغة الإنكليز، وهي لمامة من اللغات، ليس لها أصل العربية ولا شرف نسبها، ولا طهارة دمها وأنها لا ضوابط لها، ففيها حروف تكتب ولا تقرأ، وحروف تقرأ ولا تكتب، والحرف يُقرأ في كلمة على غير ما يُقرأ في كلمة أخرى - صارت بفضل وعي أبنائها وخدمتهم لها أوسع لغات العالم انتشاراً..

ولنسمع (سيغريد هونكه) وهي تقول: «كيف يستطيع الإنسان أن يقاوم جمال هذه اللغة ومنطقها السليم وسحرها الفريد؟ فجيران العرب أنفسهم في البلاد التي فتحوها سقطوا صرعى تلك اللغة».

إنكم إن لم تحملوا هذه الأمانة بجدارة فإنَّ اللغة العربية تقول لكم:
 فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم وإن عزَّ الدواء أساتي
 أيُّطربكم من جانب الغرب ناعبٌ ينادي بوأدي في ربيع حياتي؟

* * *

من قرارات مجلس المجمع في الألفاظ والأساليب (*)

(١٧٩)

كابد وتكبّد

١- المسألة:

يشيع بين الكتّاب والمتكلمين استعمال الفعل (تكبّد) بمعنى تحمّل الأمر بمشقة، ويخطئه بعضهم؛ لأنه ليس لهذا البناء من الفعل هذا المعنى فيما ورد منه في المعاجم اللغوية.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «كابد الأمر، وتكبّد الأمر» بمعنى قاساه وعاناه.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: «تكبّد اللبْنُ وغيره: خثر.. ومكابدة الأمر: معاناة مشقته، وكابدتُ الأمر: إذا قاسيت شدّته.. ويقال: تكبّدتُ الأمر: قصدته.. وتكبّد الفلاة: إذا قصد وسطها.. وكابد الأمر مكابدةً وكباداً: قاساه» ومنها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].
- تاج العروس: «كَبَدَهُ يَكْبِدُهُ كَبْدًا: قَصَدَهُ كَتَكَبَّدَهُ، وَكَبَدَ الْبَرْدُ الْقَوْمَ: شَقَّ عَلَيْهِمْ وَضَيَّقَ مِنَ الْكَبَدِ، وَهِيَ الشَّدَةُ وَالضِّيْقُ، أَوْ أَصَابَ أَكْبَادَهُمْ».

(*) هذه قرارات مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق، وهي قابلة للتعديل في مؤتمر المجمع. (يرجى ممّن له ملاحظات عليها أن يتفضل بإرسالها إلى المجلة).

• الوسيط: «تكبَّد: غلظ وخثر.. وتكبَّد الأمر: قصده، وتكبَّدت الشمسُ السماء: توسطتها. وتكبَّد الفلاة: قدر عليها. وتكبَّد الأمر: تحمَّله بمشقة».

ب- في الصرف:

قولهم «تكبَّد» بمعنى أصاب وسَط الشيء ومعظمه، مأخوذ من (الكبَد) الذي من معانيه وسَط الشيء ومعظمه. ولذا فالتكبُّد هو إصابة وسَط الشيء ومعظمه. وهذا ما وردت به المعاجم. أما من ذهب إلى معنى (تحمُّل المشقة) فقد ذهب إلى اشتقاقه من (الكبَد) الذي معناه المشقة والعناء. وكذا فعلت العرب عندما اشتقت (كابَد) على بناء (فاعل) من (الكبَد) بهذا المعنى أيضاً. ومع أن هذا البناء يفيد المشاركة غالباً هنا لا يفيد بل يفيد الملازمة مع اسم الذات وهو (الكبَد).

إذن قولهم: «تكبَّد» لا يعدو أن يكون اشتقاقاً على بناء (تفعَّل) من (الكبَد) الذي هو المشقة والمعاناة. ومن المعروف أن من معاني (تفعَّل) الاتصاف بالشيء أو ملابسته نحو: ترَجَّل: مشى على رجليه، من الرَّجُل، وتجمَّل: إذا تكلَّف الجمال، وتروَّح: إذا أخذ ريح غيره، وتخلَّق: إذا اتخذ خلقاً، وتعنَّى الأمر: تكلفه على مشقة، هو مأخوذ من العناء، وهو المشقة والتعب.

ج- في الاستئناس:

- أقرَّ مجمع اللغة العربية في القاهرة الفعل (كبَّد) بمعنى (حمَّل) وكلَّف) ومثَّل له بقولهم: «جيشنا كبَّد العدو خسائر فادحة». وعدَّ ذلك من قبيل تكملة المادة اللغوية. (الألفاظ والأساليب ٨٣ / ٤).

وإذا أجز (كبَّد) بمعنى حمَّل وكلَّف المتعدية إلى مفعولين فمطاوعه هو (تكبَّد)، وهو متعدُّ لواحد. وعليه يصح أن يقال: «كبَّد جيشنا العدو خسائر فادحة»، ويجوز مطاوعه (تكبَّد) بأن يقال: «تكبَّد العدو خسائر فادحة».

العضو: د. ممدوح خسارة

٤ - قرار اللجنة:

جواز قولهم: «كابد الأمر، وتكبد الأمر» بمعنى قاساه وعاناه.

* * *

(١٨٠)

لا بدّ وأن

١ - المسألة:

يشيع في أساليب الكتّاب المعاصرين زيادة الواو بين (لا بدّ) والمصدر المؤول بعدها من أن والفعل أو أنّ ومعموليتها، كأن يقال: «لا بدّ وأنّ الأمر مهم»، أو «لا بدّ وأن تحضر»، ويخطئ بعضهم زيادة الواو في مثل هذا التركيب، ويرى أن الصواب حذفها.

٢ - الاقتراح:

جواز زيادة الواو بين (لا بدّ) والمصدر المؤول بعدها من أن والفعل أو أنّ ومعموليتها في مثل قولهم: «لا بدّ وأنّ الأمر مهم» أو «لا بدّ وأن تحضر».

٣ - التعليل: أ- في النحو والقراءات:

أصل المسألة هنا هو جواز زيادة الواو في هذا التركيب، وفيما ورد عن العرب.

والمعروف أن هذه من مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين، ولكن الجدل يدور ثم حول ورودها في الآية (٧٣) من سورة الزمر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾، وكان الخلاف حول جواب (إذا) هل هو (فتحت) وتكون الواو زائدة أم أن الجواب محذوف والتقدير: حتى إذا جاؤوها صادفوا الثواب الذي وعدوه وفتحت أبوابها.

وعلى هذا ذهب الكوفيون إلى زيادة الواو بدليل أنها وردت في الآية (٧١) من السورة نفسها محذوفة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحْتِ أَبْوَابُهَا﴾. الإنصاف ٢/ ٤٥٩.

ومما يعضد رأي الكوفيين أن الآية (٧٠) من سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ﴾ وردت بقراءة عبد الله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ وَجَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ﴾.

ويرى الفراء أن الواو زائدة في هذه الآيات (معاني القرآن ٢/ ٥٠)، وكذا ابن قتيبة يقول: «وواو النسق قد تزداد حتى يكون الكلام كأنه لا جواب له» وذكر آيات الزمر والصفات. (ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ٢٥٢-٢٥٤) ونقل الهروي في الأزهية (٢٣٤) قول ابن قتيبة في بيت امرئ القيس (ديوانه: ٩٨):

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحي بنا بطن خبت ذي غفاف عقتل
(أراد: انتحي). ويذكر مثل ذلك في أبيات مشابهة. ويسمي الهروي هذه الواو «المقحمة» لأنه لو لم تجئ بها لكان الكلام تاماً.

ويؤيد ابن هشام في (المغني ٤٧٣-٤٧٤) زيادتها بقوله: «والثامن [من أنواع الواو] وأو دخولها كخروجها، وهي الزائدة، أثبتها الكوفيون والأخفش وجماعة، وحمل على ذلك: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾، بدليل الآية الأخرى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحْتِ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١]... وقيل: هي عاطفة والزائدة الواو في ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ أي الواو في (وقال) هي الزائدة.

إذن هو يثبت زيادة الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ في الآية نفسها. ويؤكد ما استتجنه من كلام ابن هشام قوله: «والزيادة ظاهرة في قوله: ولقد رمقتك في المجالس كلها فإذا وأنت تعين من يبغيني

ومما لا يمارى فيه كثيراً زيادتها في قولهم في الصلاة: «ربنا ولك الحمد». فإذا رُجِّحت زيادة الواو في المواضع السابقة، فلا ضير في تجويز زيادتها بعد (لا بدَّ).

ب- في الاستثناس: ورد في الكتب التالية:

- لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ٤ / ١٨١:
- «في ترجمة علي بن عبيد الله الزاغوني الفقيه الحنبلي (٥٢٧هـ): «فمن رام الجمع بين علم الأنبياء عليهم السلام وبين علم الفلاسفة بذكائه لا بدَّ وأن يخالف هؤلاء وهؤلاء».
- العبارة نفسها في ميزان الاعتدال للذهبي ٢ / ١٠٠.
- البرهان في علوم القرآن للزركشي (٧٩٤هـ): «إن المطاوع [من الأفعال] والمطاوع، لا بد وأن يشتركا في أصل المعنى».
- وجاء في تاريخ ابن خلدون ١ / ٢٩٣: «وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة».
- بغية الوعاة للسيوطي (٩١١هـ) ٢ / ٨٩: «وصنَّف نحو مئة وخمسين كتاباً مطوّلاً ومختصراً، والمختصر منها لا بد وأن يشتمل على ما لا يوجد في غيره من تحقيق وتحريير لقاعدة واستنباط دقيق».
- مختصر المعاني للتفتازاني ١ / ٣٧: «واعترض عليه الإمام فخر الدين الرازي بأن الفعل لا بد وأن يكون له فاعل».
- معجم الأدباء للحموي ٢ / ٢٠١: «فكان يخطر ببالي وأنا مريض أن الله تعالى لا بد وأن يمنَّ بالعافية».
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ٢ / ٧٢: «وإنما نالته [عشرات الدهر]، ونيلها إياه لا بد وأن يقع في زمن من الأزمنة».

- وجاء في الرسالة التدمرية لابن تيمية ٧٦ / ٢: «فلا ريب أن من أراد بالظاهر هذا لا بد وأن يكون له تأويل يخالف ظاهره».
- إحياء علوم الدين للغزالي ٣٢٤ / ٤: «فالتمسوا نوراً يدل على أن الأنوار لا بد وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقاً».
- وجاء في المحصول في علم الأصول للرازي (٦٠٦ هـ) ٢٠٧ / ١: «ولا يتسلسل بل لا بد وأن ينتهي».
- ٤٣ / ١: «وهذا لا بد وأن يكون مشروعاً»
- في تفسير الفخر الرازي مكرراً عشرات المرّات منها (٥١٩ / ١٨): «واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والرحمة والحكمة لا بد وأن تكون من أمور محسوسة».
- فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٢٧٩ / ١٢: «وأن الذي تمثل به في هذا المقام لا بد وأن يكون من جنس ما دخل في الحكم المذكور».
- وتكرر هذا التركيب نحو ألفي مرة في كتب ما بعد عصر الاحتجاج وكتب المعاصرين.
- أقرها مجمع القاهرة في الألفاظ والأساليب ٢٨٦ / ٤.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤ - قرار اللجنة:

جواز زيادة الواو بين (لا بدّ) والمصدر المؤول بعدها من أن والفعل أو أنّ ومعمولها في مثل قولهم: «لا بدّ وأنّ الأمر مهم» أو «لا بدّ وأنّ تحضر»، والأولى عدم زيادة الواو.

* * *

(١٨١)

(يُنْعَى) لا (يَنْعَى)

يشيع في استعمال بعض الكتاب الفعل (يُنْعَى) بالياء، بمعنى (يعلن وفاة)، وهو خطأ، والصواب (يُنْعَى) بالألف المقصورة، لأن الفعل (نَعَى) مفتوح العين في المضارع، وهو من الباب الثالث مثل فَتَحَ يَفْتَحُ وسَعَى يَسْعَى. وكل ما كانت عينه مفتوحة في الماضي والمضارع فهو حلقي العين أو اللام إلا بعض شواذ ليس فيها (نَعَى). جاء في لسان العرب: «نَعَى الميْتَّ يَنْعَاهُ نَعِيًّا وَنَعِيًّا وَنُعِيَانًا: إِذَا أذَاعَ مَوْتَهُ وَأَخْبَرَ بِهِ وَإِذَا نَدَبَهُ» وكذا في سائر المعاجم.

والفعل (نَعَى) من باب (فعل يفعل) مفتوح العين في المضارع، ومعروف أن عين المضارع في العربية تضبط سماعاً، ولم يُسمع عن العرب غير الفتح في عين هذا الفعل.

العضو د. ممدوح خسارة

قرار اللجنة:

كلمة (يُنْعَى) خاطئة، والصواب: (يُنْعَى).

* * *

(١٨٢)

نَفَدَ وَنَفَذَ

يستعمل بعض الكتاب والمتحدثين الفعل (نَفَذَ) بمعنى (انتهى)، كقولهم: «نفذت البضاعة من السوق»، بالذال، وهو استعمال خاطئ؛ لأن الصحيح في هذا الاستعمال هو: «نَفَذت البضاعة» بالذال وكسر الفاء.

جاء في الصحاح: «نَفَذ الشيء، بالكسر، نَفَادًا: فَنِيَ.. وَأَنْفَذْتُهُ أَنَا، وَأَنْفَذَ القوم: أَي ذَهَبت أموالهم، واستنفذ وَسَعَهُ: أَي استفرغه».

وفي القاموس المحيط: «نَفِدَ الشيء كسَمِعَ يَنْفَدُ نَفَاداً وَنَفْداً [بالدال] فَنِي وَذَهَبَ.. وَأَنْفَدَهُ هُوَ: أَفْنَاهُ كَأَسْتَنْفَدَهُ».

وفي التنزيل الكريم: ﴿مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، قال الزجاج: «معناه: ما انقطعت ولا فُتيت».

أما (نَفَذَ) بالدال، فهو كما في تاج العروس: «النَّفَاذُ: الجواز، تقول: نَفَذْتُ: أَي جُزْتُ، وقد نَفَذَ يَنْفُذُ [بضم الفاء] نَفَاذاً كَالنُّفُوذِ. والنفاذ: مخالطة السهم جوف الرميّة وخروج طرفه من الشق الآخر».

وفي لسان العرب: «نَفَذْتُ: أَي جُزْتُ. وقد نَفَذَ يَنْفُذُ [بالذال وفتح الفاء في الماضي وضمها في المضارع] نَفَاذاً أَوْ نُفُوذاً.. والنَّفَاذُ: الجواز.. وفي المحكم: جواز الشيء والخلوص منه».

والخلاصة: يقال: نَفِدَ يَنْفَدُ (بالدال وكسر الفاء في الماضي وفتحها في المضارع) بمعنى انتهى ينتهي، وَنَفَذَ يَنْفُذُ (بالذال وفتح الفاء في الماضي وضمها في المضارع) بمعنى جاز واخترق.

العضو: د. ممدوح خسارة

قرار اللجنة:

يقال: نَفِدَ يَنْفَدُ بمعنى انتهى ينتهي وَنَفَذَ يَنْفُذُ بمعنى جاز واخترق.

* * *

(١٨٣)

ها أنا وها أنذا

١- المسألة:

يخطئ بعضهم عبارة (ها أنا)، ويرون أن الصواب هو (ها أنذا) لأن (ها) التنبيه لا تدخل إلا على اسم الإشارة.

٢- الاقتراح:

صحة قولهم: «ها أنا» دون اسم الإشارة أي دخول (ها) التنبيه على ضمير مخبر عنه.

٣- التعليل: أ- في النحو:

من المعلوم أن (ها) التنبيه تدخل على أسماء الإشارة إلا ما قبل كافه لام. وأنه يجوز أن يفصل بين (ها) التنبيه واسم الإشارة بضمير المشار إليه مثل: (ها أنا ذا، وها أنتِ ذي، وها نحن أولاء).

ولكن مما جاء في كتب النحو:

- أنها تدخل على ضمير المخبر عنه باسم الإشارة نحو: ﴿هَاتَيْتُمْ أُوْلَاءَ تُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]. وقيل إنما هي داخله على اسم الإشارة فقدمت، فردّ بنحو: ﴿هَاتَيْتُمْ هَؤُلَاءَ حَبَجْتُمْ﴾ [آل عمران: ٦٦] لأنه يفضي إلى أن ثمة هاء ي تنبيه في اسم الإشارة (أولاء). (مغني اللبيب ٤٥٦، والجني الداني ١/ ٥٨).

- وتدخل على جملة ليس فيها اسم إشارة، كما يفهم من تمثيل الغلاييني لها في جامع الدروس العربية ١/ ١٢٩ بقوله: «ها إن الوقت قد حان».

مما جاء في كتب الاحتجاج:

جاء في شعر عصر الاحتجاج وما بعده أن (ها) التنبيه قد تدخل على ضمير مخبر عنه بغير اسم الإشارة، ومن ذلك:

- قال أبو كبير الهذلي: (الحماسة البصرية ٥٧٥- ونسب إلى عوف بن محمّل في الكامل للمبرد ٧١٧)

وَلَوْعًا فَشَطَّتْ غَرْبَةً دَارُ زَيْنَبٍ فها أنا أبكي والفؤاد قريح
- وقال سحيم: (ديوانه ٥٤)

لو كان يبغى الفداء قلت له ها أنا دون الحبيب يا وجع
ومما يُستأنس به:

- قال ابن الرومي: (ديوانه ٣: ١٢١٤)
- ها أنا المنذر المحذّر من يظلم شعراً في سُوقِ ورئيس
- وقال ابن زيدون: (ديوانه ١٤٦)
- لا يَنمِ الواشي الذي غرّني ها أنا في ظل الرضى نائم
- وقال أبو حيان الأندلسي: (٣٩٥ / ١٦٢)
- أيا لافظاً بالسحر ها أنا سامع ويا ناثراً للدر ها أنا جامع
- وقال ابن حمديس الصقلي: (ديوانه ٥٦٩ / ٦٣٣)
- يا ثاني البدر في تكامله ها أنا في القسم للشها ثان
- وقال الثعالبي: (ديوانه ٦٩)
- يا واحداً في الحسن ها أنا واحدٌ في الحزن أصلى حرّ نارٍ مضمّر
- ومما جاء في منشور كلامهم دخولها على الجملة الفعلية:
- جاء في فتح القدير ٤٠١ / ١١: «تقدّم في حديث الغامدية (أنه ردّها حتى يستغني فرجعت، ثم جاءت به وفي يده كسرة وقالت: ها قد فطمته)».
- وجاء في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٣٧٢ / ٢ في حديث الحارث الغطفاني: «فدعا سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسعد بن زرارة فقال: ها قد تعلمون أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة».
- ونصّ الغلابيني (جامع الدروس العربية ٣ / ٢٦٣) على دخولها على الماضي المقرون بـ (قد) ومثّل لها وله: «ها قد رجعت».

العضو: د. ممدوح خسارة

٤ - قرار اللجنة:

صحة قولهم: «ها أنا» دون اسم الإشارة، أي دخولها التنبيه على ضمير مخبر عنه.

* * *

(١٨٤)

الوزارة بمعنى الهيئة الإدارية التنفيذية العليا لقطاع من قطاعات الدولة،
وبمعنى مجلس الوزراء والحكومة

١- المسألة:

يشيع في العربية المعاصرة استعمال كلمة (الوزارة) بمعنيين أولهما:
الهيئة الإدارية التنفيذية العليا لقطاع من قطاعات الدولة، وثانيهما: الحكومة
أي مجلس الوزراء.

وليس للكلمة هذه الدلالة في المعاجم العربية.

٢- الاقتراح:

جواز استعمال كلمة (الوزارة) بمعنى الحكومة أو مجلس الوزراء، وبمعنى
الهيئة التنفيذية العليا لقطاع من قطاعات الدولة، وإضافة هذه المعاني إلى المعجم.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

لسان العرب: «الوزير حَبَأُ [الْحَبَأُ: جليسُ الملكِ وخاصَّتهُ] الملك الذي
يحمل ثقله ويعينه برأيه... وحالته الوزارة. والوزارة والوزارة، والكسر
أعلى... والوزير: الموازر».

الوسيط: «وزر له: صار وزيراً له. الوزارة والكسر أعلى: حال الوزير
ومنصبه. والوزير: المُوَازِرُ وخاصَّةُ الملك، ورجل الدولة الذي يختاره
رئيس الحكومة للمشاركة في إدارة شؤون الدولة مختصاً بجانب منها،
كوزير العدل ووزير المالية، ج. وزراء وأوزار».

والواضح مما ذكر أن المعاجم لم تورد (الوزارة) بأي من الداليتين
الشائعتين لها في هذا العصر.

ب- في الصرف:

الوزارة مصدر من الفعل (وَزَرَ)، جاء على بناء (فِعالَة)، وهو مصدر قياسي يدل على حرفة، فلا خلاف فيه.

ج- في الدلالة:

المعنى القديم لكلمة (الوزارة) هي إعانة الملك أو الأمير على الإطلاق دون تحديد. أما الدلالة الحديثة لها فهي إعانة وليّ الأمر ومؤازرته في إدارة جانب من شؤون الدولة، وهي شؤون متعددة كالشأن المالي مثلاً وتنهض به وزارة المالية، والشأن التعليمي وتنهض به وزارة التربية والتعليم. فالمعنى الحديث متضمّن في المعنى القديم، ولكن بالتخصيص لا بالإطلاق، فالوزير هو بالدلالة المحدثة مؤازرٌ ومعينٌ وليّ الأمر أو رئيس الدولة في شأن محدّد من شؤون الدولة لا في كل شؤونها، وذلك بعد أن تشعبت هذه الشؤون. فما طرأ على الكلمة هو تخصيص الدلالة أو تقييدها بالعون والمؤازرة بجانب معين من مهام الدولة وخدماتها.

وإذا كانت الوزارة بالدلالة المحدثة تطلق على هيئة إدارية تنفيذية عليا تُعاون وليّ الأمر في شأن من شؤون الدولة، فإن لها معنى آخر محدثاً أيضاً وهو الدلالة على الحكومة كاملة بجميع وزرائها، أي على (مجلس الوزراء) الذي يتولى - بمجموع وزاراته - إدارة مختلف شؤون الدولة ومهامها، ففي قولهم: «اجتمعت الوزارة» لا يعنون بالوزارة وزارةً بعينها كالخارجية أو الداخلية فحسب، وإنما يعنون بها مجلس الوزراء أي الحكومة أيضاً.

ومما سبق يتبيّن أنه صار لكلمة الوزارة في العربية المعاصرة دلالتان: الأولى: هي هيئة إدارية تنفيذية عليا تُعين وليّ الأمر في جانب معين من شؤون الدولة كوزارة العدل أو الاقتصاد.

والثانية: الحكومة أي كل الوزراء الذين يتألف منهم مجلس الوزراء.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤ - قرار اللجنة:

جواز استعمال كلمة (الوزارة) بمعنى الحكومة أو مجلس الوزراء،
وبمعنى الهيئة التنفيذية العليا لقطاع من قطاعات الدولة، وإضافة هذه
المعاني إلى المعجم.

* * *

المحاضرات والندوات

أ- المحاضرات التي أقيمت في المجمع

عام ٢٠١٨م

تاريخ الإلقاء	عنوان المحاضرة	المحاضر
١ / ٣١	الريادة الشامية في العربية والشعر في عصر سيف الدولة	د. عيسى العاكوب
٤ / ٢٥	أخلاقيات البيولوجية والإعلان العالمي بشأن الجينوم البشري	د. عبد الجبار الضحاك
٦ / ٢٧	هل الزبأ ملكة تدمر...؟! شواهد الزلازل التاريخية	د. رفعت هزيم
٩ / ٢٦	على الآثار في سورية	د. ميخائيل معطي
١٠ / ٣١	مبادئ التشكيل الصوتي للغة العربية	د. أحمد قدور
١١ / ٢٨	الثقافة والعولمة الثقافية	د. وهب رومية
١٢ / ٢٦	المرأة في الأندلس	د. محمد رضوان الداية

* * *

ب- الندوات التي عقدت عام ٢٠١٨م

عنوان الندوة:

احتفال بمناسبة يوم اللغة الأم ويوم اللغة العربية

بتاريخ ٢٨ / ٢

وقائع الندوة:

- كلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني.
- كلمة الأستاذ الدكتور موفق دعبول.

* * *

إصدارات المجمع عام ٢٠١٨ م

- الأستاذ الدكتور عبد الله واثق شهيد: سيرته بقلمه.
- الأستاذة الدكتورة ليل الصباغ: تأليف: الدكتور محمود الحسن.
- تاريخ مدينة دمشق: المجلد ٢٠، تحقيق: مأمون الصاغر جي.
- تذكرة الأبشيهي: تحقيق: سميح صالح.
- التقرير السنوي لعام ٢٠١٧.
- حفل تأبين الأستاذ الدكتور أنور الخطيب عضو المجمع.
- حفل تأبين الأستاذ شحادة الخوري عضو المجمع.
- الدكتور حسني سبوح: تأليف الدكتور صادق فرعون.
- الفيزيائي المجمع الدكتور عبد الرزاق قدورة: تأليف: الدكتور أحمد الحصري.
- الكلمات المفسرة في سيرة ابن هشام وتعقيب السهيلي عليها: تأليف: ناهدة تقي الدين.
- معجم الإبدال اللغوي من لسان العرب (الأفعال): تأليف: الدكتور ممدوح خسارة.
- معجم مصطلحات الرياضيات.
- معروف الأرنؤوط: تأليف: الدكتور نزار أباطة.
- نحو إتقان الكتابة العلمية باللغة العربية: تأليف الدكتور مكّي الحسني.
- مجلة المجمع المجلد ٩٠ الأجزاء (١-٢-٣-٤).

الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة مجمع اللغة العربية في الربعين الثالث والرابع من عام ٢٠١٨م

أ. أنور درويش^(*)

أ- الكتب العربية

- الاتجاهات الفكرية العربية في الصحافة: سهيل الملاذي، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦.
- ترجمة الشيخ عبد الله بن محمد سليم المنجد: صلاح الدين بن عبد الله المنجد، تقديم: مازن المبارك، دار البشائر، دمشق، ٢٠١٨.
- التعليم الشرعي ومدارسه في حلب في القرن الرابع عشر الهجري: محمد عدنان كاتبي، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦.
- ثلاثون دراسة استشراقية في اللغة والنحو واللهجات: حامد ناصر الظالمي، باقر الكرباسي، دار روافد، بيروت.
- ثنائيات الحسيني: علي الرضا الحسيني، دمشق، ٢٠١٨.
- الحركة الشعرية في زمن الأيوبيين في حلب الشهباء: أحمد فوزي الهيب، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦.

(*) أمين المكتبة العربية في المجمع.

- الحركة الشعرية في زمن المماليك في حلب الشهباء: أحمد فوزي الهيب، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦.
- الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين: عائشة الدباغ، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٧.
- حلب بين التاريخ والهندسة: محمود فيصل الرفاعي: جامعة حلب، حلب، ١٩٩٦.
- حلب حضارة وعمارة: ميكل إرنال، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦.
- حلب والحروب الصليبية: جميل جمول، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦.
- دراسات في العُدوان الاستشراقي والتبشيري: محمد غسان الجبان، دار أفنان، دمشق، ٢٠١٨ (أبحاث ودراسات؛ ٩).
- دروس قواعد اللغة العربية: محمد كامل التونسي، اعتنى به: علي الرضا الحسيني، دمشق، ٢٠١٨.
- زبدة الحلب من تاريخ حلب: عمر بن أحمد بن هبة الله (ابن العديم)، عني به: سامي الدهان، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦، ٣ أجزاء، ٣ مجلدات.
- سورية في مواجهة الحرب الكونية: إشراف: نجاح العطار، الهيئة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٨.
- الشرق الأوسط عشية الحداثة: حلب في القرن الثامن عشر: إبراهيم ماركوس، ترجمة: هيثم حمام، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦.
- الطب في دمشق في العهد الزنكي والأيوبي: زهير محمد ناجي، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، ٢٠١٨.

- القدس في عيون الشعراء: محمد قجّة، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٩.
- قراءة في الإبداع الأدبي الحلبي: محمود محمد أسد، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦.
- الكتاب الذهبي: توثيق فعاليات احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية إشراف وتقديم: محمد قجّة، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦.
- لمحات من حماية البيئة في التراث العربي الإسلامي: محمد صبحي صقار، تقديم: بشير الكاتب، محمود عكام، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦.
- المستدرک الأول: الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين: جمعها: علي الرضا الحسيني، دمشق، ٢٠١٨.
- معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب: أبو الوفاء بن عمر الحلبي العرضي، تحقيق: محمد التونجي، حلب عاصم الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦.
- ندوة الحركة العلمية والأدبية في حلب زمن الأيوبيين: الإشراف: محمد قجّة، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠٠٦.
- وقائع أبحاث الندوة العلمية الدولية: دور المكتبات والتوثيق في المكتبات: الإشراف: محمد قجّة، حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، حلب، ٢٠١١.

الفهارس العامة للمجلد الحادي والتسعين

أ - فهرس أسماء كتاب المقالات

٤٠١	د. إبراهيم عبد الله
٢١٥	د. رفعت هزيم
٤٦١	د. سعد فرج الله
٤٣١	د. سمر الديوب
٥٣	د. عبد الكريم حسين
٣٢٩، ١٧٧	د. عبد الناصر عساف
٥١٩، ١٩٧	د. عيسى العاكوب
٧٧	د. فاطمة رسن
٥٠٧	د. لبانة مشوح
١٦٧	د. مازن المبارك
٣٦٥، ٢٣	د. رضوان الداية
١١١	د. محمد قاسم الزوكاني

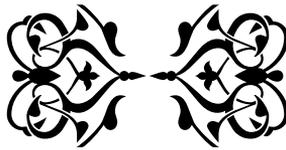
٢٩١،١٤٩	د. محمود السيد
٤٩٩،١٥٧	د. مكّي الحسني
٣١٣،٥	د. ممدوح خسارة
٧٧	د. نادية هناوي

* * *

ب - فهرس عناوين المقالات

- إتمام الأنس في عروض الفرس لطاهر الجزائري - قراءة في
النص والتحقيق
٣٢٩
- اجتهادات في الدرس النحوي جواز الإفراد والتذكير في اسم
التفضيل المعرف بأل
٥
- إصدارات المجمع عام ٢٠١٨ م
٥٨١
- إعراب المثني والجمع الذي على حدّه
٤٠١
- أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق في مطلع عام (١٤٣٩ هـ -
٢٠١٨ م)
٢٦٩
- الجهد النقدي في كتاب (معالم في النقد العربي الحديث)
للدكتور عبد الكريم الأشر
١٩٧
- الحجاج في بائية إسماعيل بن يسار النسائي
٤٣١
- الرواية الواقعية الجديدة وجدليّة التساؤل
٧٧
- ألفاظ عربية توضحها اللغات العروبية القديمة
٢١٥
- الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة المجمع عام ٢٠١٨
٥٨٣، ٢٦٥
- المحاضرات والندوات عام ٢٠١٨ م
٥٧٩
- المدرسة الشعرية الشامية في عصر سيف الدولة الحمداني
٥١٩
- المعجزة
١٦٧
- المعجم وعلاقته بالنحو عند الدكتور تمام حسان
٤٦١
- تعبير معنى الكلمة بتغيير لفظها
٤٩٩
- تكرار القافية بين النقد والبلاغة والعروض والقافية
٢٣

- ٣١٣ - تكملة مادة لغوية (أثر - أسس - تَمَّتْ - جَمَّ - رَجَدَ)
- ٥٠٧ - جهود التعريب في التعليم العالي جامعة دمشق نموذجاً
- ١٤٩ - ذكريات مع المجمع الراحل الشاعر سليمان العيسى
- ٣٦٥ - شواهد الشواهد نمط عالٍ من الشعر الوجداني
- ٥٨٧ - فهرس العدد الحادي والتسعين
- ٢٩١ - قراءة نقدية في بحوث مؤتمر مجمعي ج ١
- ٥٣ - قلائد زهير وعجائبه في ضوء نقد الثعالبي
- ١٥٧ - كل وجميع والفروق بينهما
- ٥٤٥ - كلمة الدكتور مروان المحاسني في الاحتفاء بيوم اللغة الأم
ويوم اللغة العربية
- ٥٥٢ - كلمة الدكتور موفق دعبول في الاحتفاء بيوم اللغة الأم ويوم
اللغة العربية
- ١١١ - من صور الاستدلال بالقياس في تصحيح الأخطاء الشائعة
في العصر الحديث
- ٥٦٥، ٢٤١ - من قرارات مجلس المجمع في الألفاظ الأساليب
- ١٧٧ - نظرات أخرى في بعض قرارات مجلس المجمع في بعض
الألفاظ والأساليب ج ٢



تنضيد وإخراج: عمار البخاري